



## © أوراق فلسطينية

تصدر عن مؤسسة ياسر عرفات  
رئيس مجلس الادارة: د. ناصر القدوة

رئيس التحرير: يحيى يخلف  
مدير التحرير: غسان زقطان  
مستشار التحرير: فيصل دراج

شارك في التحرير: فيصل حوراني  
عبد الفتاح القلقيلي  
أحمد نجم

الهيئة الاستشارية: حلمي النممن  
كمال عبد اللطيف  
محسن بوعزيزي  
كريم مروة

ادارة: رفيف الأسمر  
وليد زبيدي

تصميم الغلاف: زهير ابو شايب  
التصميم الفني والإخراج: خالد حوراني  
عاصم ناصر

جميع الحقوق محفوظة لمؤسسة ياسر عرفات

ISBN 978-9950-375-02-4

A W R A Q F E L A S T I N I A



فصلية فكرية عربية تصدر عن مؤسسة ياسر عرفات

العدد «٢» ربيع ٢٠١٣

#### المراسلات:

العنوان: ص. ب: ٥٧٣

رام الله - فلسطين

هاتف: ٢٩٥٧٣٧٣ - ٩٧٠٢ + / ٢٩٥٧٣٧٢ - ٩٧٠٢ +

Email: awraq.falastinya@gmail.com

#### الاشتراكات السنوية:

٥٠ دولاراً للأفراد، ٨٠ دولاراً للمؤسسات (بما فيها نفقات البريد)

ترسل الاشتراكات شيكاً إلى العنوان البريدي أو حوالة بنكية على حساب المؤسسة:

البنك العربي

رام الله - فلسطين

فرع الماصيون

رقم الحساب: ٥١١ - ٤٨٠٢٥٢ - ٩٠٩٠

**Ps 57 arab00000009090480252510**

## الفهرس

٦ الفنان مصطفى الحلاج

## الافتتاحية

٩ موقع فلسطين في الحراك الشعبي العربي  
يحيى يخلف

## أوراق فلسطينية:

١٥ مراجع الوطنية الفلسطينية

د. فيصل درّاج

٢١ تجليات الوطنية الفلسطينية

د. فيصل دراج

٢٣ المشروع الوطني.. اعادة صياغة أم رؤية

جديدة؟

د. غازي حمد

٤١ آفاق التسوية

نظير مجلي

٥١ أوروبا وفلسطين: بين الاقتراب

والمسؤولية

عاطف أبو سيف

٧٥ عرفات والشيوخيون .. علاقة ثابتة وحميمة

فيصل حوراني

## أوراق فكرية:

٨٩ الإخوان من التنظيم إلى السلطة

حلمي النممن

١٠١ آفاق الحراك الشعبي للثورة المصرية

محمود الورداني

١١٣ الإسلاميون والحكم في المغرب الأقصى..

حصاد سنة

د. امحمد مالكي

١٢٥ مستقبل التنوير في بلدان الربيع العربي:

سوريا نموذجاً

د. عبد الرزاق عيد

١٣٩ الربيع العربي بين الإرادة الشعبية

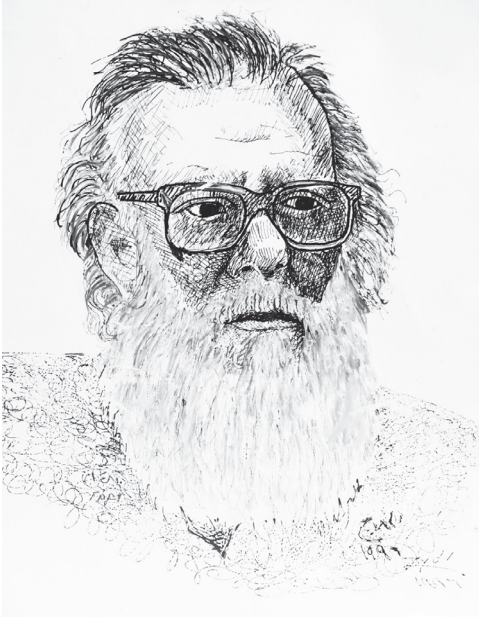
ونظرية المؤامرة

عبد الغني سلامه

## الفهرس

- ١٥١ المصالحة الوطنية في إطار العدالة الانتقالية  
عبد الفتاح القلقيلي
- ٢٠٧ (تزامن ما لا يتزامن)  
"ابنة خالتي كونداليزا" لمحمود شقير  
د. ابراهيم أبو هشيش
- أوراق ثقافية:  
١٦١ لا شيء يحدث  
مي صايغ  
١٧٥ خمسُ أقاصيص  
محمود الريماوي  
١٧٩ يوميات الحرب  
رائد وحش  
١٨٩ حصة مهمة  
مريم الحيدري  
١٩٥ شجرة كقلب مفتوح لا يعمل  
أنس أبو رحمة
- مراجعات:  
٢٣١ ياسر عرفات وجنون الجغرافيا  
٢٣٧ البينّ والمخبوء في دراسة أنظمة القمع في العالم العربي  
٢٤١ حادثة باريس بين الاقتصاد والأدب  
٢٤٥ ألبرتو توسكانو في كتابه "التعصب": من أين يأتي التعصّب؟  
٢٩٣ الاجتماع السنوي السادس  
لمجلس أمناء مؤسسة ياسر عرفات

## الفنان مصطفى الحلج



ولد عام ١٩٣٨ في سلمة قضاء حيفا  
بفلسطين .

درس النحت في كلية الفنون الجميلة  
بالقاهرة وتخرج عام ١٩٦٣ .

أتم دراسته في مراسم الدراسات العليا في  
الأقصر وتخرج عام ١٦٩٨ .

أقام أول معرض خاص في القاهرة - نقابة  
المهندسين عام ١٩٦٤ .

أقام العديد من المعارض الفردية في لبلدان  
العربية والأجنبية ، كما شارك في معارض  
جماعية شملت : أمستردام - ١٩٦٧ -  
معرض حفر وتصوير . القاهرة - ١٩٦٨ -  
معرض خزف وحفر - المركز الثقافي

التشكيلي . القاهرة - ١٩٧٠ - معرض حفر وتصوير - اتلييه القاهرة والمركز الثقافي السوفييتي.  
دمشق - ١٩٧٢ - معرض حفر وتصوير . بغداد - البصرة - ١٩٧٢ - معرض حفر وتصوير . الرباط -  
الجزائر - ١٩٧٢ - معرض حفر وتصوير . دمشق - ١٩٧٧ . دمشق - ١٩٩٣ - صالة أرابيسك . عمان  
- ١٩٩٤ - صالة بلدنا . دمشق - ١٩٩٤ - صالة اورنينا - معرض الفنانين الخمسة . ساهم في تحكيم  
عدد من المهرجانات التشكيلية والمسرحية والسينمائية .

حائز على عدد من الجوائز : الميدالية الفضية - معرض فلسطين بالقاهرة - عام ١٩٦١ . جائزة النحت

القاهرة - ١٩٦٨ . جائزة الحفر - بينالي الإسكندرية - ١٩٦٨ . ذهبية الحفر في مهرجان المحرس / تونس ١٩٩٧. أعمال موزعة بين متاحف القاهرة - الإسكندرية - دمشق - بغداد - عمان ، وفي بلدان كثيرة في أوروبا وأمريكا والشرق الأقصى .

عضو الإتحاد العام للفنانين التشكيليين الفلسطينيين . عضو الإتحاد العام للكتاب والصحافيين الفلسطينيين . عضو الإتحاد العام للفنانين التشكيليين العرب . عضو نقابة الفنون الجميلة - دمشق - سوريا .

تفرغ للعمل الفني في مصر حتى عام ١٩٧٤ .

انتقل إلى دمشق حتى عام ١٩٧٧ وبعدها استقر في بيروت حتى الغزو الإسرائيلي إلى لبنان ثم عاد إلى دمشق عام ١٩٨٢

بقي متفرغاً لمكتبته الخاصة وقليلاً من الأعمال الفنية حتى عام ١٩٩٣ حيث شارك في معرض بدمشق .

تفرغ للعمل الفني في الثورة الفلسطينية منذ سنواتها الأولى عام ١٩٦٥ .

توفي في دمشق إثر حريق شب في مرسومه في صالة ناجي العلي، مساء يوم الأحد ٢٠٠٢/١٢/١٥.

دفن في مقبرة الشهداء في مخيم اليرموك في دمشق.





## موقع فلسطين في الحراك الشعبي العربي

يحيى يخلف

في وصف أحوال ما سميناه الربيع العربي، نقف وقفة تأمل ونبحث عن حصاد عامين فأكثر، فلا نجد ما يسر البال أو ما يدعو الى الاعجاب والاطمئنان. الجماهير التي كسرت حاجز الخوف وصنعت الثورة بحناجرها وسواعدها وصدورها العارية وانتصرت على الديكتاتور ومنظومته الأمنية، رسمت في فضاء العالم أحلامها واشواقها وحنينها وانينها وصرخت صرخة حرية دوت آفاقها حتى آخر المدى، وصنعت ثورة لأنها تمردت على واقع فاسد، فاستحقت ان يطلق على فعلها ربيع. لكن هذه الثورات التي اندلعت في دول عربية ذات تأثير سرعان ما ركبت موجتها قوى سياسية منظمة وذات تاريخ في المعارضة تنتمي الى الإسلام السياسي، وقوى أخرى وطنية ليبرالية محدودة التأثير ولا تمتلك امتدادا جماهيريا. وهكذا عبأ الإسلاميون الفراغ الناجم عن غياب قوى قومية أو يسارية أو ليبرالية تمتلك الخبرة أو الحاضنة الجماهيرية الواسعة، وهيمنوا على السلطة واستفردوا بها، وأقصوا الأحزاب والتنظيمات الأخرى، متسلحين بديمقراطية صندوق الاقتراع التي جعلت من أحزابها أحزاب اغلبية، من خلال فهم أحادي قاصر وانتقائي يستبعد ما في الديمقراطية من مضامين أخرى كالتعددية والحريات العامة والدولة المدنية ورعاية الأغلبية لرأي الأقلية، خاصة في قضايا سيادية كال دستور مثلا.. فعاد الشباب الى الميادين والشوارع من جديد في غياب الاستقرار والأمن، وفي غياب فعل منظم ويحاور، ما أحدث الفوضى، وحدث هزة في السلم الأهلي، واطال مسافة الوصول الى تحقيق الأهداف، وتصحيح المسار، واستكمال بناء الدولة الحديثة.

وزاد الطين بلة ازدياد التيارات الاسلامية السياسية من سلفية وجهادية وتكفيرية، خصوصا في

سورية حيث برزت مجموعات مسلحة ينتمي بعضها لتنظيم الاخوان، وبعضها الآخر الى تنظيم القاعدة (جبهة النصرة)، ما يهدد بمصير مجهول لدولة كبرى، هي دولة المركز في بلاد الشام. يتعين على الأحزاب الإسلامية التي حازت على أغلبية في صناديق الاقتراع أن تراعي مطالب الأقلية، وأن تقلع عن الاستئثار والهيمنة على السلطة، وأن تعي أن الثورة صنعتها الجماهير، وانها وصلت الى الحكم بفضل هذه الجماهير التي رفعت شعار الوحدة الوطنية الى جانب شعار إسقاط الديكتاتور، ما يلزمها بالمحافظة على هذه الوحدة التي تعني وحدة الشعب بكل مكوناته وتياراته، وبناء دولة تكون دولة كل مواطنيها، أي دولة مدنية ديمقراطية تقوم على التعددية والتداول السلمي للسلطة. يحтар المتأمل للمشهد في وصف الوضع الراهن للثورات العربية ويتساءل: هل ينساق الى تبني وصف البعض للمشهد بالخريف لا الربيع؟

وهل يسلم بالأمر الواقع ويفقد الأمل ويعتبر أن قدر هذه الأمة أن تنتقل من ديكتاتورية الظلم والفساد الى ديكتاتورية الشموليين التي لا تقل رهبة عن ديكتاتوريات أخرى كديكتاتورية البروليتاريا؟

وهل تمر المنطقة العربية بمرحلة شبيهة بمرحلة عصور الانحطاط حيث انعدام الوزن، وتجادب القوى الاقليمية والدولية، وسيادة القوى الاقليمية والاحلاف الاستعمارية، وهيمنة تركيا ويران واسرائيل على انقسام وتراجع العرب، واستبدال المصطلح من وطن عربي الى شرق أوسط؟ وهل ينكفئ المفكرون والمثقفون ويستسلمون للاحباط وتضيع جهودهم التنويرية وجهود تراث تنويري نهضوي سطره مئات المفكرين على امتداد القرن الماضي، من حداثة رفاة الطهطاوي، الى الاصلاحيين كمحمد عبده ورشيد رضا والكواكبي والأفغاني، الى الليبراليين والعقلانيين كطه حسين وسلامة موسى، وغيرهم العشرات في العقود الاخيرة من القرن العشرين؟

وهل نحلم بالتغيير، وتكون العلاقة بين التيارات الإسلامية والقومية والليبرالية والعلمانية علاقة حوار وتوافق، أم تغلق الأبواب وتظل العلاقة علاقة تصادم واستنزاف وتهديد للسلم الأهلي؟ اسئلة مشروعة وقد تبدو في ظاهرها مخيفة ومرعبة، وقد تبدو سوداوية ومبالغاً بها، ولا تستشرف المستقبل، لكنها اسئلة تحفزنا لبحث الكتاب والمفكرين على القيام بدورهم واعادة الاعتبار لقيم الحوار والفكر التنويري وفرض وجودهم في المشهد، وتأكيد قوة الثقافة في السياسة. حان الوقت لبروز ظاهرة المفكرين كصناع للرأي العام وصناع لثقافة الحوار، فنحن امام مفترق طرق: إما أن نكون أمة لها موقعها تحت شمس العصر، أو لا نكون، إما أن نكون على ابواب نهضة فكرية ومعرفية، أو ان تتسع فجوتنا الفكرية وتخلفنا المعرفي.. إما أن ننجز استقلالنا السياسي والاقتصادي

والثقافي والاجتماعي، أو ان تتجرأ التدخلات الخارجية على المضي قدما في محاولات الهيمنة والاحتواء والتهميش.

ونحن الفلسطينيين الراحين تحت الاحتلال نتأثر بكل ما يجري، فانحصار الشعوب العربية في تحقيق حريتها وعدالتها وكرامتها ودولتها المدنية الديمقراطية الحديثة، وانجاز استقلالها من التبعية السياسية او الاقتصادية او سواها، انما يشد أزرنا، ويعزز صمودنا ولا يتركنا وحدنا على موائد اللثام، فالقضية الفلسطينية هي القضية المركزية للأمة العربية، وهي لب الصراع في الشرق الأوسط، وكفاح الشعب الفلسطيني هو جزء من كفاح الشعوب العربية، ومن كفاح حركة التحرر العربية من أجل الحرية والوحدة والتقدم، والمشروع الصهيوني الاستيطاني الذي يمثل قاعدة عسكرية لمصالح واستراتيجيات الولايات المتحدة وحلفائها في الهيمنة على المنطقة يشكل خطرا على الأمن القومي العربي، وعلى أمن مصر وبلاد الشام والعراق بشكل خاص.

في العامين المنصرمين، انشغلت البلدان العربية بقضاياها الداخلية، وتراجع اهتمامها بالقضية الفلسطينية، فاستغلت اسرائيل هذا الوضع لتتغول على الشعب الفلسطيني، وتذهب بعيدا في عمليات الاستيطان، والقتل والاعتقال، والقيام باجراءات تثبيت الامر الواقع لهويد القدس، وتغيير طابعها الجغرافي والديمقراطي، والمس بمقدساتها وتراثها الحضاري والانساني، وبذلك فان المتغيرات والثورات العربية التي دخلت في اشكاليات وصراعات داخلية انعكست سلبا على الاوضاع داخل الاراضي الفلسطينية المحتلة.

انّ الوضع في فلسطين هو محضلة للوضع العربي، بل هو صورة مصغرة لسمات النهوض أو الكبوة، للتضامن او الانقسام في البلدان العربية، وسمات القوة او الضعف في العالم العربي، ففلسطين كانت وستظل تؤثر وتتأثر بمحيطها القومي، فاذا قوي قويت واذا ضعف ضعفت، ومهما قيل أو قد يقال فان القضية الفلسطينية قضية العرب، والشعب الفلسطيني هو رمح الأمة في كفاح طال ولن يتوقف الى أن يحقق اهدافه.

وانطلاقا من ايمان مؤسسة عرفات برسالة الحرية التي أطلقها عرفات في الفاتح من يناير لعام ١٩٦٥، وانطلاقا من ايماننا بوحدة المصير القومي، فقد حملت مجلتنا (أوراق فلسطينية) رسالة الحرية.. رسالة فلسطينية بأفاق عربية، لذا التزمت المجلة بالقاء الضوء على مستجدات القضية الفلسطينية، ومواكبة المتغيرات في الدول العربية التي تشهد حراكا شعبيا وموقع فلسطين في هذا الحراك من خلال الدراسات الفكرية المعمّقة، والمتابعات الثقافية الجادة التزاما منا بالدور الذي يقوم به الفكر والمفكرون، والثقافة والمثقفون، امتدادا لدور قام به مفكرو عصر النهضة على مدى

قرن من الزمن.. خصوصا انّ أحلام ذلك الرعيل في الحرية والديمقراطية والدولة المدنية ذات الدستور العصري، ونظام الحكم الرشيد، والإصلاح الديني، والمواطنة، والوحدة الوطنية، والعدالة الاجتماعية، والكرامة الانسانية وسائر القيم والاهداف السامية، خصوصا ان أحلامهم هذه تجد الآن فرصتها للتطبيق، وتجد الجماهير الغفيرة التي نزلت الى الشوارع والميادين فرصتها من أجل تحويلها الى واقع.

هذا هو عددنا الثاني من مجلتنا الفصلية (أوراق فلسطينية) يمثل خطوة تالية في مسيرتها على درب الحرية، وتواصل التزامها بقضايا الحرية للانسان في وطننا فلسطين الذي لا وطن لنا سواه، وقضايا الانسان في الوطن العربي.. وهيئة تحرير المجلة توجه دعوة للكتاب والمفكرين الفلسطينيين والعرب الى تعزيز وتعظيم ثقافة الحرية والمساهمة في اثراء المضمون الكفاحي والديمقراطي على صفحاتها.

# أوراق فلسطينية





## مراجع الوطنية الفلسطينية

د. فيصل درّاج \*

يتداخل في الوطنية الفلسطينية، منذ بدايات تشكّلها إلى اليوم، عنصران لا يكفّان عن التجدّد: إنكار المشروع الصهيوني للوجود الفلسطيني، شعباً وحقوقاً، وكفاح الفلسطينيين تأكيداً لوجودهم، ومطالبة بالاعتراف بحقوقهم. أفضى العنصران، اللذان لم يستقرا في صيغة أخيرة، إلى ديمومة المسألة الفلسطينية، التي هي من ديمومة شعب لا يتنازل عن حقوقه، ولا يركن إلى "الأمر الواقع"، متجاوزاً واقعاً معقد العلاقات يدعى: ميزان القوى. ولعل توزّع الكفاح الفلسطيني على "الوطن السليب"، الذي انتمى إليه ولا يزال، وعلى منفي متنوع الأماكن، هو الذي أنتج وطنية استثنائية، تباين غيرها من الوطنيات المألوفة، التي لم يعرف أهلها الاغتصاب والشتات وإنكار الحقوق.

حمل الفلسطينيون وطنهم في ذواتهم، وبقوا فلسطينيين، أكانوا هوامش في وطنهم "الأصلي"، أم هوامش في المنفى البعيد عن الوطن.

### ١. الإنكار القديم والمقاومة المتجددة:

في الأشهر الأولى لعام ١٩١٥ حرّر الإنجليزي لورانس مذكرة حول سوريا جاء فيها: "القدس ليست أكثر من فندق واسع لزائرين عابرين،" حالها من حال فلسطين التي هي كوزموبوليتية، نظراً لوجود الأماكن المقدسة فيها". تحولت فلسطين والقدس في هذا التوصيف، إلى مكانين مجردين، وجودهما من

---

\* ناقد فلسطيني

وجود زائرين عابرين، تجذبهم الأماكن المقدسة. والناقص في التوصيف، القائم على معادلات استعمارية تستلهم "القوة"، هم الفلسطينيون الذين لهم تاريخ وثقافة وهوية مرتبطة بالحياة.

لم يأخذ لورنس، الذي كان يعتبر مختصاً نافذاً بشؤون سوريا ذاك الزمان، بالشعار الصهيوني المألوف "أرض بلا شعب لشعب بلا أرض"، الذي نقض العياني الموجود بحلم لاهوتي يهودي، بل أعاد صوغه بمجاز مرتجل هو: الفندق، مكان الخدمات الموزّع على جميع المدن، كما لو كان تاريخ القدس من تاريخ زوّارها "المتدينين"، أو محصلة لأماكن عبادة وزوار غربيين يجذبهم "الشرق" الذي عرف ديانات سماوية ثلاث. أقام الإنجليزي، الذي كان مولعاً بالآثار، تصوره على عنصرين متكاملين: الاختراع الذي يختصر مكاناً كثيف الدلالات إلى بقعة لا هوية لها، أقرب إلى الموائى المفتوحة، والقوة المسلّحة التي تحوّل "المكان المخترع" إلى دولة يهودية جديدة. صيرّ العنصران فلسطين إلى مكان "فارغ" يتناوب عليه سواح لهم هويات دينية تتسع، بداهة، للهوية اليهودية، التي يتمتع أصحابها بحق الإقامة في الفنادق المقدسية. غير أن وعد بلفور بيّن، سريعاً، أن للقدس أهلاً يملأون الشوارع بالمظاهرات، ويقاتلون دفاعاً عن أرض موروثه، لا تمنح للغير ولا "تؤجر"، دعاها غسان كنفاني في لحظة الرضا المتفائل: أرض البنادق والرجال. سار لورانس وراء حقيقة مسلحة، قد تنتصر ولا تهزم ضحاياها، وتهدم مقاومتها الضحايا بمعرفة وإرادة متجدّدين، تعيدان تعريف "الضعيف"، الذي أنكر وجوده. أرهق الفلسطينيون في ثورة ١٩٣٦ الجيش البريطاني إرهاباً، دفع بالإنجليز إلى التماس "وساطة" أصدقائهم من الملوك والحكّام العرب. ألغى لورانس المسافة بين الحقيقة والقوة، ولم يستطع التحرر من أطراف "الكائن الفلسطيني"، فبعد إنكار فلسطينية المكان وأهله، تحدّث عن وجوه أهل القدس الكثيبة، واعترف بأن الفلاح الفلسطيني "يتشبّه بأرضه حتى لو كانت صغيرة وبائسة"؛ موحياً بأنه امتداد لها، بقدر ما هي امتداد تاريخي كثيف يمده بالخصائص أو الهوية. كان "صانع الدول"، كما دعاه المؤرخ الفرنسي هنري لورانس، يرى إلى ما يجب أن يكون، إذ مستقبل الأراضي الفلسطيني المخترعة من مستقبل "وعد بلفور"، الذي جاء بالمأساة الفلسطينية، ولم ينجح في إلغاء الفلسطينيين.

أيقظ المبدأ الإنجليزي، القائم على الإنكار، في الفلسطينيين مبدأ المطالبة بالاعتراف، الذي أعطى حياتهم بين ١٩١٧ و ١٩٤٨، شكل معركة مفتوحة. أخذ المبدأ الأول، كما الثاني، شكل سيرورة متوالدة، فقد استقرّت إسرائيل كدولة ولم يستقر اليهود، بقوا مشدودين إلى "استنفار" لا يمكن التحرر منه. واستقر الفلسطينيون كلاجئين وظلوا فلسطينيين، وذلك في معركة بعيدة عن النصر والهزيمة في آن. ولعل النجاح الذي ينطوي على الإخفاق، كما الهزيمة التي تتضمن الانتصار، أعاد صياغة الفلسطينيين وطالب مراجعة المشروع الصهيوني أكثر من مرة: "لا القوة انتصرت ولا العدل الشريد"، كان يقول محمود درويش، مشيراً إلى ماضٍ واضح وأفق متعدد الاحتمالات.

ترجم الفلسطينيون في مسارهم مقولات ثلاث: السيرورة التي تنكر الوقائع النهائية، فلا الحلم الصهيوني



الرومانسي احتفظ بقوته ولا الفلسطينيين انتهوا إلى التبدد. بل أن هذه السرورة التي لها تعرجاتها المتعددة، هي التي أقامت علاقة بين مخيمات ١٩٤٨، التي آوت "منكوبين" يثرون الشفقة و "السلطة الفلسطينية" القائمة التي تستمد آفاقها من ديمومة المسألة الفلسطينية لا من إمكانياتها الراهنة. والمقولة الثانية حضور الاسم الفلسطيني الذي لم يقتلع ولا يمكن اقتلاعه. فمع أن الفلسطينيين في صراعهم الطويل مع تنين متعدد الرؤوس لم يحسموا "معركة حقوقهم"، فما زالوا يقاتلون الإنكار ويطالبون بالاعتراف، فقد حسموا "معركة وجودهم"، فلا أحد اليوم يجهل معنى اسمهم ولا قضية المكان الذي شهد معركة الإنكار الأولى، ولا الحضور الهائل الذي بثه الفعل الفلسطيني، في مساره المتعرج والمليء بالشقوق والثغرات. والمقولة الثالثة هي: الاختبار الذي سقط ثقيلًا على أرواح الفلسطينيين وأجسادهم وأقدارهم وشدهم، أحياناً إلى مواقع يختلط فيها الموت بالحياة، خرجوا منها بصبر وتحمل أقرب إلى المعجزة. فمن "المخيم" الذي كاد أن يصبح هوية فلسطينية، تخرّج تلاميذ وأساتذة وأطباء وحتى في حال مخيم تلاشي، فلم يحصل ذلك إلا بعد معركة، عنوانها الأكثر بلاغة: "حصار المخيمات"، الذي أصبح وجهاً من وجوه الإرث الكفاحي الفلسطيني.

أمران جديران بالانتباه في الوطنية الفلسطينية: قوة الاسم، فالفلسطيني يسير مع اسمه، والمخيمات يسبقها نعتها الفلسطيني قبل أن تسقط عليها القذائف، والمبدعون يكتبون عن فلسطين لا عن هواجسهم الذاتية، والعجائز يسردن حكايات عن قراهن البعيدة.... تأتي قوة الاسم من الفلسطيني الذي يتشبّث به، حيث الاسم هوية وثقافة وتاريخ وقضية، وكل ما يساوي الفلسطيني بأصله، فلولا الفعل الفلسطيني المتجدد لما كانت هناك فلسطين ولاختصر الأمر كله إلى "إسرائيل وإلى لاجئ تقاضى اليوم تعويضاً عن أرضه. أما الأمر الثاني فيمس مكوّنات الوطنية في علاقتها بعنصر هو: المأساة، الذي استظهر في انزياح حياة الفلسطيني عن غيره من البشر، وفي تصميم الفلسطيني على تجاوز اغترابه متوسلاً قوة الروح والرغبة في التحقق.

يستطيع العقل، محايداً كان أو متبرّئاً من الحياد، أن يقرأ الوطنية الفلسطينية في المواجهة المفتوحة، رغم لا تكافؤ القوى، بين أيديولوجيا إنكار وجود الفلسطينيين، المزودة دائماً بأكثر من سلاح، والفعل الفلسطيني المدافع عن الذات. ويستطيع أن يقرأها في المقارنة بين "مذكرة لورانس" وكتاب الباحثة الأمريكية جوان بيترز "منذ زمن سحيق". فما قالتها الباحثة، في مطلع ثمانينات القرن الماضي (١٩٨٤)، لا يختلف من حيث الوظيفة، عما قال به لورنس عام ١٩١٥، كما لو كان التسويغ الزائف بحاجة إلى تسويغات متتالية كي لا يقع. أراد الكتاب أن يكون "دفاعاً حاسماً عن المطلب اليهودي العادل في فلسطين وسرداً عميقاً لقصة إنسانية". مدعماً بمعرفة "أرشيفية" ثقيلة.

اتكأ لورانس، وهو يخترع فلسطين ويفرغها من أهلها، على "قوة الإمبراطورية" التي ترسم مصائر الشعوب، واعتمدت جوان بيترز على وحدة المعرفة والقوة وهالة "الأكاديميين" والأساتذة الأمريكيين،

وألة إعلامية صهيونية متنفذة توزع الجوائز والألقاب. إن ما دافع عنه الأول، قبل نشوء "الوطن القومي اليهودي"، دافعت عنه الثانية بعد ترحيل الفلسطينيين عن وطنهم، وإن كان الأول قد اكتفى بحمل سريعة في "مذكرة"، بينما لجأت الثانية إلى كتاب واسع الصفحات حظى بجائزة من المراجع العلمية اليهودية". واللافت للنظر، الذي يضيء استمرارية الوطنية الفلسطينية، لا يتجلى، فقط، في ضرورة تسويق جديدة لـ "الحقيقة الصهيونية"، بل بالاحتفاء الأكاديمي الواسع بكتاب أيديولوجي يقترب من الابتذال، كما جاء في كتاب المؤرخ اليهودي نورمان ج. فنكليستاين "صورة وواقع النزاع الإسرائيلي - الفلسطيني". فقد حظي الكتاب بمراجعات متعددة لم يحظ غيره بها، ومنع نشر الردود العادلة عليه، وهو ما أشار إليه إدوارد سعيد في دراسته "لوم الضحية"، الأمر الذي أجبره مع غيره (ومنهم تشومسكي) على نشر ردودهم خارج الولايات المتحدة.

أما أطروحة بيترز الأساسية فتقوم على الأطروحة التالية: إن سكان فلسطين "الأصليين" زعم يمكن دحضه بالوسائل العلمية، فما كان هناك إبان وعد بلفور عرب تسلبوا من المناطق العربية المجاورة، سعياً إلى العمل في المزارع اليهودية المزدهرة. بل أن عددهم، الذي ينوس بين ٦٠٠ - ٧٠٠ ألف نسمة يساوي، تقريباً، عدد العرب الذين تركوا البلاد عام ١٩٤٨، أي أن الصهاينة لم يهجرُوا أحداً، وأن العرب الذين كانوا قبل ولادة "الدولة" عادوا إلى بلادهم بعد ولادتها. ومع أن في الأطروحة ابتداءً أيديولوجياً منهجياً، فهي تدفع إلى بعض الأسئلة السريعة: من هم السكان الذين قاتلوا القائد المصري إبراهيم باشا، في زمن السيطرة العثمانية، وأجبروه على الخروج؟ وما الذي أجبر عمالاً عرباً فقراء أن يخاطروا بحياتهم في معارك ١٩٣٦ - ١٩٣٩ التي ألحقت الأذى بـ ١٧٪ من مجموع "العرب"؟ ولماذا لم يرجع بعض "العرب" إلى بلادهم، بعد ١٩٤٨، وارتضوا أن يبقوا في الناصرة وقرى الجليل؟ وما هي هوية "السكان" الذين حاورتهم إسرائيل بعد الانتفاضة الأولى ١٩٨٧؟ تشير هذه الأسئلة البسيطة إلى التزوير الأيديولوجي الصهيوني، الذي لا يمليه "الطبع الكاره للحقيقة"، بقدر ما تفرضه دينامية الفعل الوطني الفلسطيني في مواجهة "آخر" يحجب الزيغ بالقوة، ويتعامل مع الفلسطينيين بصيغة الإنكار والاعتراف في آن: ينكر وجودهم فهم متسللون ولا حق لهم في فلسطين، ويعترف بوجودهم ليبرر اقتلاعهم بأسلحة متنوعة.

فعلى خلاف قادة صهاينة لم يروا فرقاً بين الأفاعي والفلسطينيين، اعترف جابوتنسكي بأن لهم "بصيرة تخبرهم بالخطر الصهيوني المحدق بهم وتقودهم إلى الدفاع عن أرضهم دفاعاً صبوراً". أقرّ بن غوريون "أن الخلاف بين العرب واليهود ولا يمكن تجاوزه في الحاضر ولا في المستقبل المرئي وأن العرب لا يتخلون عن أرضهم بسهولة". ومثلما اخترع لورانس مدينة القدس وصيرها إلى بقعة فارغة قابلة للإيجار، اخترع الخطاب الصهيوني الفلسطيني مرتين: مرة أولى محت وجودهم عن أرضهم ومرة ثانية نزعت منهم حس الوطنية وزرعت فيهم استعداداً واسعاً للرحيل. نقض الفلسطينيون في وجودهم اليومي الاختراع

المزدوج، وأجبروا الخطاب الصهيوني على مراجعة ذاته أكثر من مرة. ففي السادس عشر من حزيران عام ١٩٤٨ أعلن وزير الخارجية موشيه شاريت فرحاً: "إنني مندهش من العرب الذين اختفوا من قطاع كامل من البلاد"، بل أنه "اندهش من رحيل العرب السريع أكثر من اندهاسه من تأسيس الدولة اليهودية". غير أن أعمال المؤرخ الإسرائيلي بني موريس، بعد أربعين عاماً على ولادة إسرائيل، كشفت عن خرافة "الرحيل المدهش"، الذي جاء، فعلياً، من الخوف والإكراه وممارسة المجازر، كما أظهر في كتابه "ولادة مسألة اللجوء الفلسطيني ١٩٤٧ - ١٩٤٩".

وإذا كان الإنكار والاعتراف، في التصور الإسرائيلي، ينتهيان إلى نتيجة ثابتة، إذ الإنكار يفتح على مصادرة الأرض وتهديم القرى وإذ الاعتراف كلام إعلاني لا يغيّر من الوقائع شيئاً، فإن السياق العربي المتمدور، في عام قيام دولة إسرائيل وقبله، لم يكن بعيداً بدوره عن ثنائية الإنكار والاعتراف، في التصور الإسرائيلي، فقد ارتاح إلى عمومية: "فلسطين شأن عربي"، التي تعترف بالفلسطينيين ولا تعترف بهم في آن، ما دام أمرهم يحسمه العرب، وما دامت ساعة الحسم محتجة في المشيئة العربية "الجامعة". لذا قال بن غوريون في نيسان ١٩٣٦، وهو يحاور المثقف الفلسطيني جورج أنطونيوس: "إن فلسطين لا وجود لها بالنسبة لليهود، ولا وجود لها أيضاً بالنسبة للعرب لأنهم يقترحون الاندماج بسوريا". يوقظ القول دهشة لا تقل عن دهشة "شاريت" وهو يتأمل "اختفاء الفلسطينيين"، ففلسطين بالنسبة لليهود هي إسرائيل، وفلسطين بالنسبة للعرب ليست فلسطين، فهي مجرد امتداد سوري، ينوس الوجود الفلسطيني، والحالة هذه، بين إنكار مزدوج، تاركاً الفلسطينيين يعتمون بجلودهم ويسألون، بغضب وارتباك، عن الفرق الفعلي بين العقيد السوري حسني الزعيم، الذي قاد انقلاباً "ليثاً للفلسطينيين، ووزير الخارجية الإسرائيلي موشيه شاريت، الذي استقبله السيد العقيد في المهاجرين في دمشق، أكثر من مرة.

أفضى الغبن الواسع الذي وقع على "اللاجئين" إلى هوية فلسطينية تختصر المسافة بين الفردي والجماعي، فما يصيب طرفاً تستشعره "الجماعة" ويستعيد، لزوماً، صورة فلسطيني قبل الرحيل، ويذكر "المجموع"، في المنفى والوطن المصادر، بفرادة الظلم وتهافت المعنى، في أكثر من اتجاه. علمت الفرادة المؤسسية الفلسطيني أن يعترف بذاته، قبل أن يلتمس اعتراف الآخرين، وأن يجاور "بداهة الحق"، التي عليها الانتظار طويلاً، لتتصف "المقهورين".

أنجز الفلسطينيون اعترافهم بذاتهم حين كشفوا عن أكاذيب موشيه شاريت وسخروا، سريعاً، من أكاذيب عسكري عربي مبتذل. برهنوا، في الحالين، أن القوة لا تبني حقيقة دائمة، وأن "صغار العرب" يحولون القضايا الكبيرة إلى تجارات صغيرة.

## ٢. في وطنية التجربة:

يضع بعض المؤرخين بدايات الوطنية الفلسطينية في حرب الفلسطينيين ضد الحملة العسكرية المصرية، التي قادها إبراهيم باشا عام ١٨٣٢، وأنزل بها أهل فلسطين هزيمة ساحقة. انخرطت في هذه الحرب، التي أجهضت أحلام محمد علي باشا، مكونات المجتمع كله والفلاحون منها بخاصة. أما المرحلة الثانية، التي عززت البدايات وأمدتها بأبعاد جديدة، فتمثلت بالثورة الكبرى، التي غطت ثلاثينات القرن اللاحق، وهمش فيها الفلاحون غيرهم، واستولدت وعياً جماعياً له شكل الهوية، إذ قاتل الفلسطيني بأدوات فلسطينية من أجل أهداف وطنية خالصة. وجاءت المرحلة الثالثة، في ظروف مغايرة، مع انتفاضة ١٩٨٧، التي قصدت الاستقلال وأذابت "القيادات المقترحة" في وحدة شعبية عضوية تفيض على التنظيمات والأيدولوجيات المختلفة.

دارت هذه المعارك التي تبادلت أطيافاً ورموزاً مشتركة، فوق أرض فلسطين وأفضت إلى نتائج غير متساوية، فانصرت الأولى، لم يكن المشروع الصهيوني هناك، وهزمت الثانية، ولم تكتمل الثالثة وانفتحت على حسابات خاطئة. ومع أن في هذه المعارك عناصر مخففة ومنتصرة، في آن، فإن الوطنية الفلسطينية من حيث هي وطنية ذات شكل خاص، جاءت مع عام ١٩٤٨، الذي شكّل حداً فاصلاً بين ما كانه الفلسطيني وما سيكونه، ذلك أنه لن يعود كما كان أبداً.

حملت هزيمة ١٩٤٨ معها بعدين وافدين كاملي الجدة: يدور أحدهما في مجال الاسم، الذي عيّن الفلسطيني لاجئاً، وتصادى ثانيهما في حقل التجربة، الذي أدخل الفلسطيني في اختبار لم يعرفه وأطاح ببدايات كثيرة. أعطى الاسم، الذي لم يعرفه الفلسطيني سابقاً، الأخير ولادة جديدة، ذلك أن في الاسم خلقاً وفي الذي فرض الاسم خالقاً، وفي الذي وقع عليه الاسم مخلوقاً، ينصاع إلى مشيئة الذي سمّاه. ولم يكن المسمّى إلا "النكبة"، التي قذفت بالمنكوب إلى الجهات التي تشاء. ولأن على المنكوب، أي اللاجئ، أن يعيش دلالة اسمه، كان على الفلسطيني أن يختبر حياة جديدة، وأن يشتق وعيه الوطني من مرجع مادي واضح المعالم عنوانه: وطنية التجربة، التي لا تستوعبها "نظريات السياسة التقليدية".

فعلى صعيد المكان خرج الفلسطيني من بيته ودخل إلى: المخيم، المكان القلق الإقامة، إن لم يكن إقامة في الإقامة، تقوم علو هوامش المدن وتتبدى لها "عورة" يجب حجبها، ففيها ما تنفر منه عيون أهل المدن. ولأن المخيم أشبه بمكان زائد أقرب إلى النسيان، تكون له شبه حياة، لا يرحمها الصيف ولا يشفق عليه الشتاء، ويكون له إنسانه الهامشي الممنوع من الأحلام، فالذهاب إلى الأحلام السعيدة يحتاج إلى إقامة مستقرة. أنطق غسان كنفاني في روايته "أم سعد" المرأة الفلسطينية الصامدة بتعبير: "حياة شحار"، محاصرة بالوحل والغبار والنظرات المهينة. يكتمل المكان الذي سوي على عجل بـ "وكالة الغوث"، الأقرب إلى جمعية خيرة ضعيفة الذاكرة، تمدّ اللاجئ بـ "كرت الإعاشة"، الذي يبرهن عن نقص اللاجئ، عالة هو أو منكوب لا يحسن العمل،

وتوزعهم على صفوف ذليلة طويلة وتوزع عليهم ثياباً تشبه الثياب، تغطيهم بهوان حقيقي. يفقد "المنكوب" في الوضع الجديد اسمه، ما دام لاجئاً من لاجئين يشاطرونه "كرت الإعاشة"، أو "فلسطينياً" ينتمي إلى أرض أخرج أهلها من ديارهم وانتشروا "ضيوفاً لا يعرفون لأصول الضيافة". واللاجئ عند غيره لا اسم له، فهو مجرد نعت سلبي أو صفة تثير الشبهة. عبّر حسين البرغوثي في كتابه "الضوء الأزرق" عن اختصار الفلسطينيين جميعاً إلى "صفة تثير شبهة" على لسان "صاحب المكان الأصلي" الذي قال: "في تلك البناية في واحد فلسطيني". لم يكن الفلسطيني، الذي يتعرّف بمكان طرد منه، إلا غسان كنفاني، الذي حوّل اللجوء إلى "مجهول من مجاهيل"، لهم طعم النشاز، أضافته الصدفة إلى بشر لهم أسماؤهم، ولا يرغبون بالتعرّف على الغرباء. وعبّرت سميرة عزام بنبرة أشد حرقاً في قصة قصيرة، عن الفلسطيني "الذي يهرب من اسمه، ويعتقد أن شراء "هوية لبنانية" ينقله من عالم "المشوهين" إلى عالم الأسوياء. رسم البرغوثي لاجئاً لا يمكن الاعتراف به، وتأملت سميرة عزام لاجئاً لا يريد أن يعترف بذاته لأن غيره لا يعترف به، ثم عاد إلى نفسه.

تعود مرة أخرى قضية الفلسطيني مع الإنكار والكفاح من أجل الاعتراف، وذلك في شرط عربي يعرف فلسطين ولا يتعرّف، دائماً، على الفلسطينيين، كما لو كان يعترف بالمجردات الممتدة من فلسطين إلى المسجد الأقصى رافضاً مساواة المجردات المقدسة بفلسطينيين تكسو وجوههم غرابية ما. اختبر اللاجئون في المجال العربي، الذي اختصره الزمن الحديث إلى سلطاته، دلالة "القومية" التي استهلكت في الحديث عن فلسطين مداداً غزيراً، واختبروا "وحدة المؤمنين": الذين وعدوا اللاجئ بـ "نصر مبین" بـ "بلاغات مجردة". عطف "القوميون والمؤمنون" "فلسطين المحرّرة على مستقبل غير قابل للتعيين.

أدخل المنفى اللاجئ إلى تجارب لم يكن يتوقعها، واستمر في الحياة واللجوء، ووصل إلى: وطنية التجربة. في وطنية التجربة قابل الفلسطينيون مبدأ "حقوق الإنسان"، القائل بتساوي البشر وأخبر الفلسطينيون أن بعض البشر أكثر جدارة بالمساواة من بعض آخر، وعلمتهم البلاغة القومية، وهي سلطوية بالتأكيد، الفرق بين الممارسة العارية ولغة لا رصيد لها، وأدركوا الفرق، على مستوى المعاينة، بين الإيمان الذي يحض على التضامن والتكافل، و"الدين - الإيديولوجيا"، الذي هو أحد عناصر الخطاب السلطوي. وضعت وطنية التجربة "اللاجئين" بين المضطهدين، الذين يتعرّفون بنمط حياتهم، وأدرجتهم في شعب عربي مضطهد له "قومية أخرى"، ورأوا مسلمين ليس لهم إسلام بصيغة المفرد. أسبغ التخلي، في وجوهه المتنوعة، على الغربة الفلسطينية طابعاً وجودياً، وأثقل على الفلسطينيين بأسئلة معقدة، لا يزالون يبحثون عن إجاباتها حتى اليوم.

تكاثر الاختبار وبقي الفلسطينيون مع "نكبتهم"، دون أن يتم الاعتراف، دائماً، بكيانهم الإنساني، الباحث عن العمل وحرية الحركة، وبقضيتهم الوطنية في معناها السياسي. ذلك أن المسألة الفلسطينية، منذ

أكثر من ستين عاماً، تحيل على السياسة وعلى حرية الفلسطينيين في العمل السياسي، قبل أن تحيل على إنسانية مجردة واحترام بلاغي للمقدسات.

وواقع الأمر أن الخطاب السلطوي العربي، الذي اعتاش طويلاً على البلاغة، عظم القدس ونهى عن التصرف "السياسي" بمستقبلها ونهى الفلسطينيين، في الوقت ذاته، عن العمل في السياسة، وذلك في مفارقة ساخرة، تقول بتحرير فلسطين وتقيّد الفلسطينيين إلى نكبتهم.

أراد النظر السلطوي العربي "فلسطينياً طيباً" لا يلوث نفسه بالسياسة، حفاظاً على استقراره وتأمين شؤون عائلته، ودُفِع إلى خيارين: الحياد السلبي الذي يقصيه عن السياسة، من حيث هي فعل سيئ السمعة لا يحترم "أصول الضيافة"، أو الانصياع إلى أوامر السلطة والالتحاق بإراداتها. سبق الفلسطيني، في الحالين، إلى دائرة الاتهام، فمصلحته من مصالح العرب جميعاً، قبل أن تكون ذاتية ضيقة، وتحتاج إلى موقف "عربي عام" يضع رأي "الجماعة" فوق اجتهادات اللاجئين.

يثير الخطاب السلطوي، الذي "يقدّس" فلسطين ويطلب من الفلسطينيين الحياد السياسي سؤالين: إذا كانت المسألة الفلسطينية سياسية بامتياز، فكيف يكون اللاجئ فلسطينياً إذا حرر نفسه من قضيته الوطنية؟ يحيل الجواب على القهر الموسع الذي رمى به المنفى على لاجئ يريد استعادة حقه. والسؤال الثاني: إذ العمل السياسي اليومي وسيلة توحيد الفلسطينيين وتنظيمهم، فكيف يتواصل الفلسطينيون وينظمون جهودهم إن كانت السياسة فعلاً سيئ السمعة يسيء إلى استقرار البلد المضيف؟ ينتهي الجواب إلى توطيد المنفى وإبقاء اللاجئ في بؤس اللجوء، وإقناعهم أن فضائلهم ماثلة في "صبرهم" وصمتهم وثقتهم في المراجع العالية والعلمية التي تسهر على مصالحهم. إن العمل في السياسة يفتح نظر الفلسطينيين على وجوه العالم الذي يعيشون فيه والخاضع إلى قوى كبيرة وصغيرة وحروب وأمرياليات وتحالفات ومصالح ساهمت في توليد مأساتهم، كما لو كان عزلهم عن السياسة طريفاً إلى نسيان مهين، يستبقي الوجود الإسرائيلي ويترك الفلسطينيين في عراء المنفى. من الطريف أن تسفيه السياسة، كما الاحتفاء بالحياد والصمت السياسيين، كان عملة رائجة لدى "البيض العنصرين" المناهضين لحقوق "السود" المدنية في الولايات المتحدة، حيث الأسود الطيب لا ينتسب إلى الأحزاب والجمعيات المدنية، بينما الأسود الخبيث هو المطالب مساواته مع غيره. ولعل الموقف السلطوي، الذي يعترف بفلسطين ولا يعترف بالفلسطينيين كبشر لهم الحق في الدفاع عن قضيتهم والتصرف بها، هو الذي أعطى الفلسطينيين، في شروط معينة في العالم العربي، صفة: "الطائفة الشريرة"، التي تتدخل في شؤون غيرها وتؤذي "الطوائف الأخرى". سوغت هذه الصفة إنزال "عقاب جماعي" بالفلسطينيين أكثر من مرة، كأن يرمي معمر القذافي بالفلسطينيين على الحدود الصحراوية، لأنه رأى في "اتفاق أوسلو" استسلاماً، أو أن يجتهد "الإعلام الساداتي" بتلطيخ سمعة الفلسطينيين ومنظمة التحرير، ...

عاش الفلسطينيون وطنية التجربة وهم يعايشون، أكثر من ستين عاماً، تحولات النظام العربي الرسمي الذي اعتبر، في فترة من مساره، أن فلسطين قضية الشعوب العربية واعتبرها لاحقاً، قضية الأنظمة العربية، التي تحتكر حقوق الكلام والتصرف وتقرير المصير.. والمحصلة عدم اعتراف النظم بشعوبها وإنكار حق الفلسطينيين بالتصرف بقضيتهم. وبقدر ما عاش الفلسطينيون تحولات النظم العربية، بأشكال لا متكافئة، عاشوا التكون اليومي لهوية مختلفة، تربط الوطن بالكرامة، وتقيم بين المنفى والاعتراب والدفاع الصعب عن الذات علاقة لا تخطئها العين.

غاص الفلسطينيون في وطنية التجربة، وهي الطور الثالث من الوطنية الفلسطينية، الذي حمل معه أكثر من اختبار، ارتبط ذلك بتحصيل الرغيف واكتساب التعليم أم بإنسان ممنوع من السفر ولا حق له في الإقامة. بيد أن الوجه الأكثر صعوبة تمثل في مصادرة حق الفعل والكلام، إذ في الكلام صورة عن الفكر والروح والرغبة وإنسانية الإنسان، وإذ في الفعل اندماج في الحياة ومساهمة في صنعها ورفض للموت. فلا إنسان جدير باسمه بمعزل عن حقه في الفعل والكلام، "في البدء كانت الكلمة" يقول البعض، وفي "البدء كان الفعل" يقول بعض آخر، والموت وحده لا يحتاج إلى الفعل والكلمة. ولهذا لم يكن اندفاع الشباب الفلسطيني، بعد ظهور منظمة التحرير، طريقاً إلى استعادة الوطن فقط، بل كان له وجوه أخرى متعددة. وحد الفدائي الذي سعد مع منظمة التحرير في ستينات القرن الماضي، في ذاته بين الفعل والكلام، وواجه الموت مدافعاً عن الحياة، وتصرف بإرادته ومنع غيره من التصرف بها، ومارس جماعية العمل الفلسطيني، وأخبر عن معنى التمرد والالتزام والوعي الذي يبحث عن ذاته... كان في روحه إنسان مشتهى يعبر الحدود ويسخر من الوجوه الرسمية، مدركاً أن بؤس المخيم لا هو بداية للعالم ولا نهاية له. وكان في روحه فلسطيني مغترب، يعرف بشاعة اللجوء والعبث بالأسماء ويحفظ اسم فلسطين، وكان يفرح بالطريق إلى فلسطين مساوياً بين الطريق الطليق والوطن.

لا شيء غريب عن المنفى الفلسطيني الطويل، أكان ذلك داخل البلاد أم خارجها، بدءاً بالأحباط والانتظار وانتزاع الملكية واقتناص الرغيف والوجود الإنساني الأقل وحقوق الإنسان الزائفة، مروراً بالعقاب الجماعي ومتواليات المجازر والتناثر القهري في هذا العالم، ناهيك عن الاتجار بقضية نبيلة أتقنه أشباه الحكام وتجار الإيديولوجيات، وارتاح له "وعي فلسطيني فقير".... يظن أن إكثار الكلام عن تحرير فلسطين يسترجعها كاملة.

وعن هذا الشيء الذي جاء به منفى متعدد الوجوه والأبعاد، صدر وعي تلقائي دائب الحركة عاشت به القضية الفلسطينية يدعى: وطنية التجربة، التي هي جملة وقائع حياتية وإنسانية ووطنية، احتضنت الماضي وساءلت الحاضر، وأشارت إلى ما يريد الفلسطيني أن يصل إليه في مستقبل محتمل. ولهذا فإن الثقافة الفلسطينية، في معناها العميق، لم تصدر عن ثنائية القراءة والكتابة، في "مدارس عربية"، تذكر

الوقائع ناقصة، إنما جاءت من سجال حي، له مذاق الدم، بين: الوعي والوقائع الحياتية. ففي وقائع الحياة ما ينقد الوعي ويصوّب أسئلته، ومن وقائع الحياة تأتي وقائع ثقافية، تشتق الفلسطيني من خبرته وحصاره ومعاناته، قبل أن تسخ عليه "صفات تضامن عربي"، لم يمارس العروبة، كما وعها الفلسطيني، ولا يزال.

### ٣- بين الوطنية العفوية والوطنية الواعية

"الذي يطارده التنين يصبح تيناً بدوره". لم يكن بإمكان الفلسطينيين أن يحاكو الخطر الذي يطاردهم، وفقاً لما قال به الفيلسوف الألماني نيتشه، الذي اعجب به خليل السكاكيني ذات مرة. فقد طاردهم التنين وردوا عليه مقيدين إلى وطنية عفوية دائمة التحول أسهم فيها المثقفون، بلا تأخير، وبأشكال مختلفة. والنموذج الذي يتداوله المؤرخون رسالة يوسف ضياء باشا الخالدي، الذي بعث بها، عام ١٨٩٩، إلى تسادوك كاهان، الخاحام الأول في فرنسا وصديق هيرتسل. جاء فيها إن "الفكرة الصهيونية طبيعية، لائقة، وصادقة تماماً، من يستطيع أن يطعن في حق اليهود بفلسطين؟ ... إلا أنه لا بد من الأخذ في الاعتبار "القوة الصادمة للواقع: فلسطين هي جزء لا يتجزأ من السلطنة العثمانية، وهي مأهولة بغير اليهود، ... بالله عليكم دعوا فلسطين مأهولة تعيش بهدوء".

لم ينكر الخالدي "حق اليهود التاريخي" في الإقامة في فلسطين، مقابل الاعتراف بحقائق تاريخية أخرى، ففلسطين مأهولة بغير اليهود... ومع أن النبرة هادئة متسامحة حاكمها الاعتراف المتبادل بالعيش العادل، فهي مشبعة بالاحتجاج والإنذار، لان في عدم الاعتراف ما ينتزع الهدوء من فلسطين ويدفع بها إلى طريق الآلام. والمقصود بفلسطين هم الفلسطينيون، الذين رأوا في الفكرة الصهيونية "المتطرفة" ما يجافي الواقع ويصدم العقل والشعور معاً. اعاد هذه الفكرة بوضوح أوسع، عام ١٩١١، محمد روجي الخالدي في مخطوطة كتابه "تاريخ الصهيونية" الذي مايز، في دراسة تاريخية بالغة التوثيق، بين اليهودية والصهيونية، وأوضح أن الهدف الصهيوني إقامة دولة يهودية في فلسطين. وأضاء أسعاف الناشيبي الخطر بشكل آخر، في العام نفسه، بكتابه "الساحر واليهودي" كاشفاً عن الغايات الصهيونية الأخيرة. في هذه الكتابات وما يشبهها، وهي كثيرة، أضاف المثقفون إلى الوطنية العفوية المنتشرة في فلسطين كلها وطنية واعية بالأخطار الصهيونية القائمة والقادمة وواعية أيضاً، بالفرق بين إمكانيات "الأنا" وإمكانيات الآخر، وهو ما توقف أمامه روجي الخالدي بأسف يتاخم حدود الأسى. من اللافت في هذا المجال الولادة المبكرة للمثقف الفلسطيني الحديث، على مبعده نسبية من الكاتب السلطاني الذي لا يفتح على الشأن العام، دليلاً على متابعة الأول لما يجري في وطنه، وعلى دور ريادي في قراءة الحاضر والنظر إلى المستقبل. ولهذا يبدو ما قال به السكاكيني، في نقده للحياة الاجتماعية في فلسطين، استمراراً لما توقف أمامه روجي الخالدي، بقدر ما يبدو هذان المثقفان مرآة لمثقف نقدي حديث سابق لزمناه العربي. بل أن في



"رؤيا" هذين المثقفين، كما غيرهما، إعلاناً عن خصوصية الوطنية الفلسطينية الواعية لخطر، لا يستشعره إلا الذين يعيشون فوق أرض فلسطين، وهو ما فات مثقفاً مصرياً نبيهاً مثل محمد حسين هيكل، الذي أوحى في كتابه "مذكرات الشباب" - ١٩٢٨ أنه لا يعرف عن معنى الصهيونية شيئاً، إضافة إلى صحف مصرية شهيرة، ليس آخرها جريدة الأهرام، التي هاجمها، مرة، نجيب نصار هجومياً عنيفاً.

أسهمت العلاقة، التي لها شكل القاعدة، بين المثقف والقضايا الاجتماعية والوطنية في توليد صحافة وطنية "فاعلة". فبعد ثورة "تركيا الفتاة" تأسست أربع صحف فلسطينية واضحة الخصوصية، اتخذت من الخطر الصهيوني موضوعاً أساسياً لها: ففي عام ١٩٠٨ أسس حنا عبد الله العيسى صحيفة "الأصمعي"، ونجيب نصار صحيفة "الكرمل"، وفي سنة ١٩١٢ أسس سعيد جار الله صحيفة "المنادي" وعيسى العيسى صحيفة "فلسطين" التي تولى تحريرها يوسف العيسى. يشير اسما الصحيفتين الثانية والرابعة إلى الهدف الأساسي من ظهورهما. جمعت هذه الصحف بين السياسي والثقافي، وبين الوطني والقومي، بل أن نجيب نصار سعى إلى التنسيق بين الصحافة العربية المعادية للصهيونية، ووجه نقداً إلى صحف مصرية "تهادن" الصهيونية وقمائلها، وندد بمثقفين "متشاورين" متصالحين مع الاستعمار البريطاني والأجهزة الصهيونية، حال الشاعر العراقي معروف الرصافي...

لعبت الصحف دوراً مركزياً في مقاومة الصهيونية، أكان ذلك في فلسطين أم في الأوساط العربية خارج فلسطين، وامتد تأثيرها إلى بيروت أو القاهرة وباريس ودمشق، بل إلى مسافة أبعد، إذ أنشأ المهاجرون العرب السوريون في نيويورك صحيفة "مرآة العرب" عام ١٩١٠. بيد أن كل ذلك لم يكن ممكناً، بمعزل عن فاعلية الصحافة الفلسطينية، وهو ما يشير إليه المؤرخ الإسرائيلي يوسف لمدان في كتابه "العرب والصهيونية" (١٨٨٢-١٩١٤).

تميّزت تلك الصحف بأولوية الوظيفة على المهنة، وتعرض المشرفون عليها إلى المطاردة، و"الحكم بالإعدام"، وهو ما كان من نصيب نجيب نصار، الذي ألقى الصهيونية بنشاطه الإعلامي، فاشتكته إلى المراجع العثمانية العليا وإلى المركز البابوي في روما. قدّم نصار درساً في تكامل العمل الصحفي الوطني، فاهتم بموضوع الشباب والزراعة وبناء الاقتصاد الوطني، وصولاً إلى هاجسه الأساسي المتمثل بـ "البيوع"، الذي قصد به عرباً يبيعون أرضهم لليهود. تضمن وعي المثقفين الفلسطينيين بالخطر الصهيوني بعدين متكاملين: فهو وعي مبكر، سبق وعد بلفور وصعود الهجرة اليهودية إلى فلسطين، كأن يؤكد حافظ بك السعيد، ممثل يافا في البرلمان العثماني في أيار ١٩٠٩: "إذا لم تقم الحكومة بأي عمل ضد خطر هجرة الصهيونيين، فانه من الممكن قطعاً أن ينتزع المستوطنون الجدد لأيديهم نصيب الأسد من التجارة والأراضي في فلسطين، وأن يفوقوا بعددهم السكان المحليين، الذين تسعة أعشارهم لا يعرفون ما هو العلم والتعليم...". وقال أحمد العارف (والد عارف العارف)، الذي فاز في انتخابات ١٩١٢، لمحرر "الإقدام": "موضوع أحاديث سكان

فلسطين الوحيد حالياً.... هو مسألة الصهيونية. الجميع يخشاها ويخافها، والمسألة الصهيونية، وإن كانت في الظاهر اقتصادية إلا أنها في الحقيقة سياسية هامة... والحكومة تنظر إلى الصهيونية على أنها مسألة اقتصادية. إلا أنه ما من شك في أنها عاجلاً أم آجلاً، تتأكد أن المسألة سياسية هامة..."

تخبر الدراسات المتاحه، الخاصة بعلاقة المثقفين بالقضية الوطنية، عن وعي مبكر وتكشف، في اللحظة عينها، وهنا البعد الثاني، عن وضوح لا ارتباك فيه، إلا لدى قلة منعزلة عن الواقع ومنغمسة في حسابات الأعيان. وبداهة، فإن ذلك الوضوح، لم يكن خصيصة من خصائص المثقفين، نظراً لتملكهم عمليتي القراءة والكتابة، فما بعث عليه صدر عن استشعار شديد بالخطر، مرجعه حضور يهودي لا يكف عن التكاثر، تقتني آثاره العين المباشرة، قبل أن يتحول إلى أسئلة وطنية ملحة. وبسبب هذا الاستشعار، الذي يحيل على الأرض والاستقرار الموروث، وحدت "الوطنية العفوية" بين المثقفين وبقراء الفلاحين الأميين، الذين أدركوا، قبل غيرهم، أن الصهيونية حركة سياسية، تستهدف اغتصاب الأرض، لا مجرد وجود "بشري - اقتصادي". ولعل الوعي العفوي، الذي يعززه تهديد معيش، هو الذي جعل تصورات الفلاحين الأميين، كما جاء في بعض الوثائق، أكثر دقة ونفاذاً من تصورات وجهاء يعرفون القراءة والكتابة، ويتخذون من "السياسة" مهنة. وهو الذي كان يدفع بالفلاحين إلى التعريض بالذين يبيعون أرضهم والتعرض لهم في الطرقات والأماكن العامة. يذكر في هذا المجال أن الصحف الفلسطينية كانت تصل إلى "القرى"، حيث يتجمهر الفلاحون، الذين لا يعرفون القراءة إلا صدفة، حول القارئ الوحيد لديهم، أو حول عابر سبيل يحسن القراءة.

في "الوطنية العفوية"، ما يستدعي مصطلح "عضوية الوعي الوطني الفلسطيني"، إن صح القول، من حيث هو وعي جماعي توزع على المجتمع كله بأقساط مختلفة، واحتضن الفلاحين والمثقفين، ولامس المرأة في بعض نماذجها وامتد إلى الشباب المتعلم الذين أرادوا "مبادرات شبابية" لا توائم "المجتمع الأبوي"، ولا تنال موافقة الانتداب البريطاني، الذي ربط بين التعليم و"الوعي اليومي المحايد"، إذ القراءة والكتابة فعلاً يعطيان "وظيفة مضمونة"، ولا ينشغلان بالقضايا الوطنية والسياسية.

أعطى عادل حسن غنيم، في كتابه "الحركة الوطنية الفلسطينية من ١٩١٧ إلى ١٩٣٦" معلومات واسعة عن الدور الوطني للشباب الفلسطيني، أضاءت الأسباب التي عوقت حركته في البداية، وتلك التي دفعت بدوره إلى التزايد في فترة لاحقة. نقرأ في كتاب غنيم "ولعل تأخر مساهمة الشباب في دفع خطى الثورة في فلسطين طوال العشرينات يرجع بشكل أساسي إلى قلة الشباب المثقف في تلك الفترة، وعدم اعتراف الجماعات السياسية في البلاد بقطاعات الشباب المختلفة... وقد أسهم الانتداب بدور رئيسي في هذا المجال. فالمستر فاريل مدير المعارف امر بجلد طلبة مدرسة المعارف في نابلس وهم عراة الأجسام، بتهمة الاشتراك في مظاهرة وطنية عام ١٩٣٦". ما يستوقف النظر هو تعبير "الشباب المثقف؟"، الذي يوحي بأن المثقفين الشباب يفوقون غيرهم من الشباب كفاحية واندفاعاً، وهو كلام لا يحمل الكثير من المعنى،

فشباب الفلاحين الأميين كان لهم دور وطني بارز منذ نهاية القرن التاسع عشر، بل أن مفهوم "الحس العفوي الوطني"، الذي نميل إليه، لا يميّز كثيراً بين "المتعلم" و"اللامتعلم"، ذلك أن مشاركة الشباب بالعمل الوطني ارتبطت بالسياق الكفاحي العام. وإذا كان هناك ما يميّز الشباب المتعلم "فذلك عائد إلى العامل الشبابي" أكثر منه إلى "العامل التعليمي". ولعل الارتباط بالسياق هو الذي أعطى الشباب الفلسطيني دوراً فاعلاً وتجديدياً، منذ عام ١٩٣٣، والأعوام اللاحقة، أي مع البدايات الأولى للثورة الوطنية الكبرى، حيث قاد الشباب مظاهرات واسعة في القدس ويافا وعكا، وطالبوا بوقف الهجرة اليهودية إلى فلسطين، وشكلو لجنة تدعى "لجنة حراسة السواحل والحدود"، دورها أيقاف الهجرة غير القانونية. وقد رفع الشباب مطالب متعددة، تخص التعليم والاقتصاد وتتعامل مع "مشاكل الجماهير وتنظيم العمال وتنشيط الحياة الثقافية؟. وكان من الواضح، في عام ١٩٣٥، أن العناصر الشابّة قد كسبت أرضاً، وأصبح بإمكانها أن "تناهض القيادات التقليدية" وأن الحركة الشبابية الفلسطينية أصبحت أشبه بحزب سياسي جديد.

كشفت الحياة الوطنية الفلسطينية، في عشرينات أو ثلاثينات القرن الماضي، عن ارتقاء "الوطنية العفوية، التي حملت قوة وضعفاً في آن: جاءت قوتها من مداها الشعبي الواسع، الذي ضم الفلاحين والمثقفين والشباب، وذلك في مجتمع يشكل فيه الفلاحون أغلبية واسعة، وأقّ ضعفها من هيمنة "الإيديولوجيا الوطنية العفوية"، التي تدافع عن الأرض وتمسك بها، دون أن تؤالف بين الغاية والوسائل المستعملة من أجل تحقيقها.

تكشف التجربة الوطنية، الممتدة من وعد بلفور إلى انطفاء الثورة الوطنية الكبرى، عن العلاقة القوية بين العمل الوطني الواعي لأهدافه، ولو بشكل نسبي، والأخذ بممارسات حديثة، فالأدب والصحافة واللغة الصحافية في ذاتها وتعامل الشباب مع العالم (إضافة إلى الترجمة والمدارس) والمظاهرات.... كل ذلك حمل بعداً حديثاً ونقد الظواهر الاجتماعية الأكثر انغلاقاً وتيبساً.

كان على "الظواهر الحديثة المجزوءة"، التي جمعت بين الكتابة والنقد والصحافة، أن تفضي إلى ظاهرة حديثة، في مجتمع مرت عليه الحداثة مروراً سريعاً. والمقصود بذلك الحزب السياسي، الذي اختصره المجتمع الفلسطيني، بسبب فقر تجربته السياسية، إلى الحزب - الحمولة، أو الحزب - العائلة، أو الحزب - المتزعم، ... وعلى الرغم من تقليدية المجتمع استطاعت بعض القوى الشابّة والمتعلمة، وهي تكافح من أجل الاستقلال والتجديد، أن تنشئ أحزاباً وأن تقترب من تصورات راقية واقتراحات تجديدية. ومن بين هذه الأحزاب، التي كانت محاطة بأحزاب شكلانية لا معنى لها، حزب الاستقلال، الذي وضع المراجع الموروثة الضيقة جانباً، والتفت إلى الشأن الاجتماعي، في وجوهه الحيوية، الممثل بالشباب والتعليم والعمال والمرأة، وأراد أن يكون قومياً وأن ينسق مع "القوميين" في المناطق المجاورة لفلسطين. وربما كان بإمكان هذا الحزب، الذي صعد في مطلع ثلاثينات القرن الماضي، أن ينشر "عقلانية" في العمل السياسي الفلسطيني، وأن يحرر "الحركة الوطنية"

من آفات الارتجال والغوغائية والاستزلام، غير أن مواجهة القوى التقليدية له حاصرت حركته، وتركته مشروعاً "بدئياً". وإلى جانب حزب الاستقلال كان هناك الحزب الشيوعي، الأكثر قدماً بين "الأحزاب" في فلسطين، الذي أراد التوجه إلى "العمال والفلاحين"، منطلقاً من "براءة فكرية" تلتقي بالواقع صدفه، وإن كانت تلك البراءة حاسمة في محاربتها للصهيونية والتنديد بها، ذلك أن مفهوم الطبقة الماركسي يغيّر قطبياً تصوراً صهيونياً قائماً على العرق واللاهوت وعنصرية مقاتلة.. والحزب الثالث، الذي كان حركة شعبية أكثر من شيء آخر فهو "الحزب العربي الفلسطيني"، الأكثر نشاطاً من غيره والذي كان مهجوساً، وخاصة في الثلاثينات، بعمليات الاحتجاج والمظاهرات والبيانات الصاخبة وتقديم المذكرات، وغير ذلك من "الوسائل السلمية" التي حرّضت الناس فترة، ثم سقطت في العجز والركود. يعطي هذا الحزب، الذي التف حوله الفلسطينيون، وكان صادقاً في نواياه، صورة عن الفرق المأساوي بين الهدف المطلوب، تاريخياً، وأشكال الوعي المتاحة، فعلياً. تقصد الملاحظات السريعة السابقة إلى أمرين: تبيان التراكم الوطني، المتعدد الأشكال، الذي "استأنست" به الوطنية الفلسطينية، قبل النكبة وبعدها، وما زال مرجعاً مضيئاً "لنا" حتى اليوم وإرادة الدفاع عن الذات الوطنية، التي خذلها "تاريخ موضوعي" وداخلتها أشكال من "الغفلة" اقرب إلى العبث، مثل ذلك الصراع الضاحك - الباكي بين "الحسينيين والنشاشييين".

#### ٤. رمزية منظمة التحرير:

لم يحظ الفلسطينيون بدولة تمثّلهم في زمن السيطرة العثمانية، ولم يختلف الأمر مع مجيء الانتداب البريطاني، الذي اجتهد في إضعاف المجتمع وتوليد "المتزعمين"، الذين يوطدون علاقاتهم مع الإدارة الاستعمارية ويهمشون قضايا الناس. ولم يكن في المجتمع، ببنائه التقليدية الضعيفة، ما يسهم في بناء قيادة سياسية موحدة. ففي مقابل المتزعمين المكتفين، غالباً، بمصالحهم الذاتية، كان هناك مجتمع مكافح بلا قيادة فعلية. وما جاء في مذكرات خليل السكاكيني ونجيب نصار ومحمد عزت دروزه، يعطي صورة عن زعامات أُضيفت إلى المجتمع أكثر مما هي جزء منه. فتحدّث الأول عن "خطباء" يلهبون مشاعر الناس صباحاً ويلودون ببيوت المسؤولين الإنجليز مساءً، وألمح الثاني إلى "وسطاء" يسلمون القضايا الوطنية، ومر الثالث على "جمع من السياسيين تثير خلافاتهم القرف".

ولعل غياب الحياة السياسية في مجتمع تكتسح الأمية، وهو ما وقف عنده د. عبد الوهاب الكيالي في كتابه الشهر، حين أضاء الجفوة الأقرب إلى القطيعة بين الشعب الثائر و "المتزعمين"، وهي صفة جاءت على قلم نجيب نصار، وهي التي أجهضت إمكانيات تحوّل الحركة الشعبية الواسعة، في ثورة ١٩٣٦، إلى فعل سياسي منظم مدرك لغاياته وللوسائل التي يحتاجها، الأمر الذي سهّل تسلل "الملوك والرؤساء" إلى القرار الوطني الفلسطيني وتعطيله.

أما العقد الذي أعقب هزيمة الثورة، فتميز بإحباط شعبي عام، وبفراغ سياسي فادح، بدت فلسطين فيه خالية من "الزعامات"، أو ما يشبه الزعامات، وفقاً لما قالت به مذكرات محمد عزة دروزه. ولهذا بدا استشهاد القائد النموذجي عبد القادر الحسيني، في نيسان ١٩٤٨، استشهاداً للقضية الوطنية برمتها، وغدت فلسطين أرضاً موأمة لعبت "جيش الإنقاذ"، ذلك العبث الذي مهّدت له قرارات الجامعة العربية الرخوة، التي لا تليق بقضية عادلة وذات خطر، بلغة طه حسين، وهو ما ورد في كتاب حلمي النمنم "طه حسين والصهيونية".

وبعد التهميش الذي أنجبته الجامعة العربية والعبث المعقد الألوان لجيش الإنقاذ، كان على "حكومة عموم فلسطين"، التي قبلت بها الجامعة بعد سقوط فلسطين، أن تولد على صورة سياقها، فتبدو "واعدة" تحلم بالقتال، وينتهي رئيسها أحمد حلمي باشا إلى مكتب صغير في القاهرة، تحاسبه الجامعة على نفقات لا تتجاوز "الستين جنيهاً" في الشهر إلا بقليل، لشراء الأوراق والأقلام و"الشاي"، فلم يكن حلمي باشا يتقاضى مرتباً على عمله.

كان في وضع "حكومة عموم فلسطين"، بعد سنوات قليلة على ولادتها المؤقتة، ما يذكر بالحكمة القائلة: "لا رحمة للمهزومين"، إذ على الفلسطينيين أن ينصاعوا إلى "فتات القرارات العربية، وأن يلبسوا جلود هزيمتهم، وأن يطمئنوا إلى ما يقال لهم ويصدقونه. والمحصلة أن الفلسطينيين لا يمثلون ذاتهم، فالمهزوم ليس له إلا هزيمته، وأن غيرهم من العرب أكثر جدارة بتمثيلهم. كان الفلسطيني، بعد النكبة، لاجئاً على مستوى الإقامة، ولاجئاً على مستوى القرار، إن لم يكن لاجئاً على مستوى الطموح، فلا طموح لمن سقط في أكثر من هزيمة.

وإذا كانت الوصاية العربية على "الطرف الفلسطيني القاصر"، قد بدت، بعد سنوات النكبة مباشرة، فظة وخشنة، فإن تحولات الخمسينات والستينات اللاحقة، كست الجماعة الفلسطينية بوعود جديدة. نقل الفلسطينيون رغبتهم في تمثيل أنفسهم إلى "قومية عربية" صاعدة، وعهدوا بالتمثيل المنشود إلى "الوحدة العربية" المسرعة الخطا إلى تحققها المنتظر. ولأن الفلسطينيين، وبفضل التجربة، أدركوا الفرق بين طعم العسل والحديث عنه، ارتكنوا إلى السياق، ففي الثامن والعشرين من أيار، ١٩٦٤، عقد في القدس "المجلس الوطني الفلسطيني"، المكوّن من ٤٠٠ مندوب تقريباً، الذي انبثقت منه "منظمة التحرير". أوجز أحمد الشقيري معنى الكيان الوليد قائلاً: "منذ أن حلّت الكارثة أفلت زمام الشعب الفلسطيني من يده، لذلك كانت الحاجة ملحة في أن يقوم الكيان الفلسطيني وأن تهيأ الفرصة كاملة أمام الشعب الفلسطيني لينهض بتبعاته الوطنية لتحرير وطنه...".

ومع أنه من السهل إذابة الحدث، أي ولادة منظمة التحرير، في سياق "قومي" صاعد، أسقطته هزيمة ١٩٦٧، فإن الحدث، فلسطينياً، يتجاوز لحظته ويرتد، زمنياً، إلى الماضي والمستقبل معاً. فقد رأى

الفلسطينيون بأن تحرير وطنهم يستلزم فعلاً ذاتياً مبادراً، تصادى في اختيار القدس مقراً للمجلس الوطني، وتصادت فيه ذكرياتهم عن ثورة ٣٦ والدور العربي الرسمي فيها ودروس "جيش الإنقاذ" الذي منع السلاح عن عبد القادر الحسيني. أدرج ياسر عرفات الحاضر والمستقبل في الماضي الوطني بـ "كوفية فلسطينية"، كانت إشارة شعبية مقاتلة في "الثلاثينات المجيدة" المنصرمة.

عبّرت ولادة منظمة التحرير عن إرادة وطنية كلية، تعبيراً عن ارتقاء ثقافي - سياسي فلسطيني، وعن استمرارية حياتية فاعلة، جابهت المنفى وهزيمة صاحبة، بدت للقادة الإسرائيليين نهائية ولا خروج منها. بيد أن الأكثر أهمية في ولادة المنظمة تجلّى في كيانية "رمزية" للفلسطينيين، تمثلهم ويتمثلون بها، للمرة الأولى في تاريخ فلسطين الحديث، تتيح لهم أن يتصرّفوا بقضيتهم ولا تدع الغير يتصرّف بها، معتبراً الفلسطينيين جماعة قاصرة، توكل مصيرها إلى "أصحاب الاختصاص". برهنت الإرادة الجديدة عن استمرارية فلسطينية الإنسان الفلسطيني، الذي يخاطب أقداره بلغة فلسطينية مشتقة منه. فبعد تجربة اللجوء، التي أُلقت باللجوء في العراق، واختصرت وجوده إلى زمن لاجئ، لا جذور له ولا أفق، تسلّح برمز واعد، يحاور رموزاً ماضية، ويفتح الضياع الفلسطيني على المستقبل. انتسب الفلسطيني إلى إرادة جماعية، قاتلت ذات مرة، وتريد أن تقاتل من جديد متحررة، ولو بقدر، من أخطاء سابقة.

لم تعد القضية الفلسطينية، بعد ولادة منظمة التحرير، "قضية عربية" بالمعنى البلاغي والتفاسم والوصاية، بل أرادت أن تكون عنصراً جديداً في "الحقل السياسي" في العالم العربي، ينقد ويؤرق ويعلن أن الهزيمة ليست ثابتة، وأن ثباتها من ثبات السلطات التي أفضت إليها. لا غرابة أن تكون "المعركة" جزءاً داخلياً في مسار المنظمة، منذ ولادتها إلى اليوم، وأن يكون حرصها على استقلالها معركة مفتوحة مع أطراف عربية، أدمنت استثمار القضية الفلسطينية لأغراض ليست فلسطينية. ولا غرابة أن يعيش "اللاجئون" عقاباً جماعياً دورياً، ترجم علاقة المنظمة مع أطراف عربية معينة. يستعيد هذا الوضع، من جديد، قول محمود درويش المأساوي: "كم كنا عرباً في إسرائيل، وكم أصبحنا فلسطينيين في بلاد العرب". ولم تكن بلاد العرب، بمعنى درويش، إلا أنظمة قاومت الحقوق الفلسطينية باستقرار ذاتي، يحرس استقرار الفلسطينيين في المنفى.

من المحقق أن أهمية منظمة التحرير لا تتعَيّن ببنيتها التنظيمية، ولا تتأق من وسائلها الكفاحية، خاطنة كانت أو محددة الخطأ، ولا تصدر عن إمكانياتها المعوقة المقيدة، إنما تتجلى في رمزيتها الوطنية التي أمدت الفلسطينيين بكيان سياسي، لم يتح لهم في النصف الأول من القرن العشرين، يبقي قضيتهم قائمة، ويفتح لهم أفقاً يترجمون فيه حقوقهم، بعد أمد يقصر أو يطول. ولعل اختصار المنظمة إلى أخطائها، وهي عملية سائرة، يعبر عن وعي وطني فادح في فقره، دون أن يعني ذلك حجب الأخطار والتستّر على انحرافات أقرب إلى الفضيحة.

أعلنت المنظمة عن أهميتها في الدعوة إلى وحدة الشعب الفلسطيني، ونقله من مقام "التراكم السكاني"،

الذي لا يقول شيئاً، إلى مقام مجموع إنساني له قضية، تساوي إنسانيته استعداده للدفاع عن قضيته. فقد جاء في المادة التاسعة من "الميثاق القومي الفلسطيني": "الفلسطينيون جميعاً جهة وطنية واحدة يعملون لتحرير وطنهم بكل مشاعرهم وطاقاتهم الروحية والمادية"، وأكّدت المادة الرابعة من "النظام الأساسي": "الفلسطينيون جميعاً أعضاء طبيعيين في منظمة التحرير الفلسطينية يؤدون واجبهم في تحرير وطنهم قدر طاقاتهم وكفاءاتهم...". والواضح في هذا التأكيد استنهاض قيمي ثقافي - تربوي، ينقض اختصار الفلسطينيين إلى "مخلوقات بيولوجية"، وفقاً لمعايير "كرت الإعاشة"، ويحرّضهم على التمرد، الذي لا يكون الإنسان المقهور إنساناً إلا به، والواضح أيضاً تقويض "الانتظار السلبي"، الذي يعطف "ابن المخيم" على مخيمه ويصيّره إلى ثبات عنوانه المهانة المتجددة. فإنسانية الإنسان من معاني ما يتوقعه، وقيمتها من قيمة ما يقاتل من أجله، وإلا انتهى إلى روح ميتة أُجّل دفنها.

كان في ذلك الانتظار، المتوّج بالبؤس، ما وضع في برنامج حركة "فتح" ١٩٥٨، والذي سبق ولادة المنظمة، لغة غاضبة، أرادت أن تكون طهرانية ومطهّرة، تحدّثت عن "النواة الصالحة"، في إشارات إلى أمراض سياسية متوارثة، و "الخلية الأولى"، في إحالة إلى بدء غاضب يقطع مع ما سبقه، و "الواقع الفاسد"، الذي لا يمكن القبول به، و "الطليعة الثورية"، التي تتوحد فيها الثورة والولادة، و "مرحلة التفجير الثوري"، المبشرة بفعل مزلزل يجتث القصور الفلسطيني، وصولاً إلى "المبدأ الثوري"، الذي لا يأترف مع عادات بليدة وبلاغة قاصرة، ... استلهمت هذه الشعارات - المبادئ واقعاً سلبياً عاشه الفلسطينيون، واستجابت إلى ما عرفه الفلسطينيون وتطلّعوا إلى تغييره. ولعل الانطلاق من واقع فلسطيني معيش، كما التوجه إلى "الاجئين" انتظروا "الثأر" والعودة ومجابهة "مركب النقص"، الذي ضربهم به الجوع، هو الذي عيّن "حركة فتح" ممثلاً لإرادة الفلسطينيين وآمالهم، وصيّرها إلى حركة شعبية فاعلة، ترى في الفلسطينيين قوتها الأساسية، بل الوحيدة، ويرى فيها الفلسطينيون ممثلهم الفعلي والرمزي الأساسي. بدت "فتح" صورة أخرى عن "الحزب العربي الفلسطيني"، بعد ترهينه، في زمن آخر، وقد أضيف إليه ما كان ينقصه أي: العمل المسلح. تقود الملاحظات السابقة إلى سؤالين: ما معيار وطنية الفلسطيني في علاقته مع منظمة التحرير؟ وما الذي يجعل من المنظمة فعلاً وطنياً بامتياز؟ تتعيّن وطنية الفلسطيني، من دون مقدمات، بدفاعه الصادر عن وحدة منظمة التحرير، ذلك أن الوحدة قوة، وأن وحدة الفلسطينيين، السياسية والمعنوية والمادية، هي المتكأ الأساسي الذي يبرهن عن استمرار قضيتهم، وأن "المنظمة" تجسيد لإرادة جماعية، وهي، أولاً وأخيراً، محصلة لفعل فلسطيني مقاتل شائك وطويل، لا يزال يتوالد حتى اليوم. وإذا وضعنا ميزان القوى الذي يلف صراع الفلسطينيين مع "غيرهم"، تجلت بالمعنى الحقيقي، الوحدة "استراتيجية الضعفاء" الأساسية، التي تحاصر الضعف وتمنح لـ "الضعفاء المتحدين" أفقاً، وتختبر أخلاقيتهم وتعاین دلالة المسؤولية عندهم. تتأتى وطنية المنظمة من تمثيلها الفلسطينيين جميعاً، ومن اعتبارها فلسطين، جغرافياً وتاريخياً، مرجعاً

للعمل الوطني لا تمكن إذابته في مراجع معنوية، مثل الدين، ذلك أن المتدينين وغير المتدينين يحتاجون إلى أرض ووطن وهوية، ولا في مرجع أيديولوجي يقرأه البعض في "قومية مشتتة"، فالعربي الذي يدعم، صادقاً، فلسطين، ليس مستعداً، لأسباب مشروعة، أن يتقاسم وطنه مع الفلسطينيين.

لم تظفر ثورة ٣٦ بجهد "عربي" حقيقي يعترف بها، ولم تعترف الجامعة العربية - ١٩٤٥ - بالدلالة الفعلية للقضية الفلسطينية، وعبثت القيادة العسكرية العربية الشكلاية بعبد القادر الحسيني، وانتهت حكومة عموم فلسطين" إلى فراغ. انتزعت منظمة التحرير التي استعادت التاريخ الوطني الفلسطيني كله، اعتراف العرب والعالم، وفرضت قضية فلسطين قضية كونية، تعرفها الشعوب والمجتمعات والدول كلها، في سيرورة مفتوحة أشبه بالحكاية.

## مراجع الدراسة

١. هنري لورانس: المغامر والمستشرق، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ٢٠٠٣.
٢. مارك بلوخ: دفاعاً عن التاريخ، المركز العربي للإسلامي للدراسات الغربية، ٢٠١٢.
٣. Norman G. Finkelstein: verso, London, Newyork, 1995
٤. Joan Peters: From time immemorial, Newyork 1984
٥. يوسف لمدان: العرب والصهيونية (١٨٨٢ - ١٩١٤)، دار الحصاد، دمشق، ٢٠٠٩.
٦. هنري لورانس: المجلد الأول ١٧٩٩ - ١٩٢٢، اختراع الأراضي المقدسة، الكتاب الثاني ١٩١٤ - ١٩٢٢، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ٢٠٠٦.
٧. عادل حسن غنيم: الحركة الوطنية الفلسطينية: ١٩١٧ - ١٩٣٦، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٤.
٨. ماهر الشريف: البحث عن هوية، الطبعة الأولى ١٩٩٥، مركز الأبحاث والدراسات الاشتراكية في العالم العربي، قبرص.
٩. رسائل صاحب الكرمل: نجيب نصار، تقديم وإعداد وليد خليف، الناصرة (١٩٩٢).
١٠. رويحي الخالدي: تاريخ علم الأدب، دمشق، ١٩٨٤.
١١. يوسف أيوب حداد: خليل السكاكيني، الاتحاد العام للكتاب والصحفيين الفلسطينيين - بيروت ١٩٨١.
١٢. محمد عزة دروزه: القضية الفلسطينية، دار العرب، دمشق (بلا تاريخ)، الطبعة الأولى، المطبعة العصرية، صيدا، ١٩٦١.
١٣. وليم إي. ديبوس: روح الشعب الأسود، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ٢٠٠٢.
١٤. فيصل درّاج: ذاكرة المغلوبين، المركز الثقافي العربي، بيروت، ٢٠٠٢.
١٥. يوسف نحماي: مذكرات سمسار أرض صهيوني، جمع وتحرير يوسف فاتيس. ترجمة وتقديم وإعداد د. إلياس شوفاني، دار الحصاد، دمشق، ٢٠١٠.
١٦. سري المقدسي: فلسطين الوجه المعكوس - احتلال يومي - مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ٢٠١١.



## المشروع الوطني.. اعادة صياغة أم رؤية جديدة؟

د.غازي حمد \*

المشروع الوطني سيرة مليئة بكثير من صور الماضي المجيد والواقع المؤلم ...  
ولأنه يمثل طموح وأحلام الشعب الفلسطيني، فإن تعلقنا به كبير لإخراجنا من الأنفاق المعتمة وحالات  
الحيرة وساعات الشدة . المشروع الوطني هو جبل النجاة من حالة التناقض والتعارض والانقسام الأفقي  
والعمودي .. هو بلسم لأمراض التعصب الحزبي وضيق الأفق وقصور الرؤية والفكر الاحادي والنظرة  
السطحية .. هو نقطة تجمع للشئات السياسي وجمع للطاقات الوطنية بدلا من اهدارها في سجالات عقيمة.  
نحن بحاجة بالفعل إلى مشروع وطني حقيقي يرسم الطريق ويزيل الغموض ويجب على الاسئلة  
المحيرة ويخرجنا من حالة التيه والأوهام المبالغ فيها أو الأمانى المشبعة بالشعارات .. إنه يضعنا على  
"السكة" ويكشف لنا عن " إشارات المرور" وينبهنا من المخاطر والمزالق .

### هل لدينا مشروع وطني؟

هذا السؤال يبدو مشروعا رغم غرابته !! لأن الحالة الفلسطينية بكل تعقيداتها وتناقضاتها وحالة التنازع  
القائمة بين البرامج السياسية والانقسام في النظام السياسي والتراجع في مستوى دعم وتأييد القضية  
الفلسطينية يفرض هذا السؤال ليس من باب الإنكار عموما ولكن من باب البحث العميق عما اذا  
كان هذا المشروع قائما بالفعل أم أنه متوار وراء برامج حزبية أم أنه تراجع بفعل الكثير من التغيرات

---

\* اعلامي فلسطيني

السياسية ولم يعد واضحا أو متصدرا بوصلة التحرك السياسي الفلسطيني ؟ .  
إن أزمة المشروع الوطني ليست أزمة طارئة أو جديدة بل لها امتداد على طوال التاريخ الفلسطيني، حيث خضع هذا المشروع إلى صراعات ونزاعات عائلية وحزبية ومحاور اقليمية ودولية ما أخرج مشروعا غير واضح المعالم والمراحل والأهداف . بل إن الفلسطينيين آثروا أن يجتهدوا في خلق طرق ووسائل لتطوير المشروع الوطني من خلال رؤى وأهداف حزبية وليس من منطلق الرؤية الوطنية الشمولية .  
الحالة الفلسطينية تفرض إعادة "إنتاج" وتطوير وتحسين المشروع الوطني بناء على "الأصول" التي قام عليها واستحضارًا للتغيرات التي فرضت نفسها على المنطقة وتقييما للتجربة الفلسطينية بكل أبعادها .  
من الكارثة أن نبقى المشروع الوطني مغيبا تحت مسميات أخرى ، لأنه ثبت بالتجربة إنه لا يمكن استبدال المشروع الوطني بمشروع حزبي أو فصائلي ولا يمكن بحال تجاوزه أو الانتقاء منه أو فصله عن الحالة الفلسطينية القائمة .

### أزمة المشروع الوطني

إن عملية تشخيص مشكلة وأزمة المشروع الوطني معقدة بسبب التراكمات الكثيرة التي علقنا بالمشروع . يجب أن نسأل أنفسنا أين تكمن أزمة المشروع الوطني .. هل هو في غياب الإجماع الوطني .. هل هي أزمة قيادة .. هل هو في عدم القدرة على صياغة رؤية وطنية واقعية .. هل هو في غياب الدعم العربي والدولي ... الخ .

ربما كانت مشكلتنا دوما كلفلسطينيين أننا نجنح دوما إلى العمل الحزبي الأحادي وكانت نزعنا نحو العمل الجمعي والوفاق الوطني ضعيفة وقاصرة ، وهو ما سمح لرؤيتنا الاستراتيجية أن تتقزم ، وسمح "للأغراب" أن يدخلوا في ثنايا جلودنا حتى توزعنا ما بين احلاف وتيارات .

بالرغم من أننا نعيش في أصعب منطقة ونواجه اشرس احتلال ونخوض أعقد صراع على المستوى الإقليمي والدولي إلا أننا لم نرتق إلى مستوى هذه التحديات في تعزيز الصف وتوحيد الرؤية ، وفضلنا أن نعمل "كفصائل" وأن نتمايز كتنظيمات، وأن نتفاخر بانجازات "حزبية" ، وأن نعطي قيمة الحزب على قيمة الوطن مما أدخلنا في متاهة قاسية وصحراء شاسعة وخلافات لا حدود لها .

أصبحت الساحة محكومة بالبرنامج الحزبي واللون الحزبي والشعار الحزبي ، واستبعد البرنامج الوطني تماما وصار في عداد الغائبين، إلى أن يلتفت اليه في المناسبات والخطابات والشعارات .

قضيتنا مضى عليها أكثر من ستة عقود ولا نزال نراوح مكاننا ، إلا القليل من الإنجازات التي لا تتماهي مع حجم التضحيات الكبيرة التي قدمناها ، ومرت علينا حروب وثورات وانتفاضات ومسيرات سلام

واتفاقات واستيطان واغتيالات ونهب للأرض وللسكان ... ثم اعتقدنا أننا نستطيع أن نواجه ذلك كله  
ببرنامج حزبي أحادي !! .

ثم إن المشروع الوطني الفلسطيني قد تم الانقلاب عليه من حيث الجوهر والمضمون من قبل بعض  
القوى السياسية ، وانقلبت أدوار التنظيمات فأصبحت بدلاً من أن تعبر عن مصالح الشعب، توظف  
الشعب لخدمتها، بل أمسكت به من خلال مشروع سلطوي، هو الوحيد الذي مكنها من ضبط المجتمع  
قسرياً، بعدما كان منضبطاً طوعياً لها من خلال التزامه المشروع الوطني الذي تحمله، وهذا ما صعب  
ولادة البديل، بعد أن كان الشعب الفلسطيني محتفظاً بحيويته وقدرته على التجدد والإبداع.

وقد تجاوزت أزمة المشروع الوطني الفلسطيني إلى أن تصبح أزمة اجتماعية أوصلت المجتمع إلى حالة  
من العجز والترهل والكسل عن وقف التراجع أو إنتاج أدواته البديلة.

واضح أن هناك أزمة فكرية متمثلة بعجز العقل الفلسطيني عن إدراك وجود أزمة المشروع الوطني  
الفلسطيني مبكراً، الأمر الذي فاقم الأزمة وربما قادها إلى نقطة اللاعودة. كما أن أزمة المشروع الوطني  
الفلسطيني لم تتمثل في تحقيق أهدافه فقط بل في عدم اعتراف الجهات المعنية بمسؤوليتها عن الفشل  
أيضاً، ناهيك عن أنها غطته بفظاظة من خلال وسائل شتى أخطرها إعادة تأسيس كافة الأمور، بدءاً  
من إعادة تعريف الأهداف وصولاً إلى استبدال الولاء على أساس المبادئ إلى الولاء على أساس المصالح.  
ما جرى عرضه من مشاريع على الساحة الفلسطينية من حين لآخر أكد أن المسألة تتمحور حول  
"إعادة إنتاج الأزمة" من جديد وتعميق حالة التصادم والمواجهة وعدم تقبل الآخر بدلاً من الاستناد إلى  
حالة من التعاون والتكامل والعمل المشترك؛ فكل طرف يحمل الآخر مسؤولية فشل المشروع الوطني  
ويعتبر أن لديه الحقيقة المطلقة في صحة المشروع الوطني . هذه الحالة مزقت المشروع الوطني بين  
اتجاهات وتيارات متعارضة وابقته تائها ضعيفا فاقدا للهوية والمسار الصحيح . إن العقلية الجمعية  
غيبت تحت طغيان العقلية الحزبية والتي " حوصلت " المشروع الوطني داخل بوتقتها .

### قراءة سياسية مغلوطة

أحد مظاهر الازمة في المشروع الوطني هو عدم امتلاك القدرة على قراءة الاحداث والمتغيرات السياسية  
بطريقة مهنية وموضوعية تخدم الرؤية الاستراتيجية وتحقق المصالحة للقضية الفلسطينية ، مما يغرق  
القضية في أزمتات ومسارات تائهة . فبعض القوى تقرأ المتغيرات والأحداث السياسية من باب أيديولوجي  
محض يفتقد للرؤية السياسية الواعية ، وبعضها يقرأها من باب العجز وعدم القدرة على إحداث التغيير  
باعتبار ان القوى الكبرى هي التي تتحكم بمسار القضية برمتها ، وبعضها يقرأها من زاوية ضيقة تفتقد

للبعد الشمولي الذي يمكن من استثمار الأحداث والمتغيرات بشكل جيد .  
القراءة الخاطئة قادت الى كوارث على مر التاريخ الفلسطيني وأدت إلى فقدانه الكثير من المواقع المميزة والفرص الثمينة بل ودفعتة إلى الورااء عشرات السنين وحملته أعباء لم يكن من المفترض تحملها .  
إن الساحة الفلسطينية تواجه مشكلات عضوية وتكوينية، فهي حركة تعتمد كثيرا على الخارج والمعادلات الإقليمية والدولية، أكثر مما تعتمد على شعبها؛ بل إن شعبها يعتمد عليها، في الغالب، لتأمين موارده المالية، وحاجاته الحيوية.

على سبيل المثال لا الحصر , فإن قراءة الثورات العربية من خلال "مناظير " حزبية ومن خلال مفاهيم أحادية أدت إلى تشتت القدرة على استثمار هذه الثورات لصالح الشعب الفلسطيني وبات كل طرف يضع حساباته الخاصة ما بين متخوف ومتوجس وما بين متأمل وطامح .  
ثم إن قراءتنا للكثير من الأحداث المفصلية في المنطقة مثل الحرب على العراق والانسحاب من لبنان وقطاع غزة وبروز قوى سياسية جديدة لم ترتق الى مستوى استثمارها.  
قراءة المصالحة الفلسطينية تنطبق عليها نفس القاعدة , فهناك من يخشاها باعتبار انها ستقلص من صلاحياته وامتيازاته وهناك من رأى انها ستفقده القدرة على التحكم في الدفة , ولذا ظلت المصالحة تدور حول نفسها سنوات وسنوات دون ان تتقدم .

باختصار شديد يمكن تلخيص إشكالات المشروع الوطني بما يلي:

- ١- غياب تعريف المشروع الوطني من حيث الهوية والايديولوجيا , فالمشروع الوطني خضع لتعريفات كثيرة ومتشعبة ادخلت المشروع في مناهة بين مختلف الأيديولوجيات والتيارات السياسية.
- ٢- انحسار فلسفة الإجماع الوطني من حيث توفر العقلية الجمعية والعمل المشترك.
- ٣- قراءة معمقة وواعية للاحداث والمتغيرات السياسية بما يخدم رؤية المشروع الوطني.
- ٤- بروز معوقات مثل قيام السلطة الفلسطينية التي استحوذت على مقاليد الأمور في الساحة الفلسطينية وغيبت منظمة التحرير وعدم القدرة على تمييز دورها عن المنظمة مما أدى إلى اختلاط واختلال الأمور.
- ٥- فشل المسيرة السياسية ووقوع الحالة السياسية الفلسطينية تحت ضغوط الحلول الآنية والجزئية.
- ٦- الانقسام الفلسطيني شكل ضربة قاصمة للقدرة على إنجاز مشروع وطني موحد.

### ليس قفزا على البرامج الحزبية

حتى لا يفهم خطأ، فإن المشروع الوطني ليس قفزا على البرامج الحزبية بل هو تجميع وتصحيح وتنقيح

, وبناء على ما كان. هو " طبعة منقحة " للمسيرة الوطنية بغناها الثوري والسياسي. البرامج الحزبية لا يمكن , بتفرقتها وتشرذمها , أن ترسم الخارطة الصحيحة للتحريك بل لا بد من عمل مشترك ورؤية استراتيجية وتكتيكية واضحة المعالم, لأن بعضها منقوص الرؤية وبعضها مجزوء غير مكتمل . بعض البرامج الحزبية تتبنى خيارات أحادية أو وسائل قديمة متهالكة وبعضها الآخر لا يزال يعيش في عوالم الستينات والسبعينات. إن المشروع الوطني يمكن أن "يجبر" العثرات في البرامج الحزبية ويعمل على معالجة القصور فيها , ويمكن أن يخلق منها مزيجا متناسقا متكاملًا .

المشروع الوطني , ببساطة , شديدة , يمثل البيت الذي يجمع القوى السياسية تحت مظلة الدافئة ويوفر ساحة خصبة للعمل الصحيح والموجه . هو يمثل نقطة التقاء للقواسم المشتركة للجميع , ينقح الخلافات ويهدبها , يعزز نقاط الإتفاق ويقويها , يرسم الطريق بوضوح من حيث الأهداف والوسائل والمراحل , يختصر الوقت والجهد ويعطي ضمانة لمدة قرن أو يزيد .

### من خلال بوابة الحوار

كيف يمكن ان نخرج المشروع الوطني إلى النور ؟ ليست هناك سوى وسيلة وحيدة : الحوار . الحوارات الفلسطينية كانت دوما تنصب على معالجة قضايا جزئية أو تجاوز الأزمات , ولم تكن القضايا الاستراتيجية ( فكريا وتنفيذيا ) حاضرة , لذا ظل العمل الوطني متأرجحا بين كتل الأزمات التي عصفت بالحقل السياسي الفلسطيني وظل عرضة للتجادب والشد.لم يعرف الفلسطينيون كيف يميزون بين ما هو استراتيجي ومرحلي , بين ما هو حق وحقيقة , بين ما هو طموح وبين ما هو ممكن , لذا فقد اختلطت الأمور بين السياسي والتاريخي , وبين الأيديولوجي والواقعي .

إن الحوار الفلسطيني غرق في سنواته الأخيرة في معالجة الأزمات السلطوية وفي تفاقم الأزمة بين السلطة والمعارضة وغابت استراتيجية التحرير تماما حتى غدا الحديث عنها ضربا من التمنيات .

لقد قاد غياب القضايا الاستراتيجية إلى استدراج السلطة إلى حلول جزئية وامتيازات بسيطة ووعود مستقبلية ليس لها رصيد كبير على أرض الواقع , في نفس الوقت جر القوى السياسية إلى حلبة الخلافات الداخلية التي استنزفت طاقة كبيرة ووقتا ثمينًا.

وبالرغم من أنه تم الالتفات الى هذه القضايا الاستراتيجية في وقت اشتداد الأزمات ووصول الحالة الفلسطينية إلى طريق مسدود , إلا أن ما تم انجازه كان في إطار تجاوز الأزمات , وظل في سياق العموميات التي تتيح تفسير الأمور بطريقة مفتوحة. والغريب أن كل ما تم الإتفاق عليه لم يجر مجرى التنفيذ والتطبيق , ما يضع علامة استفهام كبيرة حول صحة وواقعية ما تم التوصل إليه , فضلا عن

الفشل في خلق حالة فلسطينية تستند إلى الإجماع الوطني.

إن الحوارات الفلسطينية لم تنجح بسبب الكثير من العراقيل والعقبات التي وقفت أمامها , ومن أهمها , غياب العلاقة المستندة إلى التعايش والانفتاح وتقبل وتفهم الآخر , والتمترس وراء البرامج الحزبية والخوف على المكتسبات السلطوية , فضلا عن قصور الفهم السياسي الذي يصعب الخروج من العقلية الحزبية إلى أفق العمل الوطني . لذا فإن جولات الحوار التي بدأت منذ العام ١٩٩٣ وإلى يومنا هذا لم تنجح في صياغة مشروع وطني يوفق بين مختلف البرامج السياسية أو يراعي التغيرات الكبيرة التي برزت في المنطقة .

إن الحوار الفلسطيني يحتاج إلى عدد من المقومات التي تضمن نجاحه وسيره في المسار الصحيح , ومن هذه المقومات النية الصادقة / والإرادة / الوعي الوطني / القابلية لمفهوم الشراكة / .

النية الصادقة تعكس القابلية والجدية في التفاعل مع القوى السياسية في استخراج المشروع الوطني من بطن التجربة السياسية الطويلة دون شوائب المكتسبات الحزبية والمصالح الفئوية . أما الإرادة فهي التي تعكس القدرة على الاستمرار والمثابرة حتى الوصول إلى الأهداف المرجوة , أما الوعي الوطني فهو من المقومات الرئيسة التي تتيح نشر ثقافة الوعي الوطني الواسعة وليس الثقافة الحزبية الضيقة , والتي تفتح الباب أمام علاقة وطنية راسخة قائمة على الفهم الواسع وهضم التجربة والقدرة على استشراق المستقبل . أما القابلية للشراكة فإنها الجسر المتين الذي يربط بين مختلف القوى السياسية ضمن إطار القواسم المشتركة .

### تحديات كبيرة

إن صياغة المشروع الوطني ليس بالأمر السهل أو الهين , هو سيواجه الكثير من العقبات والتحديات, والتي من أبرزها:

- ١- وجود البرامج الحزبية التي تتناقض في بعض النقاط والمواقف.
- ٢- الحالة الفلسطينية القائمة بما فيها من تعقيدات من حيث وجود السلطة الفلسطينية وقوى معارضة.
- ٣- الانقسام الفلسطيني يمثل عقبة كبيرة أمام صياغة المشروع الوطني.
- ٤- تغير الأوضاع في الساحة العربية والدولية بما يتطلب وضعها في الاعتبار.

### الخروج من الأزمة

لا زالت هناك إمكانية لإعادة صياغة المشروع الوطني على الأركان والأعمدة القوية الراسخة التي لا خلاف عليها بين جميع أطراف العمل السياسي . وهذه الأعمدة تتمثل في :

- ١- تعريف المشروع الوطني.
  - ٢- مبادئ وأسس المشروع الوطني.
  - ٣- المحددات العامة والضوابط التي تحكم المشروع الوطني.
  - ٤- الأهمية والأهداف والمراحل.
  - ٥- أدوات ووسائل المشروع الوطني.
  - ٦- المرجعية والتمثيل.
- وحتى يكون المشروع الوطني مقبولاً من قبل القوى السياسية وقادراً على ترجمة التطلعات الفلسطينية إلى واقع وحقائق فإنه ينبغي أن يتسم بالوضوح والتفصيل واستحضار الواقع بكل تعقيداته والمستقبل بتوقعاته .
- هناك حاجة ماسة أن يشارك في صياغته سياسيون وقانونيون وخبراء في تخصصات أخرى، باعتبار أن القضية الفلسطينية هي محط اهتمام من قبل سياسيين ومفكرين ، حتى يخرج قويا ممكناً قادراً على تقديم إجابات شافية.
- قد تكون المشكلة الرئيسة في تحديد الوسائل والمراحل . هي عقدة صعبة لكن يمكن حلها . إذا اتفقنا على الأهداف الرئيسة وتشخيص طبيعة الواقع القائم بكل توازناته وتعقيداته يمكن وضع قائمة الوسائل بكل سهولة. في حال اختلفنا يمكن أن نخلق حالة من التكامل في وسائلنا . المبدأ الرئيس هو ألا نستثني أي وسيلة تساعدنا على تحقيق أهدافنا . المهم كيف ومتى نستخدمها بطريقة صحيحة .





## آفاق التسوية

القضية ليست قضية يمين ويسار، ولا قضية "تريد أولاً تريد". فإمكانيات التأثير على حكومة كهذه لدفعها نحو تسوية، هي إمكانيات واقعية. لكن لكي تتحقق، هناك خطوات ينبغي أن تتم في ساحات أخرى، العالمية والعربية وكذلك الفلسطينية. والتاريخ الاسرائيلي يشهد على الكثير الكثير من القرارات التي قبلتها حكوماتها مرغمة، وفيما بعد صارت تفتخر بها. ومنها قرارات مصيرية، مثل الانسحاب من سيناء المصرية مرتين والانسحاب من قطاع غزة مرتين والتراجع عن اغتيال خالد مشعل بمداواته بمضاد السم واطلاق سراح الشيخ أحد ياسين، وغيرها وغيرها!!

### نظير مجالي \*

الرئيس الاسرائيلي شمعون بيرس، اشتهر في فترة طويلة من تاريخه القديم بإعطاء إجابات متناقضة على السؤال نفسه. وعلى الرغم من انكشاف هذه التناقضات المرة تلو الأخرى، كان يكرر الخطأ باستمرار، فيقول الشيء ونقيضه في آن. وقد رافقته هذه العادة سنوات طويلة، حتى ظهرت فرقة تمثيل سياسي ساخر في التلفزيون الاسرائيلي وأظهرته بصورة كاريكاتيرية فاضحة. فراح ممثل ما يسأله: هل تؤيد المفاوضات مع ياسر عرفات. فيجيب: "نعم ولا". فيسأله: كيف؟ فيجيب: "نعم لأنني لا أؤيد الحوار مع زعيم الارهاب. ولا لأنني أعرف أن التفاوض يتم عادة مع الأعداء".

وقد استغل حزب الليكود بزعامة اسحق شمير هذا المشهد التمثيلي الساخر في دعايته الانتخابية التلفزيونية، عندما كان بيرس مرشحاً لرئاسة الحكومة عن حزب العمل. واستأجر الليكود لهذا الغرض

---

\* باحث ومتخصص بالشأن الإسرائيلي.

ممثلاً يتقن تقليد بيرس صوتاً وصوراً. وراح يوجه إليه عدة أسئلة في مختلف المواضيع، فيجيب بالجواب نفسه: "نعم ولا". وتحول إلى مسخرة. وسقط طبعاً في الانتخابات. وتعلم الدرس بشكل قاس واصبح يزن إجاباته أكثر.

اليوم، نجد أن الإجابة على طريقة بيرس هي المناسبة للسؤال: هل حكومة بنيامين نتنياهو الثالثة، التي انتخبت في آذار ٢٠١٣، قادرة على إحداث انعطاف في السياسة الاسرائيلية باتجاه عملية سلام في الصراع الاسرائيلي الفلسطيني والصراع الاسرائيلي العربي بشكل عام؟ وإن كانت قادرة، فهل تستطيع بتركيبتها الحالية إدارة مفاوضات صادقة وناجحة من أجل التسوية؟ وإن كانت تستطيع، فهل هي معنية؟ وبالمجمل: هل هناك آفاق واقعية لإحداث اختراق في العملية السياسية يفضي إلى اتفاق؟ قلنا، إن الجواب على طريقة بيرس هو: نعم ولا في آن واحد.

## لماذا لا؟

الشق السلبي من الجواب، نابع مما نعرفه جميعاً عن هذه الحكومة، وبسببه نجد شبه اجماع في الشارع الفلسطيني والاسرائيلي والعربي والعالمي على انها حكومة حرب وعدوان واستيطان. وفي هذا لا يوجد تجن عليها. فالتجربة تدل على ان الحكومات الاسرائيلية في السنوات العشرين الأخيرة لم تفوت فرصة إلا واستغلتها لإجهاض عملية السلام وإبقائها مجمدة في ثلاجة. وتركيبه هذه الحكومة عينياً، تحتوي على كل عناصر التطرف الممكنة، التي تطمح في الأرض الفلسطينية بلا فلسطينيين.

فكل قوى اليمين انضمت إليها، ولم يعد على يمينها أي حزب. في مركزها حزب الليكود، الذي شهد في الانتخابات الأخيرة انعطافاً اضافياً إلى اليمين. فالقادة التاريخيون، أمثال دان مريدور وميخائيل ايتان وبيني بيغن، المعروفون فيه بحرصهم على الحد الأدنى من الديمقراطية والذين تصدوا في حكومة نتياهو السابقة إلى عدد من القرارات المتهورة، سقطوا في الانتخابات الداخلية للحزب. واعتزلوا السياسة. ورئيس الكنيست، روبي رفلين، وهو أيضاً من بقايا القادة الأساسيين الديمقراطيين في اليمين الاسرائيلي، تم عزله بشكل مهين. وأصبح نائباً عادياً في البرلمان. والحزب الثاني المتحالف معه في كتلة واحد، هو حزب "اسرائيل بيتنا" بزعامة أفيدور لبرمان. وهو حزب متطرف بصورة بلطجية، إذ أنه اعتاد على توزيع التهديدات للجميع، من "الجيران الأعداء" وحتى "أصدق الأصدقاء". والحزب الثالث هو حزب "البيت اليهودي"، الذي يرئسه نفتالي بينيت، وهو رئيس سابق لمجلس المستوطنات. وهو يضم أعتى المتطرفين بين المستوطنين. هذه الأحزاب الثلاثة تشكل ٤٣ نائباً في الائتلاف الحاكم، المؤلف من ٦٨ نائباً. والمستوطنون، باتوا ممثلين وذوي نفوذ في الحكومة، أكثر من أي وقت مضى منذ احتلال ١٩٦٧. فهم

يتحكمون بأهم مفاتيح السياسة الاستيطانية: بأيديهم وزارة الاسكان، التي تقر مشاريع البناء وتحدد سلم الأفضليات للمناطق، وبأيديهم وزارة التجارة والصناعة المسؤولة عن تطوير المناطق الصناعية ودعم المشاريع الاقتصادية، ووزارة شؤون القدس وبأيديهم نيابة وزارة الدفاع مع العلم بأن وزير الدفاع، موشيه يعلون، أيضا متطرف ومتعاطف مع المستوطنين وبأيديهم لجنة المالية البرلمانية المسؤولة عن المصادقة على كل المشاريع المالية. ومن هنا فقد بات من شبه المستحيل أن توافق على الشرط الفلسطيني بتجميد البناء الاستيطاني لاستئناف المفاوضات. وحتى العناصر التي تصنف ضمن قوى اليمين الليبرالي في هذه الحكومة، مثل حزب "يوجد مستقبل"، بقيادة يائير لبيد، التي تدعو إلى بذل كل جهد لاستئناف المفاوضات تطرح في خطابها تحفظا مشبوها يقول: "نحن نريد، ولكن رقصة التانغو تحتاج إلى راقصين اثنين". ورئيسة حزب "الحركة"، وزيرة القضاء تسيبي ليفني، التي تسلمت في الحكومة مسؤولية إدارة مفاوضات السلام، تتعرض لضغوط وتحاط بقيود تكبل أيديها، حتى لو أرادت دفع عملية السلام بصدق. وفوق هذا كله ينبغي أن نضيف أن رئيس الوزراء نتنياهو، هو في الأصل شخصية مترددة لا تجيد لغة الحسم في الأمور. يخضع دائما للضغوط. ويستصعب الدخول في مواجهات داخلية. والانتخابات الأخيرة أضعفته أكثر، خصوصا بين رفاقه في الليكود، إذ ان قوته تراجعت كثيرا (تحالفه مع لبرمان هبط في الانتخابات من ٤٢ مقعدا إلى ٣١). والائتلاف الحالي فرض عليه فرضا من طرف لبيد وبينيت، فاضاف نتيناهو إلى الألقاب التي حصلها في تاريخه السياسي لقب من لا يتقن ادارة تركيب الائتلاف.

مع مثل هذه الحكومة، واضح أن الجواب هو: "لا" كبيرة، وأنها ستكون حكومة شلل وفشل. ولكن، هذا الكلام الصحيح والدقيق، لا يكفي لإعطاء صورة حقيقية لوضعية هذه الحكومة. وهو يصلح لمن لا يريد أن يتعب عقله بالتفكير ولا يريد أن يحرك ساكنا للتأثير ولا يريد أن يرهق جسده في العمل ولا يريد أن يفعل ذهنه للإبداع. ومن يتابع الشؤون الاسرائيلية بعمق ويراجع التاريخ الاسرائيلي بجديّة يجد أن هناك مجالا ومجالا كبيرا للتفكير وللتأثير وللتغيير وهناك جوانب عديدة اخرى لا بد من رؤيتها في هذه المعادلة. وهذه الجوانب تجعل الإجابة ايجابية تجاه السؤال: هل هذه الحكومة قادرة وتستطيع أن تحدث الانعطاف.

## لماذا نعم؟

نقول نعم، لأن هذه الحكومة قادرة، بل إنها قد تكون الأكثر قدرة في التاريخ الاسرائيلي على اتخاذ قرار بالتسوية السلمية للصراع. وهي، أي هذه الحكومة، مثل أسوأ حكومات اليمين في التاريخ الاسرائيلي، يمكن أن تغير من سياستها واتجاهها في ظروف معينة وبشكل حاد، حتى لو لم تكن ترغب بذلك. والأمثلة

على ذلك كثيرة، نختار أبرزها:

\*\* حكومة دافيد بن غوريون، احتلت سيناء المصرية وقطاع غزة في العدوان الثلاثي (سوية مع بريطانيا وفرنسا) على مصر في سنة ١٩٥٦، وكان ذلك بمقاييس تلك الحقبة شبيها بالانتصار الذي حققته اسرائيل سنة ١٩٦٧. وبعد الاحتلال عاشت اسرائيل فترة زهو وغرور لا تقل عما نعرفه عنها في سنة ١٩٦٧. وبعث بن غوريون برسالة تحية إلى ضباط وجنود اللواء التاسع في الجيش الاسرائيلي، الذين كانوا يحتفلون بالنصر في شرم الشيخ بحضور جميع أعضاء هيئة رئاسة الأركان، وقرأها لهم باسمه رئيس أركان الجيش، موشيه ديان. وجاء فيها: "سيناء تعود لتكون "مملكة اسرائيل الثالثة"(١). وفي اليوم التالي ، ألقى بن غوريون خطابا في الكنيسة تحدث فيه عن عودة جبل سيناء إلى مملكة اسرائيل هذه التي "تمثل شعور الشعب اليهودي بأنه عاد إلى سيناء، التي تشكل موقعا مركزيا في تاريخ شعب اسرائيل كونها تحوي جبل سيناء" وصاح: "لقد عدنا إلى موقع نزول التوراة، حيث اختير شعبنا كشعب مميز. واسرائيل ستحتفظ لنفسها بقسم من الانجازات الاقليمية طالما لم يتحقق السلام". فصادقت الكنيسة بالاجماع تقريبا على مضمون الخطاب باستثناء كتلة الحزب الشيوعي (٢).

وبعد أقل من ٤٨ ساعة من ذلك الخطاب، أصدر بن غوريون بيانا تراجع فيه عن مضمون خطابه هذا، واعلن ان الحكومة تلقت انذارا سوفيتيا ورسالة ودية ولكن حازمة من الرئيس الأمريكي، دوايت آيزنهاور، وأنها بعد اجتماعين طويلين قررت الاستجابة للإرادة الدولية والانسحاب وباشرت الانسحاب رويدا رويدا في شهر تشرين الثاني ولكن ببطء(٣). وقد أثار هذا القرار موجة احتجاجات شديدة في اسرائيل، دامت عدة شهور، بلغت أوجها في مظاهرات أقيمت في المدن الثلاث الكبرى تل أبيب وحيفا والقدس بمشاركة ١٥٠ ألف شخص ضد الانسحاب (٤)، وقد حاولت حكومة اسرائيل خلال هذه الفترة التهرب من تنفيذ قرارها بالانسحاب والمماطلة في تنفيذه. وعندما انسحبت من سيناء حاولت البقاء في قطاع غزة وأقامت سلطة حكم عسكري وإدارة مدنية، لكنها في نهاية المطاف أتمت الانسحاب أيضا من غزة في ٧ آذار ١٩٥٧ (٥).

\*\* قبل ثلاثة ايام من زيارة الرئيس الأمريكي باراك أوباما لاسرائيل، وتحديدًا في يوم ١٧ آذار ٢٠١٣، تم كشف بروتوكولات قديمة لحكومة مناحم بيغن التي تعتبر أول حكومة يمين متطرف في اسرائيل. وقد تعمدت حكومة بنيامين نتنياهو أن تسمح بنشر هذا البروتوكول السري جدا، لجلسة الحكومة الاسرائيلية التي عقدت في ١٢ آذار سنة ١٩٧٩، وفيها تجلّى خلاف حاد في المواقف بين الدولتين على خلفية المفاوضات المصرية الاسرائيلية.

وكانت هذه الجلسة قد عقدت في وقت كان فيه الرئيس الأمريكي جيمي كارتر يزور اسرائيل من أجل إنقاذ مفاوضات السلام مع مصر، بعد أن كان الرئيس المصري أنور السادات قد هدد بالانسحاب منها.

ففي حينه كانت قد مضت على مؤتمر كامب ديفيد عدة شهور ولكن المفاوضات من أجل تطبيقه تعثرت. وقد حضر كارتر لكي ينقذ المفاوضات. وأمضى ثلاثة أيام في مصر ثم جاء إلى إسرائيل ينقل طلبات السادات، وهي: أن تعرض إسرائيل جدولا زمنيا لانسحابها من سيناء، المقرر بعد تسعة شهور من تلك الجلسة وأن توافق إسرائيل على قدوم بعثة مصرية إلى قطاع غزة لتدير محادثات مع الفلسطينيين المحليين من أجل تطبيق اتفاقية الحكم الذاتي الموقعة في كامب ديفيد. كما كان السادات قد رفض الربط بين اتفاقية السلام وبين بيع النفط المصري لإسرائيل بأسعار مخفضة. وقد عقدت الحكومة الاسرائيلية جلسة استمرت لساعات طويلة وانتهت في الرابعة فجرا. وذهب الوزراء للراحة بضع ساعات وعادوا للاجتماع مرة أخرى، بينما كارتر ينتظر نتائج البحث ويهدد بمغادرة إسرائيل غاضبا (٦).

وحسب بروتوكول جلسة الحكومة الاسرائيلية المذكورة، فإن الرئيس الأمريكي جيمي كارتر اقترب من المواقف المصرية وكان كل مرة يتفق فيها مع الاسرائيليين على شيء ويرفضه السادات يعود ويطره كمطلب أمريكي. ويتضح من قراءة البروتوكول، أن بيغن، شكا لوزرائه من أن الرئيس كارتر يمارس ضغوطا شديدة عليه ويحاول فرض إملاءات عليه بأن يوقع على الاتفاق المقترح، والذي يتضمن تجاوبا مع مطالب السادات "وقع الآن أو لا توقع إلى الأبد"، قال له. وسمح بيغن لنفسه أن يعتبر ضغوط كارتر "وقاحة". وأبلغهم بأنه قال للرئيس الأمريكي: "سيدي الرئيس، نحن نوقع فقط على الأمور التي نوافق عليها. بينما الأمور التي لا نوافق عليها لن نوقع عليها".

وتباهى بيغن بموقفه هذا مع كارتر، وراح وزراؤه يردون بغضب على كارتر. وكان أشدهم حدة الوزير أرئيل شارون، الذي رفض بشدة أي تواجد مصري في قطاع غزة بدعوى أن هذه مقدمة لاقامة دولة فلسطينية. وناقسه في التطرف الوزير لاندوا، الذي أعرب عن رغبته في أن يغادر كارتر إسرائيل في أسرع وقت. فيما قال وزير المالية سمحا إيرليخ انه حتى لو كانت إسرائيل مستعدة للتجاوب مع مطالب السادات التي تبناها كارتر، فينبغي على إسرائيل ان لا تبلغ عن موافقتها الآن، لكي لا يفهم كارتر أن إسرائيل رضخت لضغوطه. وأعربوا عن رفضهم اعطاء جدول للانسحاب من سيناء قبل أن يرسل السادات سفيرا مصرية إلى تل أبيب ويوافق على صفقة النفط.

وقد ارتدع بيغن عندما رأى وزراءه يتمادون على كارتر، واستعان بوزير دفاعه، عيزر فايتسمان ووزير خارجيته، موشيه ديان، ووزير القضاء شموئيل تمير وقادة الجيش، الذين حذروا من إغضاب الرئيس الأمريكي. وأوضحوا أن إسرائيل وافقت على حكم ذاتي للفلسطينيين ولا يجوز عرقلة الجهود الأمريكية في هذا الاتجاه. وهكذا، تمكن بيغن من السيطرة على الموقف واقترح أن يلتقي مع كارتر ويفوض بالتوصل معه إلى حلول وسط. ونتيجة لذلك توصلوا لاتفاق تطبيق كامب ديفيد، الذي تم توقيعه في السادس والعشرين من ذلك الشهر في واشنطن. الاستنتاج هو أنه عندما تريد الولايات المتحدة من إسرائيل شيئا،

تحققه. لا يمنعها اللوبي اليهودي فيها ولا شيء آخر (٧).

وقد حصل وأن تمردت اسرائيل على الإدارة الأمريكية في ظل حكومات اليمين. ففي عهد حكومة اسحق شمير الثانية (١٩٨٨ - ١٩٨٩)، رضخت اسرائيل للإملاءات الأمريكية سنة ١٩٩١ بأن امتنعت عن الرد على اطلاق الصواريخ العراقية. وحسب ديفيد فاينبيرغ، الصحفي الذي التقى شمير عدة مرات وكان شمير يقدره بشكل خاص، حسب قوله، فإن شمير اعتقد أنه برضوخه للأمريكيين في هذه القضية، سوف يحظى بتأييد صامت من الرئيس الأمريكي، جورج بوش الأب، لمشروعه في توسيع المستوطنات في الضفة الغربية. ولكن الإدارة الأمريكية رفضت الاستيطان واعتبرته غير شرعي ولم تتردد في شجبه بكل مناسبة. وقد طرحت هذا الموقف في كل لقاء سياسي اسرائيلي أمريكي. وبعد مؤتمر مدريد للسلام، صار شمير يماطل في مفاوضات السلام الشامل مع العرب ونقل على لسانه القول إنه سيمط هذه المفاوضات عشرين سنة. وعندما قررت إدارة بوش الأب، حجب الضمانات المالية بقيمة ١٠ مليارات دولار التي خصصتها لاسرائيل. وكان لذلك تأثير على سقوط شمير في الانتخابات التالية (١٩٩٢)، التي خسرها شمير لصالح اسحق رابين (٨).

وفي سنة ١٩٩٧ رضخ بنيامين نتنياهو للإرادة الأمريكية، ووافق على الانسحاب من غالبية المناطق في مدينة الخليل (٨٥٪ من المدينة) والانسحاب من حوالي ١٣٪ من مساحة الضفة الغربية في اطار تطبيق اتفاقيات أوسلو، علما بأن نتنياهو كان متشددا ضد اتفاقيات أوسلو من أصلها. وعندما طالبه الرئيس بيل كلينتون (سنة ١٩٩٨) بأن يمضي قدما في تطبيق المرحلة الثانية من اتفاقيات أوسلو (اقامة دولة فلسطينية مؤقتة)، ورفض، وجد نفسه ساقطا في الانتخابات ورئيسا للمعارضة ضد حكومة يهود باراك الفائز في الانتخابات (٩).

### ليس مفروغا منه

إذن، هناك تقاليد لممارسة الضغوط، خصوصا من الولايات المتحدة الأمريكية، بعد تمهيد الأرض لذلك من دول أوروبا. فهذه الدول لا تخفي قناعاتها بأن استمرار الصراع الاسرائيلي يهدد مصالحها ومصالح الغرب كله بالخطر.

لكن الضغط الغربي على اسرائيل لا يتم بشكل أوتوماتيكي ويحتاج إلى شروط عديدة حتى يصبح حقيقة. وأول هذه الشروط هو خلق أجواء ملائمة في الشارع الاسرائيلي تجعل المواطنين مختلفين مع الحكومة ومحتجين على سياستها. وليس صدفة أن الرئيس باراك أوباما، خلال زيارته الأخيرة إلى اسرائيل، رفض أن يلقي خطابه المركزي في الكنيست، واختار القاءه على مجموعة كبيرة تضم ١٢٠٠ من الشباب الاسرائيلي، بهدف مخاطبة الشعب من فوق رؤوس قاداته. وقد لقي خطابه ردود فعل حماسية بشكل مفاجئ، رغم

أن العديد من اقواله لم تكن تروق للأذن الاسرائيلية، فقال مثلا إن "الولايات المتحدة تقف إلى جانب اسرائيل بكل قوتها لحماية أمنها وتعزيز قوتها في الدفاع عن نفسها وفي مواصلة ازدهارها الاقتصادي والعلمي. ولكن لا يوجد لاسرائيل أفضل من السلام لكي تحقق ذلك". وراح يتحدث بإسهاب عن معاناة الفلسطينيين في ظل الاحتلال والاعتداءات التي يتعرضون لها من طرف المستوطنين في الضفة الغربية. وقال: "بعد ايام يحتفل اليهود بعيد الفصح، وهو عيد الحرية. لكن الحرية لا تكون حقيقية إذا تمت على حساب حرية الآخرين..". وتابع: "أنا أعتز بانني أشارك اليهود في هذا العيد بدعوة قادتهم إلى البيت الأبيض. فهذا عيد حرية اليهود من العبودية. وفي السنوات الخمس والستين الماضية، رأينا اسرائيل كدولة لليهود تزدهر وتحيي الصحراء. دولة ديمقراطية مثيرة للاعتراز. وقد حققت انجازاتها الهائلة رغم التحديات والتهديدات. والولايات المتحدة اعترفت باسرائيل بعد دقائق من اقامتها سنة ١٩٤٨. وأقامت معها علاقات وثيقة، ليس فقط بدافع المصالح المشتركة بل بالتقاليد والقيم المشتركة. واليوم بلغنا حدا لم يكن له مثيل في التاريخ من حيث قوة العلاقات. وأنا أثق بأن مستقبلنا مشترك. وأنا عندما أتحدث عن أمن اسرائيل أدرك جيدا الأخطار المحدقة. أعرف كيف عانى اليهود من المحرقة، وكيف يعاني المواطن اليهودي اليوم من خطر الصواريخ الفلسطينية. ونحن نؤيد حق اسرائيل في صد هذا الخطر وغيره. نحن نقف معكم بكل قوة ضد حزب الله وضد ايران، اللذين يهددان أمنكم. وأعدكم بأننا مصرون على أن لا يكون لايران سلاح نووي. من يريد لاسرائيل الدمار، انما يهدد الأرض التي يقف عليها. ولكن، علي أن أقول لكم كصديق حميم قلق عليكم، ثلاثة أمور: أولا السلام ضروري وحيوي، فلا يجوز الاعتقاد بانكم تستطيعون العيش براحة إذا توفرت القوة العسكرية والاقتصادية من دون سلام مع جيرانكم. وثانيا إن السلام هو المسار الأضمن للأمن الحقيقي. الحلم الصهيوي يتحقق فقط بتسوية سلمية على أساس قيام دولة فلسطينية ذات امتداد جغرافي واستقلال وسيادة إلى جانبكم، وإلا فإن هناك خطرا على يهودية اسرائيل".

واضاف أوباما للشباب الاسرائيلي: "أعلم أن هناك عناصر فلسطينية ارهابية تريد دمار اسرائيل. ولكن غالبية الشعب الفلسطيني تريد السلام. واسرائيل مجبورة على الاعتراف بحق الشعب الفلسطيني في تقرير المصير والعدالة. ضعوا أنفسكم مكان الفلسطينيين. انظروا إلى العالم بأعين الفلسطينيين. ليس من العدل أن لا تستطيع طفلة فلسطينية أن تنمو في دولة مستقلة لها. لا يجوز أن تعيش طفلة كهذه في ظل احتلال لجيش أجنبي يتحكم في حياتها وحركتها هي وأفراد عائلتها. ليس من العدل أن يتعرض الفلسطيني لاعتداء من مستوطنين والأمر لا يعالج. الاحتلال والترحيل ليس حلا".

وهنا توجه أوباما للشباب الاسرائيلي بموقف يناقض تماما موقف رئيس الحكومة الاسرائيلية، نتياهو، وينطوي على شيء من التحريض المباشر قائلا: "فقط أنتم تستطيعون تحديد أية ديمقراطية تكون لكم. ولكن تذكروا أنه لا يسمح لقراراتكم أن تؤدي إلى معاناة للفلسطينيين. وكما قال أرئيل شارون: لا يمكن

أن تحافظ على اسرائيل دولة يهودية وديمقراطية وفي الوقت نفسه وتفرض سيطرتك على كل أرض اسرائيل. واعلموا أن لديكم شريكا فلسطينيا مؤيدا بحماس للسلام هو الرئيس محمود عباس ورئيس الحكومة سلام فياض. أنا أومن بهما. والأمر الثالث الذي أريد ان اقله لكم أن السلام ممكن. ممكن. وأنتم الشباب تتحملون مسؤولية عن ذلك. فالسلام يبدأ ليس بالقادة، بل بقلوب المواطنين. وكرجل سياسي أقول لكم إن السياسيين لا يتخذون خطوات ذات مخاطرات، إلا إذا دفعهم المواطنون إلى ذلك. يجب أن تكون أصواتكم أعلى. يجب أن تكون آمالكم سراجا ينير الطريق" (١٠).

لقد كان هذا خطابا فريدا في نظر الاسرائيليين وتقبلوا فيه النقد بشكل عام بارتياح، لكن أوساطا في اليمين الحاكم ابدت امتعاضها. وقالوا إن هذا هو اتجاه جديد يدل على أن أوباما جاد هذه المرة، خصوصا وانه ترك وراءه في اسرائيل، وزير خارجيته، جون كيري، ليباشر في جهود مكثفة وجولات مكوكية مرة كل أسبوعين إلى المنطقة حتى يسد الهوة بينهما في موضوع استئناف المفاوضات.

والحكومة الاسرائيلية الحالية تعرف أنها مقبلة على قرارات مصيرية قريبة، في الموضوع الفلسطيني وفي مجمل قضية الصراع الاسرائيلي العربي برمته. وهناك تسريبات تقول إن كيري ينوي إعطاء غطاء عربي لجهود التسوية، بحيث يكون اساس البحث هو مبادرة السلام العربية، بعد إجراء بعض التعديلات المتفق عليها بخصوص النص النهائي واستباق ذلك بخطوات عربية تجاه اسرائيل تشجعها على تغيير سياستها ووقف تعنتها وازالة عراقيلها للمسيرة السياسية.

والسؤال الأهم هنا هو: هل ستتجاوب هذه الحكومة أم لا؟

### الخطوات العملية

ينبغي أن يكون واضحا من البداية أن هذه الحكومة، بغالبية وزرائها، ستعمل كل ما في وسعها لكي تجهض عملية سلام حقيقية تفضي إلى اتفاقيات سلام تنهي احتلال الأراضي الفلسطينية والعربية وتتيح للشعب الفلسطيني أن يحقق مصيره وسيادته. ولكنها لن تفعل ذلك بشكل مباشر فظ. وستحاول دفع الطرف الفلسطيني إلى قرارات ومواقف واجراءات، تتيح لحكومة اسرائيل أن تبعد عنها الشبهات وتتهمه بالمسؤولية عن تخريب المفاوضات.

وقد سبق وأن اتبعت هذا الأسلوب في الحكومة السابقة بقيادة نتياهو ولبرمان، مستغلة الشرط الفلسطيني بتجميد البناء الاستيطاني قبل استئناف المفاوضات. وكما نعرف، فإن حكومة اسرائيل أبدت ارتياحا من هذا الشرط الفلسطيني. فالمفاوضات بقيت جامدة، لأن الفلسطينيين لا يأتون إليها. والمستوطنات واصلت عمليات البناء من دون عراقيل. وخلال السنوات الأربع لتلك الحكومة بنت ٩٢٠٠



وحدة سكنية جديدة في المستوطنات القائمة في الضفة الغربية وحدها، وزاد عدد المستوطنين فيها لا أقل من ٤٨ ألفا. وينبغي إضافة عدد مماثل للبناء الاستيطاني وتكاثر المستوطنين في القدس الشرقية المحتلة. وسيحاول نتنياهو التفتيش عن حجج أخرى مماثلة، يتحمل مسؤوليتها الفلسطينيون، ليتذرع بها للتهرب من المفاوضات. ولكن الجديد في الائتلاف الحكومي هو أن هناك حزبين أساسيين يرفضان هذا الأسلوب ووضعا في برنامجيهما الانتخابيين بنودا تتحدث عن تفعيل المفاوضات، هما حزبا يائير لبيد وتسيبي لفني (يشكلان معا ٢٥ نائبا من مجموع ٦٨ نائبا في الكنيست). وهناك ٥٢ نائبا آخر في المعارضة معظمهم يؤيدون دفع عملية السلام، وهم: حزب اليهود الشرقيين المتدينين "شاس" (١١ نائبا) وحزب اليهود الاشكناز المتدينين "يهדות هتורה" (٧ نواب)، وحزب العمل (١٥ نائبا) وحزب ميرتس اليساري (٧ نواب) وحزب "قديما" (نائبين اثنين) والأحزاب الفاعلة في صفوف الجماهير الفلسطينية، وهي الجبهة والقائمة العربية الموحدة والتجمع الوطني (١١ نائبا).

إن هذه قوة كبيرة جدا، تمثل نصف أعضاء الكنيست، من دون حزبي شاس ويهدوت هتורה. وإذا تم اقناع هذين الحزبين المتدينين، إضافة إلى حزبي لبيد وفني، فإنهم سيصبحون أكثرية مطلقة تجبر الحكومة على تغيير موقفها. ولا بد من الإشارة هنا إلى أن وسائل الاعلام الاسرائيلية أيضا محسوبة على القوى المؤيدة لعملية سلام والرافضة لإحداث أزمة مع دول الغرب تتسبب في عزلة اسرائيل. وهناك قوى مؤثرة عديدة أخرى، مثل القيادات العسكرية (الحالية والسابقة)، والسلك الأكاديمي والسلك الدبلوماسي ورجال الأعمال وقادة الاقتصاد والمثقفين والفنانين وحتى الرياضيين.

هذه القوى ذات تأثير بالغ على الحياة السياسية في اسرائيل، وهي تحتاج إلى من يفعلها ويجندها. ففي نهاية المطاف، هي التي تكون الرأي العام في اسرائيل وهي تعتبر صاحبة قرار، وقرارها يتغير باستمرار. فالمجتمع الاسرائيلي منفتح. وفي كل انتخابات يأتي بمفاجآت جديدة. في الانتخابات الأخيرة مثلا دخل إلى الكنيست ٤٨ نائبا جديدا (من مجموع ١٢٠ نائبا)، يخوضون العمل السياسي لأول مرة. وهذا يدل على أن نسبة كبيرة جدا من الناخبين الاسرائيليين لا يتعصبون لحزب ما دون غيره، ويمكن التأثير عليهم للانتقال إلى حزب آخر بشكل جماعي. فحزب لبيد حصل على ١٩ مقعدا، مع أنه تأسس قبل حوالي السنة من الانتخابات. وحزب بينيت ضاعف قوته. وقوة حزب "قديما" تقلصت ١٤ مرة (من ٢٨ مقعدا في انتخابات ٢٠٠٩ إلى مقعدين اثنين لا أكثر في الانتخابات الأخيرة، مع أنه خاض المعركة برئاسة شاؤول موفاز، الذي أشغل منصب رئيس أركان الجيش ووزير الدفاع في الماضي القريب).

والطرف الفلسطيني يستطيع التأثير على الرأي العام الاسرائيلي بشكل يزيد بكثير عما يبدو في الظاهر، سلبا وإيجابا. لكن هذا يحتاج إلى إجراء دراسة مهنية علمية معمقة ووضع خطة استراتيجية حكيمة وذكية، وتحتاج أيضا إلى التخلص من كل مظاهر العمل السياسي العشوائي. وهناك عدة أمثلة على هذا التأثير، منها:

في سنة ٢٠١١ جرى لقاء بين ممثلين عن حزب "شاس" وبين فريق فلسطيني من تحالف السلام في رام الله. وزير الأديان يعقوب مارغي، الذي ترأس وفد "شاس" قال معلقا عليه: "عندما تلتقي الناس وتحدث اليهم ندا لند، تبدو الأمور مختلفة. أنا مقتنع اليوم بان هناك إمكانية للتوصل إلى سلام كامل بيننا وبين الفلسطينيين وأن اشد القضايا تعقيدا ستحل بيننا" فسئل: "أيضا في قضية القدس يوجد حل حسب رايك؟". فأجاب: "نعم أيضا قضية القدس" (١١). فإذا كان هذا الحزب، الذي يعتبر يمينا جدا، يتأثر من بضعة لقاءات، يمكننا أن نتصور كيف يمكن التعاطي مع قوى أخرى مؤثرة.

وهناك مثل آخر معاكس. في اسرائيل توجد جماهير فلسطينية تشكل ١٧٪ من السكان. وهم ممثلون بأحد عشر نائبا في الكنيست، جميعهم ينتمون إلى القوى الوطنية. ذات مرة، كانوا يؤثرون بشكل ايجابي على المجتمع الاسرائيلي والسياسة الاسرائيلية لصالح قضية السلام، خصوصا في سنة ١٩٩٢، عندما ساندوا حكومة اسحق رابين، مقابل تعهده بتحقيق المساواة والاعتراف بمنظمة التحرير الفلسطينية وإحداث اختراق في عملية السلام. وقد كان لهذا التحالف تأثير ولو بسيط في سياسة الحكومة. اما اليوم فإن قسما لا بأس به من هذه القيادة يؤثر بشكل سلبي. فبعضهم يزايدون في مواقفهم حتى على منظمة التحرير ويتحول هذا الخطاب إلى سلاح يستخدمه اليمين ضد المصالح الفلسطينية.

ويمكننا إضافة أمثلة عديدة أخرى في الاتجاهين السلبي والايجابي، إذ في بعض الأحيان يكفي إلقاء تصريح غير محسوب أو تصرف غير مسؤول يصبح سكيننا في ظهر المفاوضات الفلسطينية. ومن يريد أن يكون هناك ضغط غربي على حكومة اسرائيل، عليه أن يتقن مخاطبة الغرب والاسرائيليين ويتعلم كيف يكون التأثير على الغرب وعلى الاسرائيليين.

## الهوامش

- (١) دافيد شاحم - كتاب "اسرائيل - ٤٠ سنة" - دار النشر "عم عوفيد" ١٩٩١.
- (٢) بروتوكول الكنيست في ٧ تشرين الثاني ١٩٥٦.
- (٣) دافيد بن غوريون = كتاب "معركة سيناء" - دار النشر "عم عوفيد" - ١٩٥٩ صفحة ٢٢٦.
- (٤) صحيفة "دفار" - تل أبيب - ١٠ شباط ١٩٥٧.
- (٥) موشيه ديان - كتاب "يوميات معركة سيناء" - دار النشر "عم عوفيد" - سنة ١٩٦٦ - صفحة ١٧٧.
- (٦) أمير اورن - صحيفة "هآرتس" - تل أبيب - ١٨ آذار ٢٠١٣.
- (٧) استعراض للبروتوكول - صحيفة "الشرق الأوسط" - لندن - ١٩ آذار ٢٠١٣.
- (٨) ديفيد فاينبيرغ - صحيفة "يسرائيل هيوم" - النسخة الانجليزية - القدس الغربية - ٢ تموز ٢٠١٣.
- (٩) القناة العاشرة - تجارية مستقلة - تل أبيب - ٢٣ أيلول ٢٠١١.
- (١٠) نص الخطاب - صحيفة "هآرتس" - تل أبيب - ٢١ آذار ٢٠١٣.
- (١١) إيلنور ليفي - صحيفة "يديעות احرونوت" - تل أبيب - ٦ حزيران ٢٠١٣.

## أوروبا وفلسطين: بين الاقتراب والمسؤولية

عاطف أبو سيف \*

بذات القدر الذي تحول فيه المشهد الدولي بعد الحرب الباردة إلى القطبية الواحدة وانتهي عصر الثنائية الذي كان سمة الحرب الباردة، بدأت تظهر في مشهد العلاقات الدولية قوى وتكتلات إقليمية نجحت في تقديم نماذج فاعلة من القوة المختلفة التي تترجم نفسها عبر اشتباك وحضور لا يقل أهمية في اطراف الكون. كان ظهور الإتحاد الاوروي الظاهرة الأبرز في ذلك. فالإتحاد الذي بدأ كشركة لإدارة الكربون والفحم بين ست دول في خمسينات القرن العشرين صار في بداية الألفية الجديدة اتحاداً اقتصادياً وسياسياً ذا أبعاد أمنية وعسكرية بين سبع وعشرين دولة. واستطاع ان يفرض نفسه في العالم سواء عبر قوته الناعمة والمعونات الاقتصادية او عبر المساهمة في الوساطة والتدخل لحل النزاع والمساعدات السلمية وربما إرسال الجنود والشرطة للتدخل بالقوة. بالطبع مع صعود نجم القوة الصينية وتعدد القوى الصاعدة ورسوخ قوة أوروبا الجديدة بات المشهد الكوني يتسم بتعدد القطبية رغم هيمنة قطب أعظم على تفاصيل المشهد (١).

ظل الشرق الاوسط منذ لحظات تشكيل المشروع التكاملي الاوروي الساحة الأكثر إغراءً في بحثه عن التنافس والتأثير والحضور لجملة كبيرة من الأسباب يقع أهمها في كتب التاريخ والدين وبعضها في المصالح الاقتصادية والجيواستراتيجية. لقد اتسم بحث أوروبا الصاعدة عن دور يتدخل متزايد في تفاصيل الصراع كما وجدت أن علاقتها مع الجار العربي تكتسب أهمية وألوية في اشتباكاتنا الخارجية. لذا كانت السياسة المتوسطة التي ظهرت في بدايات السبعينات أول تدخل سياسي تتبناه المفوضية الاوروبية.

---

\* كاتب وباحث فلسطيني

ولدت القضية الفلسطينية في رحم الصراع الدولي ووقع الشعب الفلسطيني ضحية موازين القوى ورغبات تلك القوى وتصوراتها وتحالفاتها. ولا يستقيم فهم تطور الصراع ولا تداعياته دون اللجوء للتحليل السياقي لمشهد العلاقات الدولية في كل فترة زمنية مر بها. وربما الأهم منذ ذلك أن تطوير استراتيجية فلسطينية لمواجهة التحديات التي تواجه مصر القضية الوطنية وتوفير مناخات أكثر تشجيعاً على تحقيق التطلعات الوطنية الفلسطينية بحاجة أيضاً لأخذ سياق العلاقات الدولية بعين الاعتبار. فالقضية الفلسطينية ربما لسوء حظ الفلسطينيين ليست فلسطينية بامتياز وهي لم تولد نتيجة طموح أو نزعات فلسطينية بالتأكيد. إن قوى كونية تكالبت وتحالفت لخلق هذا الصراع الدامي الذي دفع الشعب الفلسطيني فاتورة باهظة الثمن نتيجة له. وكان لأوروبا دور كبير في كل ذلك إن لم يكن الدور الأكبر.

وربما دلت النضال الفلسطيني في المؤسسات الدولية للحصول على عضوية دولة في الامم المتحدة بشكل قاطع على اهمية هذا البعد الدولي في الصراع، إلا أنه دلت بشكل أكثر وضوحاً على الدور المحوري الذي يمكن لأوروبا واتحادها أن يقوما به في هذه المؤسسات. فلا تكمن اهمية الأتحاد من أنه يتشكل من 27 دولة بل أيضاً تأثير هذه الدول في بقاع الأرض المختلفة سواء عبر علاقاتها الاقتصادية او ارتباطاتها التاريخية بمستعمراتها السابقة. المؤكد أن الإتحاد ومؤسساته ودوله يقومون بدور هام في هذه المرحلة من مراحل الصراع، وهو دور تصاعدي بدأ متردداً ثم صار أساسياً ومتعدد الجوانب الآن. ولما كان الفلسطينيون يدركون اهمية المؤسسات الدولية وتمكين علاقاتهم مع العالم الخارجي للمساعدة في ذلك فإن فهم طبيعة تطور مواقف الإتحاد الاوروي لما يتمتع به من قوة ونفوذ وكقوة صاعدة ومؤثرة في المؤسسات الدولية تكتسب اهمية في تطوير استراتيجية فلسطينية لتطوير أدوات النضال الدبلوماسي والحقوقية لتعزيز فرص تجسيد طموحات الشعب الفلسطيني. ثمّة قناعة كبيرة بان أوروبا تقدمت خطوات كثيرة للامام فيما يخص الحقوق الفلسطينية، وهي قناعة في جزء كبير منها صحيحة لكنها أيضاً لا تكفي لكي يقال إن أوروبا المسؤولة تاريخياً عن خلق الصراع وصاحبة الطموح الكوني قد قامت بواجباتها. تقترح هذه الدراسة بانه يمكن للفلسطينيين إذا ما فهموا جيداً طبيعة ودوافع وحقيقة المواقف التي طورها الإتحاد الاوروي خلال الستين عاماً المنصرمة ونظروا بعمق لطبيعة علاقاته في ذات الوقت مع إسرائيل يمكن لهم ان يؤسسوا لرؤية عمل سياسية تقوم على كسب المزيد من المواقف والتأييد. إن فهم حقيقة مستوى الفعالية الاوروية تجاه الحقوق الفلسطينية تتطلب كما تقترح الدراسة فهم مجموعة من المحددات والتطورات التي تتفاعل فيما بينها لتعمق فهمنا للدور الأوروي في الصراع وبالتالي فهمنا لمواقف الإتحاد وكيفية توظيفها لخدمة الاستراتيجية الفلسطينية. وتتمثل هذه في التالي:

أولاً، حقيقة المشروع الاوروي وكيف نجحت اوروبا في الخروج من رماد الحرب العالمية الثانية وفرضت نفسها كقوة كونية مؤثرة.

ثانياً، الدور التاريخي لأوروبا في تضييع الحقوق الفلسطينية ودعم إنشاء إسرائيل وتعزيز قوتها على حساب الفلسطينيين.

ثالثاً، تطور مواقف الإتحاد السياسية من المطالب الوطنية الفلسطينية والمحددات والمؤثرات التي دفعت باتجاه التحول الذي تم في تلك المواقف.

رابعاً، دور الإتحاد في عملية السلام في الشرق الأوسط والتحويلات التي طرأت على هذا الدور وانتقال الإتحاد من ممول إلى وسيط فاعل.

خامساً، العلاقات الفاعلة والعميقة التي تربط الإتحاد بإسرائيل على المستوى الاقتصادي والعلمي والتعاون الشرطي والاستخباراتي وتبادل السلاح رغم تراجع التقارب السياسي بين الطرفين.

إن قراءة هذه المحددات والتطورات سيساعد في تفكيك مستوى الاشتباك الأوروبي في الصراع ويساهم في تطوير الوعي الفلسطيني تجاه تطوير استراتيجية للتعامل مع هذا الفاعل الدولي الهام بما يضمن وقوفه أمام مسؤولياته التاريخية والتزاماته الأخلاقية. إن واحدة من أهم مقولات هذه الدراسة أن الإتحاد بات يدعم الفلسطينيين سياسياً ويعزز في نفس الوقت من مقدرة إسرائيل على الهيمنة على الشعب الفلسطيني من خلال العلاقات الحميمة مع تل أبيب في الاقتصاد والتجارة والبحث العلمي وتبادل السلاح والمعلومات الاستخباراتية. وكل هذه القضايا لا يتم الإشارة لها في ظل النقاش حول دور أوروبا الهام في دعم الفلسطينيين سياسياً وربما تمويل بعض مصاريف السلطة كجزء من تمويل السلام.

### أولاً، الإتحاد الأوروبي أكبر من مجرد إتحاد

يعتبر تشكل الإتحاد الأوروبي وصعوده في مشهد العلاقات الدولية قصة نجاح بامتياز لأوروبا التي انهكتها الحروب ودمرتها المدافع والطائرات في حربين كونيتين كانت القارة العجوز مسرحاً لأحداثها الدامية. أوروبا التي شهدت ميلاد عصر النهضة وتطور الفلسفة والعلوم الإنسانية وبزوع فجر العلم والاختراعات المعاصرة وميلاد الدولة الوطنية الحديثة وما ارتبط بها من تطورات سياسية واقتصادية واجتماعية وأدبية وقعت ضحية للنزعات الوطنية المتناحرة وللتنافس الاستعماري البشع وللبحث المحموم عن النفوذ والقوة. وللمفارقة فإن ذات النزعات الوطنية التي قادت إلى مقتل قرابة سبعين مليوناً في الحربين الكونيتين ستكون أول ما يتم البحث عن التنازل عنه مقابل تشييد صرح الوحدة الأوروبية.

لقد تميز تاريخ القوة في العالم بانزياحات في مراكزه عكست الصعود والهبوط في الإمبراطوريات والدول. فلقد ظل مركز القوة في العالم متمركزاً حول ضفاف البحر المتوسط منتقلاً بين شماله (حيث اليونانيين والرومان) وشرقه وجنوبه (حيث العرب) إلى أن انتقل مع الثورة الصناعية وبروز القوة البريطانية

والفرنسية الاستعمارية إلى شواطئ الأطلسي. بعد الحرب العالمية الأولى وبصورة أكثر بعد الحرب العالمية الثانية انتقل هذا المركز إلى الضفة الأخرى من الأطلسي. نتج عن هذا تغير في دور أوروبا القارة الفتاكة التي انهكت الحضارة الحديثة بحروب مدمرة وتراجع دورها قليلاً وانكشمت إلى داخل نفسها وتفككت المستعمرات وعادت أوروبا إلى أوروبا.

بالطبع هذا لم يعن فعلياً فقدان أهمية أوروبا ولكن تراجع هذه الأهمية (٢).

ظهرت مشاريع وحدوية أوروبية مختلفة في الحقبة التي تلت مباشرة رفع الأيدي عن الزناد إلا أنها لم ترق لشكل الوحدة المطلوب. تمثلت هذه في منظمة التعاون والتنمية الاقتصادية OECD (١٩٤٨) (٣) ، ومجلس أوروبا (١٩٤٩) وإتحاد غرب أوروبا (١٩٤٨). بيد أن هذه التشكيلات الكونفدرالية لم تشبع رغبة بعض الساسة الأوروبيين الباحثين عن مستقبل أكثر استقراراً يضمن أن تتحول أوروبا تدريجياً لتكتل اقتصادي وسياسي ودفاعي واحد. كما أنها لم تشكل جسماً موحداً يعبر عن الرغبة في تنسيق جهود الدول الأعضاء. كانت أشبه بـ"لحاف مرقط" لتجمعات مختلفة ومتباينة(٤).

بدأ المشروع الوحدوي الأوروبي بتوقيع اتفاقية عام ١٩٥١ بين ست دول (إيطاليا وفرنسا وألمانيا وبلجيكا وهولندا ولوكسمبرغ) نصت على إنشاء الهيئة الأوروبية للكربون والصلب وعلى حرية انتقالها بين الدول الموافقة الأمر الذي عنى إلغاء الحواجز الجمركية بينها بهذا الشأن مع إلغاء فكرة الحصص. الاتفاقية ألزمت الدول الموافقة على تحويل بعض من سيادتها في بعض الجوانب الاقتصادية سيما المتعلقة بإنتاج الفحم والصلب وتنظيمه إلى ما عرف بالهيئة العليا لشركة الفحم والصلب. هكذا بدأت كرة الثلج حيث ستتطور تلك الأفكار البسيطة في مظهرها لتمس جميع جوانب السيادة الوطنية التي تقع في قلب اختصاص الدولة الوطنية. وستتحول هذه الاتفاقية من اتفاقية اقتصادية تهدف إلى تنظيم عملية إنتاج وتوزيع الكربون والصلب بين ست دولة إلى اتحاد سياسي وامني بين ٢٧ دولة ليشكلوا فيما بينهم أهم وأقوى تكتل اقتصادي في التاريخ المعاصر.

وعبر اتفاقيات مختلفة بدأت الدول الأعضاء في تطوير عمل المؤسسات الأوروبية وانتقلت بها من حيز الجماعة الاقتصادية الأوروبية إلى الاتحاد الأوروبي وتم الشروع في صياغة سياسة خارجية ودفاعية مشتركة وتوسيع صلاحيات المؤسسات المختلفة. شملت هذه الاتفاقية: اتفاقية روما ١٩٥٧، الفعل الأوروبي الموحد ١٩٨٧، اتفاقية ماستريخت ١٩٩٢، اتفاقية أمستردام ١٩٩٧، اتفاقية نيس ٢٠٠١، اتفاقية لشبونة ٢٠٠٧ (٥). يختلف الباحثون في تصنيف نوع القوة الأوروبية الصاعدة إلا أن المؤكد أن أوروبا التي لم تعد القوة العسكرية الأولى في العالم باتت مع نجاح مشروعها الوحدوي تمارس نفوذاً في السياسة الدولية يجعل منها قوة تأثير في تلك السياسة بحيث لم يعد من الممكن تجاهل الدور الأوروبي في القضايا الكبرى الساخنة في الكون. فأوروبا التي استخدمت قوتها الناعمة وقوتها الاقتصادية في الوساطة في الكثير من

النزاعات فيما كانت الولايات المتحدة تلجأ إلى البطش نجحت في جعل نفسها قوة فاعلة ومؤثرة حتى بات البحث عن الدور الأوروبي هاماً في مناقشة أي صراع في اطراف الكوكب. لقد تميز الدور الأوروبي في السياسة الدولية عن الدور الأمريكي مما جعل الإتحاد الأوروبي في بعض الازمات الدولية يبدو صاحب وجهة نظر مختلفة عن واشنطن. لقد أشار روبرت كيجان بأطروحته الشهيرة حول أسبارطية واشنطن مقابل أثينية بروكسل إلى هذه الفروقات ودلالاتها العميقة(٦).

فالأوروبيون ينتمون إلى الإلهة "فينوس" فيما ينتسب الأمريكيون إلى الإله "مارس"، وفيما "فينوس" من عالم النعومة فإن "مارس" إله الحرب يرمي إلى صقورية السياسة الخارجية والعسكرية الأمريكية. وفضيلة فهم كيجان أنه يكشف عن صورة باتت راسخة في الدراسات الأكاديمية حول التمييز والتميز بين السياستين الأمريكية والأوروبية(٧). فالسياسة الأمريكية تركز على القوة العسكرية وتتوافق في اشتباكاتهما الخارجية مع التوجه الهوسبي الشهير بحرب الجميع ضد الجميع فيما أوروبا تلتزم أكثر بالرؤية "الكانطية" التي تركز على الأخلاق والقيم المدنية في ترسيم علاقات الناس ببعض. حيث انتقل الأوروبيون وبعد قسوة حربين كونيتين دارت رحاهما على تراب القارة، من عالم هوبز المحكوم بالقوة، إلى فردوس كانط الغارق بالسلام الأبدي(٨). إن جدلية إسبارطية (أمريكا) مقابل أثينا (الإتحاد الأوروبي) تجد صداها عميقاً حتى في المواقف السياسية التي يتبناها الطرفان من القضايا الكونية الشاملة. لكن المؤكد أن أوروبا الأثينية صارت قوة ذات حضور وفعالية في كل نواحي الكون وباتت تستخدم مستويات متعددة من القوة في تحقيق هذا الحضور تبدأ بالدعم المالي والتأثير وتنتهي بإرسال الشرطة والمشاركة بالجيش.

### ثانياً، بين الدور التاريخي لأوروبا والمسؤولية المشتركة

ارتبطت أوروبا بعلاقات قديمة مع المنطقة العربية تعود إلى العصور الأولى لظهور الحضارة حين كانت قوارب الفينيقيين تمخر عباب البحر المتوسط إلى شواطئ أوروبا الجنوبية ولم يتوقف الأمر بعد ذلك على الغزو المتبادل بين الجيران حول ضفاف البحر بل امتد إلى التأثير والتأثير في مجالات العلوم والآداب والفنون المختلفة للدرجة التي يصعب فيها قراءة تاريخ أوروبا دون أن يتم ذكر هذا التلاقح المثمر والميرير في مرات مع الشرق. وللمفارقة فإن هذا الخصم المتمثل في الشرق سيشكل صورة النقيض عن القارة التي تبادل معها مواقع القوة والضعف والنفوذ. وعليه فإن أي قراءة للعلاقة الراهنة بين الإتحاد الأوروبي والمنطقة العربية لن تستقيم دون إلمام عميق بهذه العلاقة وتبعاتها وبواطنها. لا يقتصر الأمر على غزوات ومعارك دامية بل أيضاً إلى إرث مشترك وتأثير متبادل وانتقالات حضارية متوازية لكن غلب عليها كما هو شأن السياسة دائماً مظهر القوة وتجسدها التي كان لأوروبا سبق كبير فيها في القرون الخمسة الماضية منذ عصر النهضة الأوروبية وعصر الاستعمار الذي ستقع المنطقة العربية ضحية له

وستجد نفسها ساحة من ساحاته منذ وطأ نابليون ارض مصر والشام. نسيج متداخل جعل من الدور الاوروبي في المنطقة وفي قضاياها سمة بارزة لتلك العلاقة.

وبكلمات سريعة فإن ثمة دوافع كثيرة تحكم علاقة أوروبا بالمنطقة تمتد من البعد التاريخي إلى الجانب الديني والثقافي المسيحاني وتنتهي بالمصالح الجيوستراتيجية والاقتصادية. هذه المصالح جعلت من وجود أوروبا وتدخلها في المنطقة بكل صراعاتها من القضية الفلسطينية إلى الربيع العربي ضرورة اوروبية بحتة. لقد حكمت هذه السيرة التاريخية وتلك المصالح هذه العلاقة بين دول الإتحاد الاوروبي وبين المنطقة العربية منذ فجر المشروع الوحدوي الأوروبي وظلت تترك أثرها على مستقبل تطورها. فأوروبا القارة التي ورثت الإمبراطورية العثمانية في المنطقة العربية لم تقتسم فقط المنطقة العربية وتعيد رسم حدود الدول بينها كما فعلت في أفريقيا وفي مناطق أخرى من العالم بل إنها ستساهم في تحقيق واحد من اخطر المشاريع في المنطقة المتمثل في خلق دولة لليهود على أرض فلسطين وتمكين هذه الدولة ورعايتها. سيظل هذا الدور هاماً ليس لطبيعته سواء كان مادياً وعسكرياً وقانونياً وغير ذلك بل إلى طبيعة النتائج التي ترتبت عليه من حيث التغيير في الخارطة السياسية للمنطقة وضياح حقوق شعب بكامله، وجعل المنطقة التي شهدت بزوغ فجر الحضارة وميلاد الاديان والتلاحق الثقافي والمعرفي ساحة صراع دموي طويل الأجل. لقد شكل دعم أوروبا والقوى الاوروبية الكبرى للمشروع الاستيطاني في فلسطين التدخل الابرز الذي سيرك أثره على شكل المنطقة وازماتها. بهذا فإن الدور الاوروبي في تطور احداث الصراع الدموي الذي فرض على الفلسطينيين حين صودرت أرضهم وطردها منها هاماً ولا يمكن تجاهله. لقد بدأ هذا التدخل منذ مساعدة الهجرة اليهودية إلى فلسطين في نهايات القرن التاسع عشر وتمظهرت بشكلها الأبرز في فترة الإنتداب البريطاني لفلسطين وصدور وعد بلفور عام ١٩١٧ وبعد ذلك تشجيع الهجرة اليهودية إلى فلسطين وتقديم يد العون لها من قبل السلطات الانتدابية البريطانية وما تلا ذلك من قيام دولة إسرائيل على انقاض الشعب الفلسطيني الذي ترك فريسة للعصابات الصهيونية مع انسحاب قوات الانتداب البريطاني في مايو ١٩٤٨. بيد ان مساهمة أوروبا تواصلت بعد قيام إسرائيل بمد الدولة الجديدة بالسلاح والعتاد التشيكي والفرنسي ومؤازرتها في المحافل الدولية. لا يمكن بأي حال من الاحوال تخيل قيام دولة إسرائيل دون استعادة هذا الدور الهام الذي قامت به القوى الاوروبية. وعليه لم يكن تدخل هذه القوى أساسياً فقط بل إنه تواصل وكان مرتكزاً لمواصلة اشتباك الإتحاد الأوروبي الناشئ مع المنطقة(٩).

إن واحدة من اهم الحقائق بشأن علاقة الإتحاد الاوروبي مع المنطقة العربية أنه بالقدر الذي رغب الساسة الاوروبيون في ستينات وسبعينات القرن العشرين ان يتجاهلوا القضية الوطنية الفلسطينية بوصفها صراعاً هامشياً فإنهم سيدركون أن هذا الصراع يشكل مفتاح علاقتهم مع العرب وأنه لا يمكن لهم التقدم في تلك العلاقة الجوارية مع العرب دون الاقتراب أكثر من جوهر هذا الصراع والمتمثل في



## الحقوق الوطنية الفلسطينية.

لقد وجدت أوروبا أن الاقتراب من الجار العربي يعني بالضرورة أن يتم الالتفات أكثر للقضية الفلسطينية. وإن نظرة لتطور مسار العلاقة الأوروبية العربية منذ المحاولات الأولى التي تمت لنسج علاقة مشتركة مع الكيان الأوروبي الصاعد في الستينات سيكشف عن عمق تأثير الصراع العربي الإسرائيلي في مستقبل هذه العلاقة. فحرب عام ١٩٧٣ وما نتج عنها من وقف ضخ النفط لدول أوروبا مثلاً، نتج عنها واحد من أهم البيانات السياسية التي أصدرتها في وقتها المفوضية الأوروبية وشكلت تطوراً هاماً في الموقف الأوروبي. إن مثل هذا التحليل ينسحب على الحوار العربي الأوروبي الذي انطلق بعد ذلك وعلى الشراكة الأوروبية المتوسطة وعلى سياسة الجوار الأوروبية أو على مشروع أوروبا من أجل المتوسط. لقد كان الصراع والقضية الفلسطينية في قلب أي علاقة أوروبية جماعية مع المنطقة العربية وساهم هذا ليس في قرع جرس الإنذار ليس لأوروبا فقط بل أيضاً عزز من فرص استفادة الفلسطينيين من هذه المكانة. وهو ما يقترح ضرورة إعادة الاعتبار إلى التنسيق الجمعي المشترك مع الدول العربية فيما يتعلق بالعلاقة مع الإتحاد الأوروبي وعدم ترك حيز التفاعل للعلاقات الثنائية التي تبدو في ظاهرها نفعية وربما مادية لكنها على المستوى السياسي تشكل نقطة ضعف في خاصرة الدبلوماسية الفلسطينية، وهذه قضية أخرى. إن فهم هذا الدور والبحث عن إعادة احياء المقولات الثقافية والأخلاقية خلف المساهمة الأوروبية في الكارثة الفلسطينية بجانب تفعيل التشبيك العربي العربي في موازاة العلاقة مع الكيان الأوروبي الموحد من شأنه أن يخلق مساحات أكبر، يتم استثمارها في خارطة العلاقات الدولية، تحقق منجزات أكبر للعرب وللفلسطينيين.

وقد يكون من نافل القول التذكير بأن أوروبا التي اقتربت أكثر من الحقوق الوطنية الفلسطينية لم تزل أكثر قرباً من إسرائيل مما قد يبدو على السطح. وإن واحدة من أكثر مفارقات العلاقات الدولية سخرية في المنطقة القول إن أوروبا أقرب للفلسطينيين فيما الولايات المتحدة أقرب للإسرائيليين. وبالقدر الذي تقوم به واشنطن بدور هام في مسيرة أحداث الصراع المعاصرة وفي دعم إسرائيل فإنه من باب سوء التقدير التقليل من طبيعة ومثانة العلاقات التي تربط دول الإتحاد الأوروبي ومؤسساته مع إسرائيل. وإن دراسة هذه العلاقة أو الشراكة الناعمة بين الإتحاد الأوروبي وإسرائيل يمكن لها أن تكشف لنا عن عمق مساعدة بروكسل لتل أبيب بأشكال لا تقل عن تلك المساعدات والتسهيلات التي تحظى به الأخيرة من واشنطن. تأسيساً فإن البحث في كنه المواقف السياسية الأوروبية تجاه الصراع وخاصة تجاه الحقوق الوطنية الفلسطينية ليس بحاجة لتأصيل فقط بل أيضاً بحاجة لتطويره عبر مقولات ومدخلات معرفية تتشعب ليس من الأحداث السياسية بل أيضاً ومن طبيعة تلك الأحداث ومسبباتها ونتائجها وتنتقل من قراءة للمصالح الوطنية ولطبيعة ونسيج العلاقات الدولية مستفيدة من تطور هذه العلاقات ومظهراتها الجديدة.

### ثالثاً، تطور مواقف الإتحاد من الصراع

شهدت السنوات الثلاثين الماضية تحديداً بعد إعلان البندقية الشهير انزيحات كبيرة في مواقف الإتحاد الاوروبي تجاه القضية الفلسطينية تمثلت في تبني مؤسسات الإتحاد للكثير من المواقف التي اقتربت بشكل واضح من المطالب الأساسية للفلسطينيين خاصة بعد تبني الفلسطينيين لحل الدولتين بحيث تكون الدولة الفلسطينية على الأراض الفلسطينية المحتلة عام ١٩٦٧. ومن المؤكد ان التبني الجماعي لمؤسسات الإتحاد لهذه المواقف عكس حقيقتين متناقضتين في ذات الآن حين تعلق الأمر بالممارسة. ففيمما، أولاً، تشكل مؤسسات الإتحاد الموقف الجماعي المتفق عليه بين الدول الأعضاء فإنها لا تعكس بالضرورة التزاماً مطلقاً من هذه الدول بالقرارات الجماعية. ومرد ذلك طبيعة القرارات المتعلقة بالسياسة الخارجية وفق اتفاقية ماستريخت ناهيك عن دور النصح الذي اتصفت به تلك القرارات قبل تلك الاتفاقية. ثانياً، رغم ذلك فإن هذه المواقف ورغم تأثرها بالعلة الكبيرة التي عانت منها السياسة الخارجية الموحدة للإتحاد إلا أنها تركت أثراً واضحاً على مكانة القضية الفلسطينية في المجتمع الدولي وفتحت آفاقاً كبيرة للحراك الدبلوماسي الفلسطيني منذ وطأت قدما ياسر عرفات قصر الإليزيه وقصور الرئاسة في مدريد وغيرها. لقد أصبح الفلسطينيون طرفاً فاعلاً في تقرير مواقف الدول الاعضاء ومؤسسات الإتحاد بخصوص الصراع المزمع في الشرق الاوسط. إن ما اسماه الراحل خالد الحسن بـ"دبلوماسية المواجهة" (١٠) سجل فيه الفلسطينيون اختراقاً واضحاً لصالح تغيرات هامة في مواقف الإتحاد عززت من مشروعية مطالبهم وساهمت في دفع هذه المطالب قدماً في المحافل الدولية.

إن فهم كيفية التعاطي مع الإتحاد الاوروبي تتطلب أيضاً فهماً معمقاً للآلية التي تطورت فيها مواقف الإتحاد من القضية الفلسطينية منذ نشوئه حتى اليوم إذ ان هذه المواقف لم تكن كلها دفعة واحدة او نتيجة لحدث ما او تشكلت نتاج تفكير وتدبير بل هي نتيجة امتزاج مجموعة من العوامل والاحداث والمواقف تداخلت فيها كما هي طبيعة الحال السياسة مع الاقتصاد مع الدبلوماسية والنقاش الثقافي والقانوني وكانت مدعومة دوماً بنضال فلسطيني دؤوب مسنود بدعم عربي ومؤازرة من القوى التقدمية الإنسانية في اوروبا. لم تقف اوروبا التي ساهمت بفعالية في الكارثة الفلسطينية دفعة واحدة ولم يبق ضميرها فجأة بعد غفوة بل إن نظرة من عين الطائر للأحداث التي تلت النكبة الفلسطينية تكشف كيف تم ركن الملف الفلسطيني جانباً في الممارسة السياسية الفردية والجماعية في اوروبا ولم يكن ينظر للقضية الفلسطينية كقضية سياسية بل هي قضية مجموعة من اللاجئين الذين يجب البحث عن أفضل السبل من اجل توطينهم حيث يعيشون وبالتالي تنتهي تبعات الحرب الإسرائيلية العربية.

## تطور مواقف الإتحاد الاوروي من القضية الفلسطينية

إن نظرة خاطفة على مواقف المؤسسات الوردوية الوردوية كما على مواقف الدول الأعضاء قبل خمسين عاماً وعلى موقفها الآن يقول لنا بوضوح بان ثمة تطوراً كبيراً وهاماً حدث على هذه المواقف. وهو مرة اخرى تطور تراكمي وتحقق بفعل الكثير من العوامل والمؤثرات وكان له اثر بارز في طبيعة العلاقات الدولية المتعلقة بالصراع كما سنرى. كانت المواقف الاولى الصادرة عن اوروبا في الخمسينات والستينات تتأسس على الجانب الإنساني فالقضية الفلسطينية هي قضية لاجئين يجب ان يتم النظر إليهم بعين العطف والرأفة وتقديم المعونة لهم فيما تدعم الآن القوى الوردوية الكبرى مثل فرنسا وإيطاليا طلب فلسطين للحصول على عضوية دولة مراقب في الأمم المتحدة. كما أن الدول الوردوية كافة تجمع الآن سياسياً على أن الحل الامثل للصراع المزمع في الشرق الاوسط يتمثل في الاعتراف بحق الشعب الفلسطيني في تقرير مصيره وإقامة دولته المستقلة وحل كافة القضايا العالقة. بالطبع على ان تعيش هذه الدولة بأمن وسلام بجوار دولة إسرائيل بمعنى ان تكون هذه الدولة وفق اتفاق سلام مع إسرائيل. ربما كان ديغول أول زعيم اوروي يقوم باستدارة هامة في الموقف تجاه إسرائيل حين اوقف تصدير السلاح إلى إسرائيل عقب حرب ١٩٦٧ وادخل تطورات هامة على المواقف السياسية الفرنسية تركت أثراً على الموقف الوردوي الجمعي نظراً لثقل فرنسا في القارة. لم يقيم ديغول بموقف كبير لدرجة تبني المواقف السياسية الفلسطينية والعربية لكنه كشف عن بصرية ستقود بعد ذلك إلى تبني الوردويين لهذه المواقف وإن بدرجات وعلى مراحل.

بجانب ذلك يمكن تتبع جملة من الاحداث والعوامل والتغيرات التي تركت أثرها على تحول الموقف الوردوي. وتشمل:

(١) النضال الوطني الفلسطيني بعد انطلاقة الثورة الفلسطينية حيث لم يعد الشعب الفلسطيني مجرد لاجئين بل هو شعب يناضل من أجل حريته المسلوبة. من بين أشياء كثيرة فإن حالة الاشتباك بين إسرائيل والفلسطينيين مست في بعض جوانبها المصالح الوردوية كما أن المدن الوردوية كانت ساحة لبعض حالات الاشتباك خاصة الاغتيالات السياسية.

(٢) النفط وحرب أكتوبر شكل نقطة هامة فخلال حرب ١٩٧٣ كانت نسبة اعتماد اوروبا على النفط العربي تصل ٨٥% وساهم الحظر العربي في دفع اوروبا إلى تبني مواقف اقرت فيها بالحقوق الفلسطينية. كتبت صحيفة لومانيتيه "أن المشكلة هي ان إسرائيل تحتل وتتوسع وعلى أوروبا ان تغطي نفقات الاحتلال والتوسع. وبعبارة أخرى انه لكي تزدهر إسرائيل ينبغي على أوروبا ان تعود إلى عصر الشموع والدراجات" (١١).

(٣) كما أن حاجة أوروبا للشروع في حوار مع العرب من خلال الحوار العربي الأوروبي كشف لأوروبا أهمية القضية الفلسطينية إذا أرادت تطوير علاقاتها مع جيرانها العرب. فأوروبا التي رأت في الحوار قنوات اقتصادية اضطرت في كل بيان ختامي وامام إصرار الشركاء العرب للإشارة للقضية الفلسطينية. شاركت قيادات فلسطينية في الحوار ضمن الوفد العربي المشترك مثل نعيم خضر كما أن ممثل منظمة التحرير احمد صدقي الدجاني كان يقود الوفد العربي(١٢).

(٤) الدبلوماسية العربية والفلسطينية ساهمت في توضيح المواقف الفلسطينية وفتحت نقاشاً جدياً مع القوى السياسية الأوروبية خاصة اليسارية منها بهدف استقطابها لصالح دعم المطالب الفلسطينية. تركز ذلك على توضيح الرواية الفلسطينية ودحض الرواية الإسرائيلية. التواصل مع وسائل الإعلام عزز من انزياح الرأي العام الأوروبي باتجاه نقد المقولات الإسرائيلية المقولبة عن الصراع.

(٥) إلى جانب ذلك فإن سياسات الحكومة الإسرائيلية بحق الفلسطينيين في الضفة الغربية وقطاع غزة والنضال اليومي للشعب الفلسطيني في التصدي لسياسات إسرائيل التعسفية بحقه فضح المزاعم الإسرائيلية، فإسرائيل تصادر أراضي المزارعين وتقتلع الأشجار وتعتقل الاطفال. عزز ارتفاع صوت خطاب حقوق الإنسان من رفع وتيرة النقد السياسي لإسرائيل. ساهمت احداث مفصلية في فضح صورة إسرائيل ربما أهمها حرب ١٩٨٢ ومذبحة صبرا وشاتيلا والانتفاضة الفلسطينية الاولى ونقل وكالات الأنباء وشاشات التلفزة العالمية لصورة الجنود الإسرائيليين يكسرون أطراف الأطفال والشيوخ الفلسطينيين. قادت هذه إلى مجموعة من الانزياحات في مواقف الإتحاد يمكن تلمس اهمها وفق التصاعد الزمني:

(١) تقرير شومان ١٩٧١ الذي تبنته الجماعة الأوروبية بتوصية من وزير خارجية فرنسا موريس شومان احتوى اشارات لعدم جواز امتلاك أراضي الغير بالقوة، وطالب بانسحاب القوات الإسرائيلية من الأراضي التي احتلتها. وذكر التقرير القرار ١٩٤ كأساس لحل قضية اللاجئين ورأى أن التسوية يجب ان تتم باجراء استفتاء شعبي حر بين السكان وتدويل القدس. من المؤكد ان هذا الموقف كان هاماً ومتقدماً في حينه مقارنة مع المواقف الكلاسيكية الأوروبية المعهودة في ذلك الوقت.

(٢) لكن الأهم منه كان بالطبع إعلان بروكسل عام ١٩٧٣ الذي جاء نتيجة سياسة منع ضخ النفط العربي خلال حرب أكتوبر. ورغم أن الإعلان طالب بانسحاب إسرائيل من المناطق التي احتلتها عام ١٩٦٧ إلا أن قيمته الأساسية أنه أول وثيقة أوروبية تشير إلى الحقوق المشروعة للشعب الفلسطيني التي يجب اخذها بعين الاعتبار في أي تسوية دون ان يحدد البيان نوع هذه الحقوق.

(٣) فقط بعد ذلك بست سنوات أي في إعلان لندن ١٩٧٧ سيقوم الأوروبيون بتحديد هذه المطالب المشروعة للفلسطينيين بحصول الشعب الفلسطيني على وطن وفي التأكيد على هويته الوطنية حيث

نصت الفقرة الثالثة من الإعلان أن الجماعة مقتنعة بأن "حل النزاع في الشرق الأوسط لن يكون ممكناً إلا إذا تجسد على أرض الواقع الحق المشروع للشعب الفلسطيني في إعطاء هويته الوطنية تعبيراً فعلياً وهو تجسيد لا بد من أن يأخذ بالاعتبار ضرورة (وجود) وطن للشعب الفلسطيني" (١٣).

(٤) رغم ذلك لا يزال إعلان البندقية هو التطور السياسي الأهم تجاه الحقوق الفلسطينية حيث ستشكل المواقف التي وردت فيه عصب المواقف السياسية الأوروبية بعد ذلك. صدر البيان عام ١٩٨٠ ونص على عدم جواز احتلال أرض الغير بالقوة، وعلى ضرورة إجراء مفاوضات كأساس للحل واعتبار مرجعية ذلك القرار ٢٤٢ والتأكيد على أهمية القدس في الصراع. وعلى وجوب حل القضية الفلسطينية، التي هي ليست مجرد قضية لاجئين، حلاً عادلاً واحترام حقوق الشعب الفلسطيني وممارسته لحقه في تقرير مصيره كاملاً. والأهم من ذلك المطالبة بإشراك منظمة التحرير الفلسطينية في التسوية المستقبلية واعتبارها طرفاً في المفاوضات. بالطبع فتح الإعلان الباب أمام منظمة التحرير لكي تقيم علاقات وثيقة مع الدول الأوروبية. (٥) مع تأزم عملية السلام على إثر الإصرار الفلسطيني على إعلان دولة من طرف واحد مع انتهاء الفترة الانتقالية عام ١٩٩٩ أصدر القادة الأوروبيون خلال اجتماعهم في مارس ١٩٩٩ في برلين بياناً رفض الخطوات الاحادية من الطرفين ودعا إلى تمديد الفترة الانتقالية واستئناف محادثات الحل النهائي. لكن الإشارة الأهم في البيان كانت للحق الفلسطيني في تقرير المصير بما يشمل حق الفلسطينيين في دولة وان الإتحاد يسعى لتحقيق ذلك. كانت هذه المرة الأولى التي يتم الإشارة فيها إلى حق الفلسطينيين في دولة وهو ما عزز من القبول الدولي بفكرة الدولة الفلسطينية خاصة بعد ذلك في خطاب بوش في الامم المتحدة فيما عرف برؤية بوش.

ترافق كل ذلك مع انشغال الإتحاد الأوروبي في دعم عملية السلام بين الإسرائيليين والفلسطينيين من خلال الدعم المالي لمخرجات العملية في البداية وبعد ذلك من خلال التدخل كوسيط في عملية التسوية إما بشكل منفرد عبر الممثل الخاص أو من خلال الرباعية الدولية.

#### رابعاً، الإتحاد الأوروبي وعملية السلام

منذ البداية رغب الإتحاد الأوروبي أن يقوم بدور فاعل في عملية السلام في الشرق الأوسط. كانت عملية السلام الوليدة حديثاً نتاج مرحلة ما بعد الحرب الباردة وتفكك مجتمع القطبين وانتصار المنظومة الغربية التي كانت دول الإتحاد الأوروبي في قلبها. حدثان ترافقا مع هذا ترجمتا ظهور أوروبا كقوة ذات أثر في مشهد العلاقات الدولية تبحث عن دور لها في القضايا الساخنة. فمن جهة مع تراجع المنظومة الاشتراكية باتت الدول شرق الأوروبية تخطب ود بروكسل تطلب أن تدخل النادي الأوروبي وهو ما

توفر لها بفضل ما عرف بمعايير كوبنهاجن التي تحدد شروط ومراحل دخول الدول من أوروبا الشرقية للإتحاد، بل إن بروكسل وفرت دعماً مالياً سخياً من أجل تطوير اقتصاديات تلك البلدان حتى تصبح قادرة على مواكبة الاقتصاد الأوروبي. وفعلاً تمت أكبر عملية توسع في تاريخ المشروع التكاملي الأوروبي بدخول عشرة دول للإتحاد عام ٢٠٠٤. عكس هذا صورة أوروبا الموحدة كقوة تتوسع وتقدم نماذج نجاح يحتذى بها ويسعى إليها. ترافق هذا مع سعي الإتحاد لتوسيع مجال التكامل إلى مجالات السياسة الخارجية والأمن بعد توقيع اتفاقية ماستريخت التي حددت السياسة الخارجية والأمن كأحد أعمدة الإتحاد الثلاثة. إن النجاح في المجالات الاقتصادية والاجتماعية والقضائية فتح الباب تدريجياً للبحث في نقل العمل السياسي المشترك من مجال التشاور والتنسيق إلى السياسات المشتركة. بات واضحاً أن الإتحاد الأوروبي صار قوة كونية يعتد بها وليست مجرد عملاق اقتصادي وأن "الفرديوس الأوروبي" باستعارة توصيف كيغان ليست محدودة الفعالية في التعاون الاقتصادي والتنظيم والتبادل التجاري.

كل هذا حدث في ذات اللحظة التي كان الصراع في الشرق الأوسط يشهد لأول مرة في تاريخه إطلاق عملية سلام شاملة في المنطقة تضم كل الأطراف عبر مؤتمر مدريد للسلام. نجح الإتحاد الأوروبي تراكمياً في أن يثبت نفسه فاعلاً مؤثراً في تلك العملية. في البداية كان حضوره رمزياً واقتصر على أن يكون منظم الأطباق في حفلة تديرها واشنطن حيث كان الممول لكل نشاطات عملية السلام فيما يقوم البيت الأبيض بإدارة العملية. هذا الدور اعتبر في الأوساط الأوروبية تقزيماً لاحتمالات التدخل الأوروبي في خاصته الجغرافية وحول ضفاف شواطئه الجنوبية والشرقية. ولم تعد مقولة أن واشنطن تقرر وبروكسل تدفع مقبولة، كما أن بروكسل لم تعد تقنع بدور الصراف على تكاليف الحفلة. من المؤكد أن إسرائيل كانت وراء الممانعة في تدخل الإتحاد في أي وساطة وتسوية لسببين رئيسيين. يتعلق الأول بفهم إسرائيل لطبيعة العملية السلمية التي ترفض أن تأخذ أي بعد دولي حتى لا تقع تحت ضغط المجتمع الدولي والطرف الوحيد الذي تقبل وساطته هو الولايات المتحدة بسبب مواقف واشنطن المعهودة. والسبب الثاني هو حقيقة امتعاض إسرائيل من مواقف الإتحاد السياسية وقلقها من التعبيرات الصريحة للقادة الأوروبيين دعماً للحقوق السياسية الفلسطينية بجانب قلق إسرائيل من النزوع الأوروبي للاستناد للمرجعيات الدولية كأسس لحل الصراع فيما تفضل إسرائيل التفاهات الثنائية التي تتجاوز تلك المرجعيات. واقتصرت في البداية المشاركة الأوروبية في المفاوضات متعددة الأطراف.

مع تقدم عملية السلام لم يعد العملاق الاقتصادي الأوروبي يقبل أن يظل قرماً سياسياً كما يقترح مايكل سميث Michael Smith (١٤). فقد بدأت بروكسل في التدخل في بعض قضايا الوساطة عبر ممثلها الخاص لعملية السلام وبعد ذلك بعد دخولها في الرباعية الدولية. قام الممثل الخاص بدور هام في الوساطة من أجل توقيع اتفاق الخليل عام ١٩٩٧ مثلاً. ونشط دور الإتحاد أكبر في الفترة التي تلت تجسد

عملية السلام بعد اندلاع انتفاضة الأقصى حيث حاول الإتحاد تقديم بعض نماذج الوساطة مثل التواجد الشرطي على معبر رفح البري بعد الانسحاب الإسرائيلي من قطاع غزة.

لقد مكنت عملية السلام الإتحاد من إطلاق واحد من أكبر مشاريعه في السياسة الخارجية والمتمثل في عملية الشراكة الأورومتوسطية أو ما يعرف بعملية برشلونة عام ١٩٩٥ التي فتحت آفاقاً جديدة من التعاون بين دول الإتحاد والجيران في الشرق والجنوب والتي ضمت البلدان المشاطئة للبحر المتوسطية بجانب الأردن وهذا عنى بالضرورة أن تلك العملية جمعت حول طاولة واحدة إسرائيل مع جيرانها العرب. احتوت برشلونة على مكونات اقتصادية وسياسية وسعت من تدخل الإتحاد في المنطقة الأكثر سخونة في العالم وطمحت لإقامة منطقة تجارة حرة في غضون عشر سنوات. ورغم عدم تحقيق برشلونة لكثير من أهدافها إلا أنها شكلت حجر الزاوية في تطوير سياسات الإتحاد تجاه حوض المتوسط بعد ذلك والتي كان آخر طبعاتها "إتحاد من أجل المتوسط" (١٥).

بعد ذلك شهدت السنوات التي تلك العدوان الإسرائيلي على غزة في نهاية ٢٠٠٨ وبداية ٢٠٠٩ توتراً كبيراً في العلاقة السياسية بين تل أبيب وبروكسل. عارض الإتحاد الحصار على غزة رغم موقفه من حكومة حماس هناك وارتفع الخطاب الحقوقي النقدي على مستوى الرأي العام كما في التصريحات الرسمية. وستصل اللحظة إلى ذروتها في دعم القوى الأوروبية للتوجه الفلسطيني للأمم المتحدة والتصويت الصادم بالنسبة لإسرائيل من قبل بعض الدول الأوروبية الكبرى التي لم تعارض بل في أحسن الحالات امتنعت مثل ألمانيا. وباستثناء التشيك فإن كل دول الإتحاد صوتت بصورة إيجابية مع الطلب الفلسطيني إما مع أو ممتنعة. لقد فشلت الدبلوماسية الإسرائيلية في تأمين ما أسمته الدوائر الإسرائيلية بالأغلبية الأخلاقية الراضة للطلب الفلسطيني والمتمثلة في الدول الديمقراطية الغربية. وأوصى ستة وعشرون مسؤولاً أوروبياً سابقاً في نهاية ٢٠١٠ بمعاقبة إسرائيل إذا واصلت اعاققة عملية السلام وطالبوا بتجميد تطوير العلاقة معها ونصحوا بارسال بعثة لمراقبة ما يحدث في القدس من سياسات تحاول تغيير وجه المدينة. ضمت قائمة الموقعين على الرسالة خافيير سولانا ورومانو برودي الرئيس الأسبق للمفوضية وللوزارة الإيطالية ورئيسة إيرلندا السابقة ماري روبنسون والرئيس الألماني السابق، ريكارد فون فايتسسكر، ورئيس الوزراء الإسباني السابق، فليبي جونزاليز. كما طالب القناصل الأوروبيون العاملون في القدس ورام الله في يناير ٢٠١١ بتشجيع وجود مركز تنسيق لمنظمة التحرير في القدس الشرقية واستضافة بعثات الإتحاد الأوروبي التي لها مكاتب أو مساكن في القدس الشرقية بانتظام مسؤولين فلسطينيين مع زوار كبار من الإتحاد الأوروبي وتجنب الحاجة للأمن والبروتوكول الإسرائيلي. وأوصى القناصل بتعزيز تحويل القدس إلى عاصمة فلسطين كأمر واقع بغض النظر عن وجهة نظر إسرائيل (١٦).

## خامساً، العلاقة مع إسرائيل: اترك السياسي جانبا

في موازاة هذا التحول في مواقف الإتحاد السياسية فإن علاقاته الاخرى مع إسرائيل كانت تسير في خط تصاعدي استفادت منه إسرائيل في تمكين هيمنتها على الشعب الفلسطيني بل واستغلت عوائد العلاقات الاقتصادية والعلمية والامنية في مصادرة حقوق الشعب الفلسطيني. ويمكن لمسح سريع لمكونات العلاقة الاوروبية مع إسرائيل بعيداً عن تطور المواقف السياسية التي ازعجت تل أبيب ان يكشف كيف أنه وبعداً عن التصريح اللفظي فإن الإتحاد الأوروبي لم يترجم، بأي حال، التغيرات في مواقفه السياسية على مجمل علاقته مع إسرائيل. فالمطالبة بإنهاء الاحتلال لم يتم ربطها باستفادة إسرائيل من المشاريع العلمية المشتركة مع الإتحاد لغايات عسكرية وأمنية تعزز هذا الاحتلال. بل إن قضية الصادرات الإسرائيلية من المستوطنات استغرقت سنوات طوال، على وضوحها، قبل ان يتمكن الإتحاد من اتخاذ قرار.

في المجال الاقتصادي بدأت إسرائيل منذ العام ١٩٦٤ في تشبيك علاقات اقتصادية مع مؤسسات الإتحاد عبر اتفاقية تجارة غير تفضيلية تطورت في العام ١٩٧٠ إلى اتفاقية تجارة تفضيلية وبعد ذلك وقعت عام ١٩٧٥ اتفاقية التجارة والتعاون العام التي كانت واحدة من أهم ما وقعته إسرائيل في تاريخها من اتفاقيات اقتصادية منحت صادراتها افضلية في دخول الأسواق الأوروبية مع اعفاءات من الجمارك وتشجيع للاستثمار. وواصلت تلك العلاقة النمو عبر بروتوكولات تعاون مختلفة واتفاقيات شراكة خاصة التي دخلت حيز التنفيذ العام ١٩٩٥ وصولاً إلى خطة العمل التي تحكم العلاقة بين الطرفين منذ العام ٢٠٠٤. تجارياً الإتحاد الأوروبي أكبر مستورد للبضائع الإسرائيلية وثاني مورد للبضائع لها بعد الولايات المتحدة. احتلت إسرائيل في العام ٢٠١٠ المرتبة ٢٦ في قائمة الدول التي يستورد منها الإتحاد بنسبة ٠,٧٪ من مجمل وارداته والمرتبة ٢٣ في قائمة الدول التي يصدر لها بنسبة ١,١٪ من مجمل صادراته. ثنائياً تبقى ألمانيا الشريك الأول لإسرائيل من بين دول الإتحاد السبعة والعشرين تتبعها بلجيكا وإيطاليا وهولندا وبريطانيا وفرنسا. كما تستفيد إسرائيل والقطاع الخاص فيها من قروض ميسرة يوفرها بنك الإستثمار الاوروبي منذ العام ١٩٨١ (١٧).

في المجال العلمي إسرائيل اهم شريك غير اوروبي في مشاريع الإتحاد العلمية ومن شان الكشف عن ضخامة التعاون بين الطرفين في المجالات العلمية ان يكشف عن عدم جدية مواقف الإتحاد السياسية. تشارك إسرائيل في أهم وأضخم مشروع علمي يطلقه الإتحاد الاوروبي المعروف بـ"برنامج الإطار للبحث والتطوير التكنولوجي" "EU Framework Programme for Research and Technological Development" حين وقعت اتفاقية دخول البرنامج في دورته الرابعة عام ١٩٩٦ لتصبح أول دولة غير أوروبية عضو فيه. تصل قيمة المشاريع التي تستفيد منها إسرائيل في دورة البرنامج السابعة (٢٠٠٧-٢٠١٣) ٧٠٠ مليون يورو كما تتوقع إسرائيل أن تصل قيمة استثماراتها في البرنامج حتى عام ٢٠١٣ إلى ٥٠٠ مليون يورو (١٨).



كما تشترك إسرائيل منذ ٢٠٠٤ في البرنامج الأوروبي لخدمات الفضاء المعروف باسم جاليلو وهو نظام يركز على مجموعة من شبكات الستالايت والأقمار الصناعية المرتبطة بنظم تحكم أرضية. وإسرائيل عضو في اللجنة المشتركة التي تدير نشاطات البرنامج. والمشروع ذو الغاية السلمية يحمل آفاق استخدامات أمنية عديدة حيث أنه يوفر قاعدة بيانات مهولة حول الأماكن، تتبع الأشخاص ووسائل المواصلات البرية والبحرية والجوية وهو ما قد تطمح إسرائيل إلى استخدامه في هيمنتها على المنطقة (١٩).

وأصبحت إسرائيل عام ٢٠٠٠ عضواً في برنامج EUREKA المخصص لتطوير التعاون في الصناعات التكنولوجية عبر تمويل للنشاطات الحكومية والخاصة بل حظيت برئاسة البرنامج في الفترة بين بداية تموز ٢٠١٠ ونهاية حزيران ٢٠١١ وهي الفترة التي احتفل فيها البرنامج باليوبيل الفضي له بمرور ٢٥ عاماً على إطلاقه. كما تستفيد إسرائيل من برنامج التنافس والاختراع المخصص لدعم المشاريع المتوسطة والصغيرة الهادفة إلى تطوير الاختراع بما في ذلك في القطاعات الاقتصادية وتوفير فرص أفضل للخدمات المالية ويعمل على تشجيع استخدام تكنولوجيا المعلومات والاتصالات وتطوير مجتمع المعلومات.

ومنذ العام ٢٠٠٨ تستفيد الشركات الإسرائيلية من تمويل البرنامج لتطوير اختراعاتها ومبادراتها التطويرية المختلفة مما يوفر لها العوائد الاقتصادية وينعكس على الاقتصاد الإسرائيلي وفرص تكامله مع اقتصاديات الدول الأوروبية. وترتبط إسرائيل بعلاقة مميزة مع وكالة الفضاء الأوروبية وهي عضو التعاون الأوروبي المشترك في العلوم والتكنولوجيا.

ولا تقتصر الاستفادة الإسرائيلية من برامج الإتحاد العلمية على الجانب العلمي والعائد الاقتصادي بل إن مجمل الاستفادة الإسرائيلية يذهب باتجاه الاستخدامات العسكرية. ليس هذا فحسب بل إن إسرائيل شريك مباشر للإتحاد في بعض المشاريع الأمنية والعسكرية وتستفيد مالياً منه في تطوير برامجها الخاصة في ذلك. وكما دائماً فإن إسرائيل العضو غير الأوروبي الوحيد في برنامج البحث الأمني الأوروبي (ESRP) (The European Security Research Programme) وتشارك إسرائيل في عشرة من أصل ٤٥ مشروعاً صنفها الإتحاد كأبحاث أمنية سيقوم على تمويلها. وتحظى بأكبر نسبة مشاركة من بين الدول غير الأعضاء في الإتحاد ضمن البرنامج. وتشمل هذه مشروع "استكشاف التهديدات الأمنية المتنامية الناجمة عن استخدام التكنولوجيا الناشئة" و " تطبيقات إبداعية وغير مألوفة للاستجابات الأولية". وهي مشاريع لاستخدامات الاستخبارات العسكرية وتجميع المعلومات وتحليلها. وتشترك إسرائيل في برنامج "فرونتكس Frontex" المتعلق بالأبحاث الخاصة بأمن المناطق الحدودية. كما تستفيد شركات إسرائيلية تصنع معدات للجيش الإسرائيلي من مشاريع تمويلية يقدمها الإتحاد (٢٠). الصناعات الجوية الإسرائيلية وحدها شاركت في خمسين مشروعاً مولها الإتحاد منها مشروع "كابيكون CAPECON" الخاص بتطوير الاستخدامات المدنية والاقتصادية لنظم الطائرات بدون طيار الفعال (٢١).

وهي عضو في الجمعية الأوروبية للبيولوجيا الجزيئية منذ ١٩٦٤. وترتبط إسرائيل بعلاقة متينة مع المجلس الأوروبي للأبحاث النووية المعروف اختصاراً بـ ( CERN ) منذ ١٩٩١ وتطورت إلى مرتبة مراقب خاص عام ٢٠٠٩ وثمة وعود بحصولها على عضوية المجلس الكاملة.

وتشارك شركة موتورولا الإسرائيلية في برنامج التحكم والمراقبة الذي يموله الإتحاد الأوروبي لتوفير خدمات الإنذار. وتساهم شركة "إليت للنظم" الإسرائيلية في تطوير طائرات بدون طيار للاستخدام المدني ضمن مشروع أوروبي مشترك. كما أن الدول الأوروبية تتبادل تجارة السلاح ومشاريع تطويره مع إسرائيل. وهذا لا يحرك ساكناً في مؤسسات الإتحاد الذي لا يتردد في إدماج إسرائيل في برامجه العلمية التي تسخرها إسرائيل لصالح تطوير معدات مزدوجة الاستخدام لغايات مدنية وعسكرية، كما تربط الإتحاد بإسرائيل علاقة متينة في مجال التعاون الشرطي والقضائي والمعلوماتي والتعاون في مجال الحرب على الإرهاب. وهذا يوفر لإسرائيل مساعدة كبيرة في ممارسة انتهاكها لحقوق الشعب الفلسطيني.

### سادساً، هل حقاً تتقدم أوروبا تجاه فلسطين!!!

يبدو هذا السؤال إشكالياً إذ أنه يحمل في طياته استنكاراً لفكرة باتت شائعة بأن أوروبا أكثر قرباً للفلسطينيين وهي مقولة بحاجة لفحص إذا ما وضعت على طاولة التشريح. فربما الأصح القول إن أوروبا باتت أقرب للفلسطينيين من السابق ولكن عند الفحص فإن أوروبا لم تقترب من الحقوق الفلسطينية بقدر مساهمتها في إضاعة هذه الحقوق وبقدر اقترابها من إسرائيل.

دلل التحليل السابق لتطور مواقف الإتحاد السياسية ولمكونات علاقته المختلفة مع إسرائيل أنه وبخلاف الشائع فإن علاقات الإتحاد الاوروي مع إسرائيل لم تشهد تراجعاً كما يمكن ان تقترح التصريحات الإعلامية والتقارير الصحفية. بل إن القراءة السابقة لمكونات هذه العلاقة كشفت عن مفارقة عجيبة في ذلك؛ فكلما تقدم الإتحاد سياسياً في تبني المطالب الفلسطينية فإنه دأب وحرص على تطوير علاقاته مع تل ابيب على كافة المستويات. انعكس هذا في تطور التبادل التجاري وتعميق العلاقات الاقتصادية والعلاقات في مجال البحث العلمي ومجال التسلح. يكشف هذا عن عجز أوروبا في فهم كيف تتناقض هذه السياسات الاقتصادية والعلمية والعسكرية التي يتبناها تجاه إسرائيل مع مواقفه السياسية أو كيف تعمل حتى على تقويضها. ففي الوقت الذي يطالب بإنهاء الاحتلال فإن إسرائيل تسخر جزءاً من علاقاتها العلمية مع الإتحاد الاوروي من أجل تطوير السلاح الفتلك التي تصادر بقوته حرية الفلسطينيين. أيضاً فيما كان الإتحاد الاوروي يطالب بوقف الإستيطان كانت كبريات الشركات التجارية العاملة في المستوطنات تتمتع بضائعها بالامتيازات التفضيلية التي تُمنح للمنتج الإسرائيلي وفق اتفاقية الشراكة بين تل ابيب وبروكسل.

يساعدنا هذا التفكير المتحلل من نشوة العواطف، في تطوير استراتيجية فلسطينية ورؤية سياسية خارجية تساهم أكثر في دفع المطالب الفلسطينية خاصة أن واحدة من أهم ساحات الصراع الأساسية الآن وفق العمل السياسي الفلسطيني تتمثل في المحافل الدولية حيث لأوروبا دور وتأثير كبيران. فالإتحاد الأوروبي وخلال سنوات طويلة امتدت لعقود ادخل الكثير من التغيرات على مواقفه السياسية ونجح في الاقتراب اكثر من المطالب الفلسطينية لكنه في الوقت ذاته عمل على تعزيز علاقته مع إسرائيل وما كان يعطيه بيد كان يأخذه بالآخرى. بالطبع في ظل الإجحاف الدولي بحق الفلسطينيين فإن أي اقتراب كانت تقوم به بروكسل حتى لو كان ضئيلاً كان ينظر إليه بوصفه إنجازاً فلسطينياً وكان هذا صحيحاً ولم يزل. لكن ما تقترحه هذه الدراسة ان ثمة الكثير الذي يجب العمل عليه من اجل تعزيز المقولات السياسية الفلسطينية حتى لا يظل الفلسطينيون يركضون في مسافة ضيقة ويتوهمون أنهم يقطعون مسافات مهولة. مثلاً إن النظر إلى سجل التصويت في الامم المتحدة وإلى تاريخ تصويت الدول فيما يتعلق بالقضية الفلسطينية والقرارات المرتبطة بها يمكن ان يصيبنا بخيبة أمل في تراجع دعم بعض الدول للحقوق الفلسطينية وتلك قضية أخرى.

لكن ما يمكن تعلمه من ذلك ان ثمة حاجة دائماً لتطوير مواقف وعلاقات على أسس علمية ووفق خطط ورؤى ولا يمكن للفعل السياسي المباشر والآني ان يحقق الكثير من النفع إذا لم يكن ترجمة لفكرة عميقة ومقولة فكرية تتأسس على فهم لديناميكية الصراع ومواقف الأطراف منه. من هنا فمواقف الإتحاد الأوروبي الهامة التي يعتبر تبني بروكسل لها تقدماً لصالح الفلسطينيين وانتصاراً لدبلوماسيتهم يجب أن ينظر لها من زاوية اوسع يتم خلالها قراءة شبكة العلاقات الاوروبية الإسرائيلية وطبيعة الاشتباك الاوروبي في الصراع منذ لحظة تفجره بشكل عام ومنذ تشكيل نواة الإتحاد الاوروبي بشكل خاص.

فهم وتفكيك هذه الجدلية وهذا التناقض القائم بين المواقف السياسية وبين العلاقات الاقتصادية والعسكرية والعلمية يساهم في تطوير مقولات الفلسطينيين السياسية في علاقتهم مع الاوروبيين حيث ان قوة هذا الدعم السياسي تتلاشي أمام قوة تلك العلاقات، وبالتالي تصبح أوروبا مطالبة أكثر بالتقدم ليس باتجاه تبني مواقف أكثر ايجابية لصالح الفلسطينيين بل العمل على تحقيق تلك المواقف من خلال الضغط على إسرائيل بحيث يتم ربط تقدم العلاقات في المجالات المختلفة بموافقة إسرائيل على مواقف الإتحاد السياسية. مرة اخرى ثمة دور هام يمكن للمجتمع المدني وللدبلوماسية العامة ولحركات المقاطعة ان يقوموا به في ذلك. إن حجم مسؤولية اوروبا عن الكارثة الفلسطينية كبير كما أن الدور المنتظر منها في المنطقة كبير، كما أن مصالحها العربية اكبر من كل ذلك وعليه فهي مطالبة أكثر بأن تلتزم بروح القانون والحرية والحقوق التي تأسس عليها مشروع التكامل الاوروبي لا ان تظل ضحية الابتزاز الإسرائيلي وخرافة الدولة الضعيفة في بحر من العداة والكراهية.

## خلاصة وتوصيات

تشير الأرقام والبيانات التفصيلية إلى هذا التناقض في مواقف الإتحاد الاوربي السياسية تجاه الصراع وممارسته وإدارته لعلاقاته مع إسرائيل. ففي الوقت الذي تطورت فيه تلك المواقف إيجاباً لصالح الحقوق الفلسطينية وانتقل الإتحاد من تعريف القضية بأنها ازمة لاجئين إلى الإقرار بكون هؤلاء شعباً بحاجة لدولة، تعمقت أيضاً علاقاته الاقتصادية والعلمية والامنية مع إسرائيل بما يتعارض مع فرص وممكّنات تحقيق هذه الدولة. وإجمالاً ثمة ملاحظات ثلاثة يمكن لها ان تكشف عن العلة في الموقف الاوربي ويساعد فهمها في تطوير استراتيجية فلسطينية تنطلق ليس من ردات الفعل والعواطف بل من القراءة الفكرية والعلمية لطبيعة مواقف وعلاقات أوروبا مع المنطقة.

أولاً، وكما دلت النقاش السابق فإن ثمة فصل واضح يقوم به الإتحاد الاوربي بين مواقفه السياسية وبين علاقته مع إسرائيل وربما في إشارات نادرة صدرت عن بعض القوى اليسارية الاوربية فلم تظهر مطالب جدية تربط تطور هذه العلاقة بالتزام إسرائيل برؤية الإتحاد السياسية. الفصل بين المسارات لا يعطل فقط تحقيق ما يعتقد الإتحاد انه الرؤية الأصوب لحل الصراع والقائمة على حل الدولتين بل أيضاً يهدد استقرار المنطقة الذي يقع في صلب مصالح أوروبا الحيوية.

فإسرائيل تستمتع بمزايا الاتفاقيات التفضيلية التي تربطها بأوروبا وتجعلها عضواً فعلياً في الإتحاد دون ان يقع عليها عبء الالتزام بأي من التزامات الدول الأعضاء. وهي غير مطالبة من قبل بروكسل بأي شيء مقابل هذا السخاء الذي تلقاه في التعاون العلمي والمزايا التي تمنح لبضائعها في التبادل التجاري. لم يسجل إلا حالات نادرة تم خلالها تدخل الإتحاد لاتمام صفقات تعاون عسكري، خاصة، بعد أن تقوم مؤسسات المجتمع المدني ونشطاء حقوق الإنسان بخلق قضية رأي عام مثلما حدث عند توقيع عقود مع شركات تساهم بشكل مباشر في نشاطات الجيش في الضفة الغربية وغزة مثل شركة موتورولا التي تقوم ببناء السياج الأمني حول المستوطنات وشركة "إلبيت لبناء النظم" التي تساهم في بناء الجدار والصناعات الجوية الإسرائيلية. مثلاً عجز البرلمان الأوروبي عن فرض حظر على التعاون العسكري مع إسرائيل بعد عدوان إسرائيل على غزة عام ٢٠٠٨-٢٠٠٩. يذهب ديفيد كورنن David Cornin في أطروحته الشهيرة في كتابه للقول إن الإتحاد الأوروبي ليس طرفاً عادلاً ونزيهاً للصراع بل هو يمول الاحتلال ويدعم تطور صناعاته الحربية كما يقويه على خصومه الفلسطينيين(٢٢).

ثانياً، من خلال استعراض مواقف الإتحاد السياسية حتى موقفه من التصويت في الأمم المتحدة نتبين أن أوروبا ما زلت تؤمن فقط بالحل المتفق عليه بين الفلسطينيين والإسرائيليين. كان هذا واضحاً في إعلان برلين الشهير كما في عجز دول الإتحاد عن اتخاذ موقف موحد بشأن التصويت لصالح فلسطين. فالدولة الفلسطينية يجب ان تكون وفق اتفاق سلام مع إسرائيل وهو ما يعني رهن عملية السلام وإحقاق

الحقوق الفلسطينية المشروعة التي يقر بها الاتحاد برغبة إسرائيل. وبكلمة أخرى وأد أي فرصة لتحقيق السلام. على المجتمع الدولي أن يملك الجراءة ليقول لإسرائيل بان ثمة عالم تضبطه قواعد ونظم عليها أن تحترمها، وأنها ملزمة بقوة القانون بفعل ذلك. فإسرائيل لم تدخر جهداً في إحباط أي عملية تسوية لا تتوافق مع اهوائها لذلك فإن منطق الإتحاد الاوروي بضرورة ان يكون أي حق من حقوق الفلسطينيين خاصة حقهم في الدولة والاستقلال وممارسة السيادة مربوطاً بموافقة إسرائيل وبتوافق معها يعني إعطاء شرعية للجهود الإسرائيلية لتعطل هذا الحق بل وإكساب إسرائيل المزيد من مداخل القوة في النظام الدولي لممارسة هيمنتها على الشعب الفلسطيني لإدراكها أن القوى الدولية لن تقوم بفرض أي حل عليها. لذا فهي في حل من أي ضغط جدي ناهيك عن أي عقوبات محتملة.

ثالثاً، مازال التاريخ يصب زبته على ماكينه الوعي الاوروي تجاه إسرائيل. فالاخيرة تبرع في ايقاد الذاكرة الاوروية وتعديها بالمحرقة وآلام اليهود على يد اوروبا. ويمكن فهم كيف يتم استبعاد أي فرصة لمعاقبة إسرائيل تحت جرس إنذار تلك الذاكرة. لكن هذا في حد ذاته يحمل جملة من المغالطات يكمن اولها في أنه يأتي على حساب الآلام الفلسطينية والحقوق الوطنية للشعب الفلسطيني وثانيها أن أحداً لا يطالب أوروبا بمحاربة إسرائيل بل بأن تلتزم إسرائيل بالقانون الدولي وضوابطه. وعليه فهو يعني أن لدى إسرائيل عذر مسبق لانتهاك القانون الدولي والاخلال بكل النظم والمواثيق الدولية. إن ابعدها ما وصلت إليه اوروبا خلال السنوات الستين الماضية من عمر الصراع لم يكن أكثر من تلطيف مواقفها تجاه الفلسطينيين. فالخط البياني للمواقف الاوروية يدل على تصحيح بسيط تجاه إقرار الحقوق الفلسطينية التي كانت تنتكر لها اوروبا بل وساهمت في ضياعها، ولا توجد مناطق كثيرة في هذا الخط البياني تدلل على تراجع في علاقات بروكسل بتل أبيب.

إن أي مداخله فلسطينية ونقاش فلسطيني مع اوروبا يجب ان ينطلق من اطروحة المسؤولية التاريخية التي يقع على كاهل اوروبا محوها والتكفير عنها وإن تناسي هذا الجانب في النقاش من شأنه أن لا يضعف فقط المقولات الفلسطينية بل إنه يجعل تدخل اوروبا في الصراع كتدخلها في ازمة الاكراد وهذا ينافي الحقيقة. فأوروبا تتحمل مسؤولية كبرى عما جرى للشعب الفلسطيني من حيث مسؤوليتها التاريخية عن اقامة دولة إسرائيل او عن صمتها على المجازر التي ارتكبت بحقه على يد العصابات وبعد ذلك الجيش الإسرائيلي وبسلاح اوروي. إن قيمة هذا تكمن في ان ما تقدم عليه أوروبا من خطوات باتجاه انصاف الشعب الفلسطيني لا يرقى إلى حجم الظلم الذي اوقعته عليه وساهمت فيه. يقول علماء التنمية إن التنمية حق للدول النامية على الدول الغنية التي امتصت خيراتها في لحظات شبابها ونهضتها وبالتالي عززت من الفجوة الحضارية مع تلك الدول لصالحها. وبذات القدر فإن ما تقوم به اوروبا للشعب الفلسطيني حتى الآن لا يصح الخطأ التاريخي الذي ارتكبه بحقه ولا يقلل

من وقعه وأثره على مصير هذا الشعب. إن إحياء مثل هذه المداخلة من شأنه ان يعزز المطالب بدور اوروبي اكثر حزمًا اتجاه إسرائيل وسياساتها التي تأسست على النفع والمساعدة التي ساهمت بها أوروبا لها. وفي ذلك لا بد من إشراك النخب المعرفية والمجتمعية في هذه المداخلة خاصة عبر تعزيز علاقات المجتمع المدني الفلسطيني مع نظيره الاوروبي من اجل الكشف عن زيف المواقف المترددة التي تتخذها الدول الاوروبية والتي لا ترقى إلى مستوى العقوبات على الجرائم والمخالفات. وفي ذلك يمكن لحركات المقاطعة ان تقوم بدور اكبر من خلال تعزيز المنطلق الاخلاقي والمسوغ التاريخي لشرعة حملات المقاطعة والانتقال بها من مربع الدبلوماسية العامة إلى الدبلوماسية الرسمية. إن قوة ومكانة أوروبا في الكون هامتان كما ان الدور الذي قامت به أوروبا في تضييع الحقوق الوطنية الفلسطينية ليس أقل أهمية وإن تصحيح الخطأ التاريخي لا يمكن ان يقتصر على المساعدات الإنسانية لأن هذه حق من حقوق الشعوب النامية تعويضاً عن فترات الاحتلال بل إن جوهر ومكمن الخطأ كان سياسياً ويقع على أوروبا بما تملكه من قوة ان تعمل على تصحيحه.

ثمة أصوات في أوروبا باتت اكثر قناعة بضرورة ان يتجه الإتحاد لدعم تجسيد المطالب الفلسطينية بغض النظر عن وجهة نظر إسرائيل وموافقتها. ويقع على الفلسطينيين الضغط باتجاه تطوير وجهة النظر تلك والضغط من اجل تبنيها. فالدولة الفلسطينية التي يعتقد الإتحاد بأنها الطريق الأنسب لحل الصراع الدموي في الشرق الاوسط يجب أن تفرض فرضاً على إسرائيل في حالة مواصلتها لرفضها قبول الحل السلمي. ثمة شكوك في أن تعمل حكومة نتنياهو الثالثة التي شكلها بائتلافه مع يائير لبيد ونفتالي بينيت على استعادة عملية السلام بل إن السمة الابرز فيها هو عدم رغبتها في الخوض في القضايا الشائكة. حتى لو رغبت الحكومة الإسرائيلية في ذلك فإن الخطوط العريضة المتفق عليها بين الكتل الائتلافية تجعل فرصة السلام معدومة. هناك اجماع إسرائيلي واضح ضد تفكيك الكتل الاستيطانية وضد اخلاء المناطق الشرقية للضفة وضد حق العودة (٢٣). وبعبارة وردت على صفحات التواصل الاجتماعي فإن المعروض على الفلسطينيين هو "دولة دايت" بلا جيش وبلا حدود وبلا قدس وبلا أرض حتى.

إن تجسيد الحقوق الفلسطينية لا يعني ان الفلسطينيين نزعوا إلى الحلول احادية الجانب بل إن إصرار إسرائيل على مصادرة هذه الحقوق هو الاحادية بعينها. من هنا فإن الإتحاد مطالب بأن يدعم الخطوات الفلسطينية على مستويين. الاول في المحافل الدولية خاصة ان ثمة معارك دبلوماسية كثيرة في انتظار الفلسطينيين لنيل عضوية المؤسسات الدولية وما يترتب على ذلك من حقوق للفلسطينيين عليهم ان يمارسوها ولا ينتظروا كثيراً املاً في عروض جديدة من إسرائيل. إن سلة العروض الإسرائيلية لم يبق فيها إلا قشر البيض أما البيض فقد تكسر منذ زمن طويل. المستوى الثاني أن يتعامل الإتحاد مع المناطق الفلسطينية بوصفها أراضي الدولة الفلسطينية وأن وجود إسرائيل ليس احتلالاً فحسب وليس غير

شرعي فحسب بل يتوجب تدخلاً دولياً على الصعيد القانوني وربما الحظر والعقاب الاممي. قد يبدو هذا متعديراً من وجهة نظر البعض خاصة في أوروبا لكن بدبلوماسية فاعلة ونقاش عميق في الرأي العام يمكن تطوير رأي عام فاعل ضاغط بهذا الاتجاه. يقع على الإتحاد مسؤولية الانتقال من مشاهد إلى فاعل في تصحيح الخطأ الكبير الذي ارتكبه دوله الاعضاء بحق الشعب الفلسطيني منذ وعد بلفور المشؤوم. من هنا فإن على الفلسطينيين أن يصححوا أيضاً الخطأ الفادح الذي ارتكبه لحظة قبلوا ان يكون المجتمع الدولي مجرد وسيط في عملية السلام، والوسيط رهن موافقة الطرفين بقبول وساطته. هكذا وجدت إسرائيل نفسها في منأى عن أي ضغط دولي في حالة رفضت الوساطة كما كانت تفعل طوال العقود الماضية. إن مسؤولية المجتمع الدولي وتحديدأ أوروبا لا يجب ان تكون الوساطة بل عليها أن تمتلك الحق في التدخل لإنفاذ السلام وفرضه على الاطراف الراضة له. فالجيوش تخرج لاحتلال بغداد ولإسقاط القذافي وتجوب الطائرات الفرنسية سماء القارة السوداء ولا أحد يجرؤ على القول بضرورة عقاب إسرائيل ولو عبر المقاطعة التجارية. على الخطاب الفلسطيني ان يطور من نفسه ويصلب من مقولاته بحيث يملك الجرأة لطرح هذه الأفكار والمطالبة بتنفيذها. فأوروبا ليست وسيطاً بل طرفاً وهي ليست "شاهد مشفئ حاجة" بل هي متهم ومدان مشارك في الكارثة، ولا يجب ان نقبل ان تظل تندد فيما هي تمتلك القوة في النظام الدولي لفرض عقوبات على إسرائيل ولو من طرفها، سيما انها تمتلك الفعالية الاقتصادية والتجارية والعلمية التي تعزز من هيمنة إسرائيل على الشعب الفلسطيني. من هنا تقع اهمية ممارسة دبلوماسية ضاغطة على الإتحاد الاوربي في هذا الجانب حتى يتحمل مسؤولياته التاريخية والأخلاقية ناهيك عن مصالحه الحيوية في المنطقة. وإن تثوير الجوانب القانونية والرأي العام وحركات المقاطعة سيساهم بشكل كبير في عملية الضغط تلك. ولعل هذه الدراسة جزء من هذا إن نجحت في توصيل مقولتها الأساسية.

## هوامش

(١) للمزيد حول نظام القطب الواحد انظر

وليم وولفورت، ٢٠٠١. استقرار عالم القطب الواحد، - دراسات عالمية- مركز الإمارات للدراسات والبحوث الإستراتيجية، دبي.

(٢) يمكن تعقب تاريخ فكرة الوحدة الأوروبية منذ الإمبراطورية الرومانية. فحلم توحيد أوروبا وإن لم يتحقق بشيء من الواقعية إلا في السنوات الخمسين الماضية، إلا أنه راود فلاسفة وسياسيين وملوك ورجال دين على مدار التاريخ الأوروبي. وحقيقة الأمر أن الفترة بين الحرين شهدت حراكاً فكرياً خصباً هدف للبحث عن أشكال من التعاون بين الدول الأوروبية بغية تجنبها أي تصادم مثلما حدث في الحرب الأولى.

وصاغ العديد من رجال الفكر والمال والسياسة جملة من الأفكار التي قدمت تصورات لأطر وهياكل تنسيقية وفدرالية في هذا الاتجاه.

(٣) تضم المنظمة الآن أكثر من ثلاثين دولة كان أخرها في الانضمام إسرائيل وتشيكيا واستونيا وسلوفينيا التي التحقت في مايو ٢٠١٠.

(٤) جون بيليس و ستيف سميث، ٢٠٠٤. عولمة السياسة العالمية، مركز الخليج للأبحاث، دبي. الصفحة ٨٧٦

(٥) يرتكز التحليل السابق على عاطف أبو سيف، أوروبا والبحث عن دور، تحت الطبع.

- Robert Kegan, 2003. Of Paradise and Power. America and Europe in New World Order, Knopf, New York (٦)  
(٧) المصدر السابق.  
(٨) المصدر نفسه.
- Abu Saif, Atef, "EU and the Palestinian Question: political Aspects", MA thesis, (Bradford: University of (٩)  
(Bradford, 1999  
(١٠) خالد الحسن، ١٩٨١. فلسطين وأوروبا: دبلوماسية المواجهة، دار الكلمة للنشر، بيروت.  
(١١) الجماعة الأوروبية والقضية الفلسطينية. محمود خالد الأزعر. دراسات الجليل للنشر. عمان، ص ١٤٨.  
(١٢) حول وقائع الحوار العربي الأوروبي انظر: أحمد صدقي الدجاني، ١٩٧٩. منظمة التحرير الفلسطينية والحوار العربي الأوروبي، دراسة في الجانب السياسي من الحوار ووثائق، مركز الأبحاث منظمة التحرير الفلسطينية، بيروت.  
(١٣) بشارة خضر، أوروبا وفلسطين من الحروب الصليبية حتى اليوم، مركز دراسات الوحدة العربية، (ت. منصور القاضي)، بيروت، ٢٠٠٣، الصفحة ٤٤٢.
- Smith, Michael, "Understanding Europe's New Common and Foreign Policy: A Primer for Outsiders, Institute (١٤)  
(on Global Conflict and Cooperation policy papers, no. 52. (California: University of California, 2000  
(١٥) بشارة خضر، ٢٠١٠. أوروبا من اجل المتوسط. من مؤتمر برشلونة إلى قمة باريس (١٩٩٥-٢٠٠٨)، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت.  
(١٦) "اقترحوا سلسلة من التوصيات في مجالات متعددة: القنصل الأوروبيون يوصون دولهم بالتعامل مع القدس الشرقية كعاصمة فلسطينية مستقلة"، جريدة الأيام، ١١ يناير ٢٠١١.  
(١٧) عاطف أبو سيف، الإتحاد الاوروبي وإسرائيل: الشراكة الناعمة، مدار، رام الله، ٢٠١١.
- Ireland Palestine Solidarity Campaign, "Fact sheet: How Israeli arms companies benefit from EU science funds", (١٨)  
2009, www.ipsc.ie  
(١٩) أبو سيف، ٢٠١١.
- David Cronin, 2011. Europe's Alliance With Israel: Aiding the Occupation, Pluto Press, London, p 93 (٢٠)  
(٢١) أبو سيف، ٢٠١١.  
(٢٢) Cornin, 2011  
(٢٣) امطانس شحادة وعاطف ابو سيف، "مشهد العلاقات الفلسطينية الإسرائيلية ٢٠١٢" في هنيذة غانم، التقرير الاستراتيجي الإسرائيلي، مركز مدار، رام الله، ٢٠١٣.



## المراجع

### المراجع العربية

- أبو سيف، عاطف. لحظة أوروبا: أوروبيا والبحث عن دور، قيد الطباعة ٢٠١٣
- الاتحاد الاوروي وإسرائيل: الشراكة الناعمة، مدار، رام الله، ٢٠١١.
- الأزرع، محمود خالد. الجماعة الأوروبية والقضية الفلسطينية. عمان: دراسات الجليل للنشر، ١٩٩٠
- بيليس، جون وسميث، ستيف. عولمة السياسة العالمية، دبي: مركز الخليج للأبحاث، دبي. ٢٠٠٤
- الحلو، انجلينا. إسرائيل والسوق الأوروبية المشتركة، بيروت: مركز الأبحاث، منظمة التحرير الفلسطينية، بيروت، ١٩٦٨.
- الحاج، علي. سياسات دول الاتحاد الأوروبي في المنطقة العربية بعد الحرب الباردة، سلسلة أطروحات الدكتوراه ٥١، بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٥.
- الحسن، خالد. فلسطين وأوروبا: دبلوماسية المواجهة، بيروت: دار الكلمة للنشر، ١٩٨١
- خضر، بشارة. أوروبا وفلسطين من الحروب الصليبية حتى اليوم، ت. منصور القاضي، بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٣.
- أوروبا من اجل المتوسط. من مؤتمر برشلونة إلى قمة باريس (١٩٩٥-٢٠٠٨)، بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠١٠.
- الدجاني، أحمد صدقي، منظمة التحرير الفلسطينية والحوار العربي الأوروبي، دراسة في الجانب السياسي من الحوار ووثائق، بيروت: مركز الأبحاث منظمة التحرير الفلسطينية، ١٩٧٩.
- روي، أنطوني. مع عرفات في فلسطين: تاريخ العلاقة الفلسطينية - الإيطالية، ت: مجير الأحمد، رام الله: وزارة الثقافة، ١٩٩٨.
- سعيد، عبد المنعم. الجماعة الأوروبية تجربة التكامل والوحدة، بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٨٦.
- شحادة، امطانس و ابو سيف، عاطف. "مشهد العلاقات الفلسطينية الإسرائيلية ٢٠١٢" في هنيذة غانم، التقرير الاستراتيجي الإسرائيلي، رام الله: مركز مدار، ٢٠١٣
- نافعة، حسن. الاتحاد الأوروبي والدروس المستفادة عربياً، بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٤.
- وولفورت، وليم. استقرار عالم القطب الواحد، - دراسات عالمية-، دبي: مركز الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية، ٢٠٠١.

### المراجع الأجنبية

- Abu Seif, Atef. "The EU and the Palestinian Problem: Political Aspects", MA. Diss. University of Bradford, UK, 1990.
- Ahlsweide, Stefan. "Israel's European Policy after the Cold War". PhD diss., University of Maryland, Hamburg University, 2008.
- Anderikiene, Laima. " EU parliament is damaging EU-Israel". 282011/2/.
- <http://euobserver.com/2431886/>
- Bulut , Esra. "The Settlements from a European Perspective, Israel European Policy Network", June 2009.

Cronin, David. *Europe's Alliance With Israel: Aiding the Occupation*, London: Pluto Press 2011.

Escribano, Gonzalo. "Promoting EU-Israel Trade Integration: The Bilateral and Regional Dimensions", in *The Israeli European Policy Network – The Monitor of the EU-Israel Action Plan* Edited by Roby Nathanson and Stephan Stetter. Tel Aviv: Friedrich-Ebert-Stiftung & Israeli European Policy Network, 2006.

EUREKA, "From Knowledge based Legacy to innovation Economy", EUREKA News. no. 89, July 2010.

Gross, Eva. "ESDP and Israel", in *Renewing the Middle East: Climate Changes in Security and Energy and the New Challenges for EU-Israel Relations*, Edited by Roby Nathanson & Stephan Stetter, 112128-.Tel Aviv: Friedrich-Ebert-Stiftung & Israeli European Policy Network, 2008

Kegan, Robert. *Of Paradise and Power. America and Europe in New World Order*, New York: Knopf, 2003.

Schäfer, Isabel. "The EU as a Transformative Power in the MENA region: Implications for Israel", in *Renewing the Middle East: Climate Changes in Security and Energy and the New Challenges for EU-Israel Relations*, Edited by Roby Nathanson & Stephan Stetter163182-. Tel Aviv: Friedrich-Ebert-Stiftung & Israeli European Policy Network, 2008.

Teichler, Smith, Michael., *Understanding Europe's New Common and Foreign Policy: A Primer for Outsiders*, Institute on Global Conflict and Cooperation policy papers, no. 52. California: University of California, 2000

Thomas A. "Israeli-European Armaments Cooperation Israel-EU", in *Renewing the Middle East: Climate Changes in Security and Energy and the New Challenges for EU-Israel Relations*, Edited by Roby Nathanson & Stephan Stetter, 129151-, Tel Aviv: Friedrich-Ebert-Stiftung & Israeli European Policy Network, 2008  
and the Barcelona Process", EuroMeSCo Working Papers, No 3, 1998.

Youngs , Richard. "Ten years of the Barcelona Process: A Model for Supporting Arab Reform?" working paper 2, Madrid: Fundación para las Relaciones Internacionales y el Diálogo Exterior, January 2005.

## عرفات والشيوعيون .. علاقة ثابتة وحميمة

فيصل حوراني \*

المساعي التي استهدفت تشكيل الحزب الشيوعي الفلسطيني بدأت في العام ١٩١٩. المبادرة إلى تشكيل الحزب اتخذها مهاجرون يهود وفدوا إلى فلسطين ونشطوا بين عمال الميناء والسكك الحديدية في حيفا. وبعد البداية المتواضعة بخمس سنوات، كان الحزب الناشيء قد أفلح في اجتذاب أعضاء عرب، وعقد الحزب مؤتمره الخامس الذي أبرز، لأول مرة، السمة المشتركة، العربية اليهودية، للحزب الفلسطيني. وهو المؤتمر الذي أقرّ اعتبار الحركة العربية القومية في فلسطين حركة مناوئة للاستعمار. ثم بدأت العملية المطردة التي استمرت في السنين العشرين التالية لتعريب الحزب وتنقية فكره وسلوكه من التأثيرات الصهيونية التي اقترنت بنشأته، والواقع أن تعريب الحزب كان شرطاً وضعه الكومنترن، التشكيل العالمي الذي ضمّ الأحزاب الشيوعية كلها، وطلب تحقيقه قبل أن يمنح الحزب الفلسطيني عضويته الكاملة.

في العام ١٩٤٣، انقسم الحزب، بقرار اتخذته لجنته المركزية بأغلبية أعضائها، إلى مجموعتين؛ واحدة ضمت أعضاء الحزب اليهود وتابعت النشاط في الوسط اليهودي باسم الحزب الشيوعي اليهودي؛ وأخرى ضمت الأعضاء العرب وسمت ذاتها عصابة التحرّر القومي ونشطت بين أهل البلاد العرب، وبعد الإعلان عن قيام إسرائيل ونكبة أهل البلاد العرب، انعقد في حيفا، في تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٤٨، ما اشتهر باسم مؤتمر وحدة الحزب، وفيه التقى من جديد أعضاء الحزب اليهودي وأعضاء

---

\* كاتب فلسطيني

العصبة العربية الذين بقوا في مناطق السيطرة الإسرائيلية، وأعلن الطرفان تأسيس الحزب الشيوعي الإسرائيلي .

هذا الحزب شهد صراعات داخلية متصلة، وانتهى الأمر بانشقاقٍ أفرز حزبين: الحزب الذي قاده المتأثرون بالصهيونية والذي أبقى له القانون الإسرائيلي حق استخدام اسم الحزب كما كان قبل الانشقاق، أي الحزب الشيوعي الإسرائيلي "ماكي"؛ والحزب الذي ضم الأعضاء العرب واليهود المتأثرين على النهج الأممي والذين نشطوا باسم القائمة الشيوعية الجديدة "ركاح". وبمضي الوقت، تخلى "ماكي" أولاً بأول عن صفته الشيوعية، ثم حل ذاته بذاته، هو الذي عجز عن أن يظفر بأكثر من مقعد واحد في كنيست إسرائيل، وانضم إلى حركة صهيونية. أما ركاح، فواصل سيرته حزباً شيوعياً أغلب أعضائه من العرب وإن لم يخل في أي وقت من أعضاء يهود. وقد تراوحت مقاعد هذا الحزب في الكنيست بين ٣ و ٥ مقاعد.

على الصعد الأخرى، تواجد بعد النكبة شيوعيون في قطاع غزة وضمفتي الأردن وأماكن تجمعات الفلسطينيين الأخرى في الشتات، وتنوعت مصائرهم. ففي غزة، شكل شيوعيو القطاع والشيوعيون الذين وفدوا إليه لاجئين الحزب الشيوعي في قطاع غزة. وكان هذا عند نشأته حزباً صغيراً. ثم لم يلبث أن تحول الحزب الصغير إلى حزب مقدم و متميز في الحركة الوطنية الفلسطينية التي نشأت وتطورت في قطاع غزة بعد ١٩٤٨. وفيما يتصل بالموضوع الذي تتناوله هذه المقالة، يجدر أن ننوه بحقيقة أن صلة عدد ممن سيؤسسون "فتح" قد انتظمت منذ وقت مبكر مع شيوعيو غزة، وأخصّ الميادين التي شهدت توطد هذه العلاقة كانت السجون المصرية حين ضمت الفريقين معاً. وهكذا، صار معين بسيسو وعبد الرحمن عوض الله وغيرهما من قادة حزب غزة الشيوعي زملاء سجون لصالح خلف "أبو إياد"، ومحمد يوسف النجار "أبو يوسف" وغيرهما، ممن كانوا آنذاك أعضاء في منظمة الإخوان المسلمين ثم بارحوا منظمتهم ليؤسسوا "فتح".

الشيوعيون الفلسطينيون الذين جمعتهم النكبة في ضمفتي الأردن، أي في ما صار المملكة الأردنية الهاشمية، تعاونوا مع نظراء لهم شرق أردنيين، وانتهى الأمر بتأسيس الحزب الشيوعي الأردني. ولأن عدداً من أعضاء الحزب التجأ، هرباً من البطش أو طلباً للدراسة الجامعية، إلى بلدان عربية أخرى، دمشق أو بغداد أو القاهرة، فقد أمكن أن يلتقي شيوعيون آخرون مع آخرين ممن سيؤسسون "فتح". ومن الممكن أن نعدّ الفلسطيني نديم النحوي والأردني منير الحمارنة، بين معارف وأصدقاء ياسر عرفات المبكرين، هم الذين التقوا في القاهرة، في أوائل الخمسينات، واشتركوا في الجهد الذي استهدف تأسيس رابطة الطلاب الفلسطينيين فيها.

الآخرون الذين سيقوا إلى بلاد الشتات الأخرى انضموا إلى شيوعيو هذه البلاد ونشطوا في إطار

أحزابها. وقد ينبغي أن يشار هنا إلى أهم تجمع لشيوعيين فلسطينيين خارج فلسطين والأردن وهو تجمعهم في الحزب الشيوعي السوري، وهو التجمع الذي ضمَّ نسبةً ملموسة من العسكريين الفلسطينيين ممن لعبوا أدواراً ذات أهمية في رفق الحركة الوطنية الفلسطينية بالخبرة والسلاح، فضلاً عن المقاتلين. شيوعيو الضفة والقطاع، وكذلك شيوعيو الشتات بمعظمهم، انتهى بهم الأمر إلى التوحد في العام ١٩٨٢ في حزب واحد هو الذي استعاد الإسم الأول: الحزب الشيوعي الفلسطيني. لكن ظروفاً طرأت فحملت هذا الحزب إلى تعديل اسمه وتعديل برنامجه أو لنقل تبديله، فصار اسمه حزب الشعب الفلسطيني، وهو ما ستتناوله هذه المقالة لاحقاً.

حين بدأت الجهود الرامية إلى تأسيس "فتح"، في أواخر خمسينيات القرن العشرين وأوائل ستينياته، كان الشيوعيون العرب، وبضمنهم فلسطينيوهم، في أضعف حالاتهم، إذ كانوا مشتبهين، من جهة اليسار، مع الناصريين، وفي قوامهم حركة القوميين العرب آنذاك، ومن جهة اليمين مع الرجعية، وفي قوامها أنظمة حكم وضعت البطش بالشيوعيين في قائمة أهدافها.

"فتح" التي حملت منذ نشأتها أفكاراً متجانسة وأخرى غير متجانسة من أفكار اليمين واليسار لم تكن آنذاك مؤهلة لإيجاد ما هو مشترك بينها وبين الشيوعيين. وياسر عرفات الذي كان أقدر من مثل سمات "فتح" وتمثلها وسعى إلى ربطها بما يحيط بها في عالمها العربي، لم يكن مهيباً، بعد، للانتباه إلى ما قد يكون مشتركاً بين نزعة "فتح" الوطنية الفلسطينية وبين برنامج الشيوعيين المتفرد آنذاك في دعوته إلى تمكين الشعب الفلسطيني من الاستقلال في دولة خاصة به وممارسة حقه في تقرير المصير بحرية.

في هذا الوضع الذي استمر إلى بُعيد الإعلان عن نشأة "فتح" في العام ١٩٦٥، لن يقع المتتبع لأدبيات الحركة وسلوك مؤسسها ياسر عرفات على ما يظهر اهتماماً خاصاً بالشيوعيين. هذا لا ينفي إمكانية الوقوع على ما يظهر مواقف فتحاوية تدين الشيوعيين بما كان يُدينهم به العرب القوميون والآخرين الرجعيون، خصوصاً إدانتهم بالتفريط في حقوق الشعب الفلسطيني، على خلفية ما شاع من أن الشيوعيين العرب تحمسوا لقرار تقسيم فلسطين حين صدر هذا القرار في العام ١٩٤٧. ولن يخطيء المرء إذا حكم بأن "فتح" خلت في تلك السنوات من متعاطفين مع الشيوعيين، هي التي ضمت كثيرين كارهين لهم.

هذه الملاحظة تستدعي ما يميز به ياسر عرفات، وهو تحرره من العداء المسبق أو الدائم لأي فريق فلسطيني وأي فريق آخر إذا كان من المؤثرين في الشأن الفلسطيني، بكلمات أوضح: ألف عرفات أن يتخذ مواقفه من أي شخص أو فريق في هدي حسابات عملية لا يأذن لمشارعه الشخصية أن تتدخل فيها. وقد انسحب هذا على الشيوعيين كما انسحب على سواهم. والحسابات المبنية على

أسس عملية تتبدل عادة بتبدل الظروف. وقد شهدت مواقف عرفات من الشيوعيين تبدلات مطردة رسمت مساراً إيجابياً صاعداً قلما تجمد أو انتكس. وهنا، يحين أوان الحديث عن أهم سمات القائد الذي تصدّر قيادة العمل الوطني الفلسطيني كله وهو في الأربعين من عمره وظل في الصدارة إلى يوم رحيله عن دنيانا بعد ثلاثة عقود ونصف عقد، إنها سمة الجمع الخلاق بين البراغمية التي لا تتفق عادة مع الثبات على المواقف وبين الوطنية وما تتطلبه من ثبات.

حسابات عرفات الأولى لم توجب عليه أن يتطلع إلى إنشاء علاقة خاصة مع الشيوعيين الفلسطينيين تزيد عن علاقته مع قوى سياسية ليست هي المسيطرة في ساحة العمل الوطني. لكن الحسابات ذاتها لم توجب على القائد المؤسس أن يجاري المزاج الغالب في "فتح"، كما ارتسم مع بداية تشكلها، وهو المزاج الذي اتسم، عموماً، بالسلبية إزاء الشيوعيين ومن في حكمهم. ولا شك في أن القائد المؤسس العارف بأنه منهمك في الاشتباك مع إسرائيل ودول المعسكر الامبريالي التي تحميها، كان يتطلع منذ البداية إلى اجتذاب كل قوى الشعب الفلسطيني والقوى العربية الأخرى إلى المعمعان، تماماً كما كان يتطلع إلى الظفر بدعم الاتحاد السوفياتي الواقف على قمة المعسكر المناهض للمعسكر الامبريالي. وبإمكان كاتب هذه السطور أن يشهد، هو الذي عرف ياسر عرفات قبل أن ينقضي النصف الأول من عقد ستينيات القرن العشرين وأدار معه أحاديث مستفيضة، أن قائد "فتح" المؤسس، هذا، كان حريصاً منذ ذلك الوقت على إظهار ما ينم عن تطلعه إلى كسب تأييد الشيوعيين وتأييد الاتحاد السوفياتي للمطالب الوطنية الفلسطينية، وقلماً صدر عنه، حتى في أحاديثه في المجالس الخاصة، ما قد يُعدُّ استفزازاً متعمداً لأي منهم.

والحاصل أن المزاج الذي قد يدفع فتحوياً إلى لوم الشيوعيين وازنه، عند عرفات، التطلع إلى التعاون معهم. ولئن نشأ الوضع الذي أجاز لفتحاويين ممن جاءوا إلى "فتح" من منابت يمينية أو يسارية متطرفة أن ينتقدوا مواقف الشيوعيين الفلسطينيين وغيرهم من الحل المتوخى للقضية الفلسطينية. لكن جمهرة الفتحاويين، وفي المقدمة عرفات، لم تجعل النقد سبباً لخلق حالة عدا.

التطور الأول الحاسم ظهرت إرهاباته بعد أن صار عرفات في العام ١٩٦٩ رئيساً للجنة التنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية وقائداً عاماً لقوات الثورة الفلسطينية، كلها، وليس لـ "فتح" وحدها. وقد اشتد تواتر هذه الإرهابات مع اشتداد الصدامات بين ناس الثورة الفلسطينية وبين جيش الأردن وأجهزة أمنه. فاشتداد الصدامات أبرز الحاجة إلى تأييد الجمهور الأردني للوجود الفلسطيني المسلح في البلد. ولأن جمهرة الشيوعيين برزت في طليعة القوى التي دافعت عن هذا الوجود، حتى وهي تنتقد بعض مظاهره، فإن علاقة قيادة م.ت.ف. وعرفات على رأسها، بالشيوعيين توطدت واكتسبت حميمة يُتقن هذا القائد بثها. ولأن هذا التطور اقترن بتكشّف خطأ مقولة الفلسطينيين

بأن العرب قد يختلفون على أشياء كثيرة إلا أنهم يلتقون على تأييد الشعب الفلسطيني، فإن الحاجة اشتدت أكثر فأكثر إلى تحقيق أوسع التفاف شعبي حول م.ت.ف. في مقابل التأييد الذي حظيت به سلطات الأردن.

والذي حصل أن ياسر عرفات كان، كعادته عند كل منعطف، سباقاً إلى إعادة النظر في حسابات " فتح " الأولى، مثلما كان سباقاً، أيضاً، في تهيئة " فتح " لتقبل ما يهَجُسُ به من حاجة إلى تبديل الموقف والسلوك للتواؤم مع الحسابات الجديدة وتخفيف أذى الحسابات السابقة الخاطئة. وفي اليقين أن إرغام مسلحي الثورة الفلسطينية على مغادرة الأردن، في ١٩٧٠ و ١٩٧١، كان العامل الأشد تأثيراً في دفع عرفات لولوج المسار الذي طوره هو والمتفقون معه في الرأي. وهذا هو التعديل الذي أفضى إلى إسقاط مقولة كلها أو بلاها، حين يتعلق الأمر بهدف تحرير فلسطين، وأحل محلها مقولة الموامة بين الهدف الوطني العام وبين المطالب الوطنية المتدرجة وحجوم الحقوق التي تتوخاها هذه المطالب.

وفيما الدافع إلى هذا التعديل أخذ في التشكل داخل م.ت.ف. خصوصاً لدى عرفات، كان الحزب الشيوعي الأردني يشهد في داخله خلافات بين فريقين شكل الموقف من سياسة الثورة الفلسطينية، خصوصاً " فتح "، واحداً من أهم موضوعاتها. والواقع أن أغلبية الحزب وقفت في هذا الخلاف قريبة من سياسة م.ت.ف. كما رسمتها أدبياتها الرسمية، أما أقلية الحزب، فوقفت مع ما كان مضراً دون أن يُفصح عن ذاته، فدعت إلى تركيز المقاومة المسلحة ضد الاحتلال الإسرائيلي، وإلى تجنب الإنهماك في صراعات مسلحة لا لزوم لها مع هذا أو ذاك من أنظمة الحكم العربية، كما دعت إلى نقد النهج المغامر، وحثت م.ت.ف. على التعقل في الفكر وفي السلوك. وأبرز الخلاف على الصعيد العملي إقدام الأغلبية على تشكيل فصيل شيوعي مسلح، في مجارة واضحة لفصائل م.ت.ف. المسلحة، وكانت هذه خطوة لم تتحسس لها الأقلية فعمقت الخلاف. وأنشأت الأقلية في العام ١٩٧٠ تنظيمًا موازياً تزعمه فهمي السلفيتي وحمل اسم الكادر اللينيني في الحزب الشيوعي الأردني.

في هذا الخلاف، وقفت غالبية حملة البنادق الفلسطينيين مع المتحمسين لمنظمة الأنصار، وجرى عرفات الأغلبية، لكنه لم يعاد الطرف الآخر. وكاتب هذه السطور يتذكر بوضوح تام كيف دأب ياسر عرفات على الإشادة بالقائد الشيوعي فهمي السلفيتي وجرأته في دعوته المثابرة لإعلاء صوت العقل. وقد رفع عرفات عيار الإشادة بالسلفيتي بعد أن أُخرج هو من عمان في أيلول/ سبتمبر ١٩٧٠. كان الزعيم الفلسطيني قد استخلص عبرة هذا الخروج وبدا كمن حسم أمره للشروع بالتبشير بصوت العقل في الثورة الفلسطينية. وأن يشيد عرفات بالسلفيتي، حتى وهو يجهر باختلافه عنه،

عنى أن قائد الثورة الفلسطينية مصمم على أن يأخذ حقائق الواقع بعين اعتباره. وكان هذا هو المدخل الذي ولجه عرفات في اتجاه المواءمة بين الهدف الفلسطيني ومعطيات الشرعية الدولية، المدخل الذي أفضى في نهاية المطاف إلى القبول بتسوية الصراع الفلسطيني الإسرائيلي في هدى قرارات الأمم المتحدة، أي إلى القبول بما دعا الشيوعيون إلى قبوله منذ البداية.

لم يكن من السهل الجهر بهذا التوجه قبل تهيئة الطرف الذي يجتذب غالبية ناس المقاومة الفلسطينية إلى القبول به. ولتوفير هذا الطرف، احتاج ياسر عرفات إلى جهود الشيوعيين، الفلسطينيين منهم وغير الفلسطينيين. وبعد أن اكتمل خروج مسلحي الثورة الفلسطينية في العام ١٩٧١ من الأردن، خاض ياسر عرفات، في سياق ما قام به لتوفير الطرف المطلوب، معركة إدخال الشيوعيين الفلسطينيين إلى هيئات م.ت.ف. ولم تكن هذه معركة سهلة. ففي "فتح"، كان رأي الأغلبية الكبيرة ضد إدخال الشيوعيين. وفي فصائل م.ت.ف. الأخرى، كان الرفض أوسع وأشد. وقد تسلح الرافضون كلهم، بين ما تسلحوا به، بذريعة مخالفة الشيوعيين نصوصاً صريحة في الميثاق الوطني الفلسطيني الذي يتوجب على كل عضو في أي هيئة من هيئات م.ت.ف. أن يقبله. فالميثاق يعدّ قيام إسرائيل وما مهّد له وما تبعه أموراً باطلة، ويضع قرار التقسيم بين هذه الأمور. وذلك، في حين أن الشيوعيين أيّدوا قرارات الأمم المتحدة وقبلوا بوجود إسرائيل ودعوا إلى تسوية سياسية معها تُعطي الفلسطينيين أقل، حتى، مما خصصه لهم قرار التقسيم، ما دام أن هذه التسوية تمكّن الشعب الفلسطيني من الاستقلال في دولة خاصة به.

بالرغم من هذا، خاض عرفات المعركة مستخدماً، كعادته، كل ما تيسر من أدوات وأساليب، وعوّل على قدراته الشخصية وبراعته كلها. حجة الميثاق، هذه التي كانت أقوى حجج الراضين، واجهها العازم على إنفاذ ما يحتاج إليه، بالزوغان عن صلب ما جاء فيها، ووضع إزاء هذه الحجة حجة مضادة: الشيوعيون يؤيدون الميثاق، بعضهم يؤيده دون تحفظ، كما هو شأن شيوعي غزة، وآخرون يؤيدونه مع بعض التحفظات، وقد التحق الشيوعيون بالكفاح المسلح الفلسطيني منذ أنشأوا منظمة الأنصار. ورشح عرفات لعضوية المجلس الوطني فؤاد نصار الأمين العام للحزب الشيوعي الأردني بوصفه من حركة الأنصار هذه. ولم يفت عرفات، وهو يهيء التأييد اللازم لضم نصار إلى المجلس، أن ينوّه بأن الرجل كان في العام ١٩٣٦ قائد فصيل مسلح في الثورة الوطنية التي انطلقت في ذلك العام.

في المحصلة، انتزع عرفات في العام ١٩٧٢ موافقة المجلس الوطني على منح فؤاد نصار عضويته، دون أن يلزم الحزب الشيوعي الأردني بتعديل برنامجه السياسي الداعي إلى حل القضية الفلسطينية في ضوء قرارات الأمم المتحدة والموافق، خصوصاً، على قرار التسوية الشهير، القرار ٢٤٢. وكانت



هذه هي البداية التي تبعتها إدخال الشيوعيين الفلسطينيين تبعاً في هيئات م. ت. ف. الأخرى. وهي البداية التي وطدت العلاقة الخاصة بين عرفات وبين هؤلاء الشيوعيين، العلاقة التي لم تنتكس بعد ذلك أبداً.

والواقع أن حاجة الشيوعيين إلى التعاون مع "فتح"، خصوصاً مع عرفات الذي كان سابقاً في توجهه نحو الاقتراب من البرنامج الشيوعي لحل المسألة الوطنية الفلسطينية، لم تكن أقل من حاجة "فتح" وعرفات نفسه إلى هذا التعاون. لا يتعلق الأمر، هنا، بالموقف الشيوعي المبدئي المناصر لحقوق الشعب الفلسطيني الوطنية، وحده، بل يزيد عليه حاجة الطرف الشيوعي إلى تصحيح الخطأ الذي وقعت فيه القيادة الفلسطينية الوطنية قبل ١٩٤٨ حين نبذت الشيوعيين الفلسطينيين وعادتهم وألّبت الجمهور ضدهم. والتعاون مع "فتح" مثل بالنسبة للشيوعيين الحامل الذي تحقق عليه اعتراف الجميع بوجودهم في صلب الحركة الوطنية الفلسطينية المتجددة بعد النكبة. والواقع أيضاً أن سمات عرفات الشخصية، خصوصاً براغماتيته المقتزنة بوطنيته التي تسع الجميع، قد لعبت دوراً بالغ الأهمية في توسيع هذا التعاون واطراده وحمايته من الانتكاس.

في صلب هذا الثبات في العلاقة، كمنت عوامل كثيرة برز في مقدمتها تأثير الحاجة المشتركة إلى المواءمة بين مطالب الشعب الفلسطيني وأهدافه الوطنية وبين روح العصر وقيمه وقوانينه ومجمل ما تجوز تسميته الشرعية الدولية. هذه الحاجة التي كان ياسر عرفات أعظم من تمثلها بين قادة م. ت. ف. دفعت باتجاه العمل لتطوير برامج م. ت. ف. وسلوكها، واجتذاب أوسع أشكال التأييد لها في توجهها الجديد، لموازنة شتى اشكال الدوغمائية والتخلف المعيشة في الساحة العربية وبضمنها الساحة الفلسطينية ذاتها. ولأن الشيوعيين شكلوا الفصيل الأكثر جرأة والأوسع خبرة والأشد اندفاعاً في هذا المجال، ولأن عرفات كان متحرراً من العداء المسبق للشيوعية مثلما كان متحرراً من أي عداء مسبق لأي طرف فلسطيني، ولأن التعاون مع الشيوعيين المحليين سوف يساعد في اجتذاب تأييد الأحزاب الشيوعية في العالم كله، الحاكم منها في بلده وغير الحاكم، فقد اتسمت علاقة عرفات بشيوعيه بحميمية وثبات افتقرت إليهما علاقته بأطراف أخرى كثيرة.

وفي المجالات الثلاثة، الفلسطيني والعربي الأعم والدولي، لعب الشيوعيون الفلسطينيون الدور الذي هم مؤهلون له لحشد تأييد نظرائهم من القوميين والتقدميين الآخرين، بأحزابهم وأنظمة حكمهم وهيئاتهم، لتوجهات م. ت. ف. والتأكيد على أهمية وجود "فتح" في صلبها ووجود ياسر عرفات بالذات على رأس قيادتها. ومع أن الجهد الذي بذله الشيوعيون الفلسطينيون لم يكن قليلاً فإنهم لم يكونوا هم أنفسهم متطلبين، ولو أجرى أي منصف مقارنة بين ما طلبه الشيوعيون من م. ت. ف. ومن ياسر عرفات بالذات وبين ما طلبته أطراف تقدمية أخرى منهما، فسيؤكد هذا الحكم.

من هنا، لن يخطيء من يحكم بأن ياسر عرفات كان يشاور الشيوعيين، الفلسطينيين وغيرهم، في كل خطوة اعتمزم أن يخطوها باتجاه تحرير السياسة الفلسطينية من الدوغمائية، بعض التشاور كان يتم علنا، وأغلبه كان يتم دون اعلان. وقد كان للكتمان أسبابه. ففي تطويره العلاقة مع الشيوعيين، لم يواجه عرفات عنت دوغمائيي "فتح" والفصائل الفلسطينية الأخرى، وحدهم، بل واجه، إلى جانب عنت هؤلاء، عنت الأنظمة والأوساط العربية، الرجعية، وكذلك الأنظمة والأوساط العربية القومية المتشددة، وتعرض للوم مثابر من هؤلاء وهؤلاء. وبإمكان كاتب هذه السطور ان يشهد بما عرفه في هذا المجال. لقد تعرض ياسر عرفات لضغوط طاغية من هذه الأنظمة والأوساط استهدفت حمله إلى التخلي عن ما كان هؤلاء يصفونه باحتضانه هو الشيوعيين. وقد يكفي أن نستحضر، على سبيل المثال، ضغوط المملكة العربية السعودية في هذا المجال، أو ضغوط النظام العراقي الذي وقف الرئيس صدام حسين على رأسه، لنذكر ما احتمله عرفات، ونظهر مقدار قوته وقناعته بأهمية التعاون مع الشيوعيين وهما القناعة والقوة اللتان مكنته من رفض الرضوخ لهذه الضغوط. وبوسع أي معني بالأمر أن يتذكر الأوقات التي اشتعلت فيها الخصومة بين ياسر عرفات وبين صدام حسين، ثم المصالحة التي تلت هذه الخصومة وما طلبه صدام حسين من عرفات، المطلوب الذي رفضه عرفات. لقد أراد حاكم العراق الفرد تقاضي القائد الفلسطيني ثمنا للمصالحة، وطلب صدام أن يكف عرفات عن حماية الشيوعيين العراقيين الذين التجأوا إلى مواقع الثورة الفلسطينية هرباً من بطش صدام. لكن عرفات رفض الطلب مجازفاً باستمرار الخصومة واستمرار الأضرار الخطيرة التي ألحقتها هذه الخصومة بالساحة الفلسطينية. وبثبات عرفات، تمكن الشيوعيون، العراقيون وغير العراقيين، من أن يتمتعوا بالحماية والمزايا الأخرى التي وفرتها القيادة الفلسطينية لهم في لبنان وغيره.

وإذا كان أحدٌ من الشيوعيون قد تعرض لأذى على أيدي فلسطينيين، فالموكد أن هذا وقع دون علم عرفات أو بالرغم منه، وأن عرفات حرص في كل مرة على وقف هذا الأذى.

\* \* \*

بعد تأسيس العلاقة الخاصة في سنوات السبعينيات الأولى من القرن المنصرم، مرت العلاقة بين الجانبين، في تطورها المطرد، بمحطات متميزة سنرصد هنا المحطات التالية منها:

أولى المحطات الكبيرة التي احتاج فيها عرفات إلى الاتكاء على مواقف الشيوعيين وأصدقائهم كانت تلك التي تأسست مع حرب تشرين الأول/ اكتوبر ١٩٧٣. فهذه الحرب أفرزت قرار مجلس الأمن الدولي ذا الرقم ٣٣٨، الذي حدد آلية التفاوض على الحل السياسي الذي صاغه في العام ١٩٦٧ قرار مجلس الأمن ذو الرقم ٢٤٢. وقد شملت هذه الآلية عقد مؤتمر دولي للسلام تنظمه الأمم المتحدة

وبرأسه كل من الاتحاد السوفياتي والولايات المتحدة الأمريكية وتحضره الأطراف التي اشتبكت في الحرب، ليحدد بنود التسوية المنشودة في ضوء معطيات القرار ٢٤٢. وتم التوافق على أن ينعقد هذا المؤتمر في مدينة جنيف.

قوات الثورة الفلسطينية شاركت في ما سماه ياسر عرفات الجبهة الثالثة في هذه الحرب. وقد استثمر عرفات هذه المشاركة ليطالب بمقعد للفلسطينيين في مؤتمر جنيف للمشاركة في مجهودات التسوية. التوجه إلى المشاركة في مؤتمر جنيف اشعل الخلافات داخل الساحة الفلسطينية، داخل كل فصيل منها وفي ما بين فصائلها. وأفرزت الخلافات جبهتين كبيرتين: جبهة الرفض التي تعد المشاركة في مجهودات أي تسوية تفریطاً بالهدف الفلسطيني الكامل، وجبهة قبول التسوية التي ترى في المشاركة استثماراً إيجابياً لتضحيات الشعب الفلسطيني وجهوده، ومسعى لا بد منه لإنقاذ ما يمكن إنقاذه من أرض هذا الشعب وحقوقه. الشيوعيون، وحدهم بين الجميع، كانوا بالإجمال موحدون حول السعي إلى التسوية، فشكّلوا بهذا طرفاً شديداً الفعالية في دعم جبهة القبول. وبرنامجهم الذي لا لبس فيه وموافقته المسبقة على القرار ٢٤٢، كان الشيوعيون قد أفلحوا في تصدر النشاط الوطني السياسي في الأرض المحتلة بالذات واجتذاب غالبية الناشطين الآخرين وأكثرهم تمتعاً بالاحترام إلى جبهة القبول، وكانت الأرض المحتلة تشهد، بموازاة حرب الاستنزاف التي واصلتها سورية ضد إسرائيل، واحدة من انتفاضاتها البارزة. وكان الشيوعيون قد شكّلوا العمود الفقري للجبهة الوطنية التي أطلقت هذه الانتفاضة منذ أواخر العام ١٩٧٣ وبرزوا بوصفهم القوة الرئيسة فيها.

استثمر عرفات على أكمل وجه صلته الوطيدة بالشيوعيين، وتعاون هو وإياهم، علناً وسراً، حتى أمكن أن يُشكل الراغبون في الإلتحاق بقطار التسوية والمشاركة في مؤتمر جنيف أغلبية في الساحة الفلسطينية، إن لم تكن كاسحة فقد كانت على كل حال أغلبية. ووجود هذه الأغلبية حول جبهة الرفضين إلى أقلية، إن لم تكن ضئيلة فقد كانت على كل حال أقلية. وفي الغضون، في الوضع الذي تم فيه الإصطفاف على هذا النحو، أمكن أن يجتذب عرفات الأمعاء العامين لفصائل م. ت. ف. الرئيسية ومعهم ممثل للجبهة الوطنية في الأرض المحتلة إلى حوار استمر ستة أشهر وأفرز أول برنامج في تاريخ الشعب الفلسطيني يجيز لقيادته مرحلة الأهداف الوطنية، أي تحقيقها على مراحل، بدل التشبث بالهدف الكامل. وكان هذا هو ما سُمي البرنامج الوطني المرحلي واشتهر باسم برنامج النقاط العشر الذي صادق عليه المجلس الوطني الفلسطيني في العام ١٩٧٤ بما يشبه الإجماع.

هذا المجلس صُمِّمَ إليه ثمانية من قادة الجبهة الوطنية في الأرض المحتلة كانت إسرائيل قد أبعدهم بالقوة عن البلاد. وكان نصف هؤلاء الثمانية شيوعيين. وهو المجلس الذي انتخب فائق وزاد الأمين

العام للحزب الشيوعي الأردني عضواً في المجلس المركزي. ويعرف شهود هذه المرحلة كم كانت العلاقة حميمة بين عرفات وورّاد. ويستطيع كاتب هذه السطور أن يضيف أن الدالة التي كانت لورّاد على عرفات لم يتمتع بمثلها أي قائد فلسطيني آخر في ذلك الوقت.

المحطة التالية، التي احتاج فيها عرفات لجهد الشيوعيين من أجل تسوية خطوات كثيرة كان عليه اتخاذها، هي تلك التي بدأ تشكّلها مع توالي الانهيارات في الجدر التي كانت تسند العمل الوطني الفلسطيني والخط العقلائي فيه على وجه الخصوص: إنهيار النظم الإشتراكية في دول شرق أوروبا ومعها الاتحاد السوفياتي ذاته؛ إنهيار التضامن العربي في حرب الخليج؛ إنهيار كثير من القوى العالمية غير الحاكمة التي ألفت أن تسند الفلسطينيين. ففي ظل هذه الانهيارات، ارتفع ثمن التسوية، أو إن ما ارتفع هو ثمن مشاركة الفلسطينيين في التسوية. وبهذا، صار على الزعيم الفلسطيني الحريص على المشاركة أن يؤدي استحقاقات ثقيلة، كي يظفر الجانب الفلسطيني ولو بالقليل مما كان بمقدوره أن يظفر به قبل الانهيارات.

في هذا الوضع، لم يخذل الشيوعيون الفلسطينيون حليفهم. كان هؤلاء قد أفلحوا منذ العام ١٩٨٢ في الاستقلال من جديد في حزب خاص بهم حمل اسم الحزب القديم: الشيوعي الفلسطيني. وكان تأسيس هذا الحزب قد تمّ بموازاة التطور العام الذي شهدته الحركة الوطنية الفلسطينية كلها، في اتجاه تعزيز الكيان الوطني الفلسطيني وتوفير الإستقلال له.

وحين أوجبت الاستحقاقات الثقيلة على ياسر عرفات أن يخالف حتى البرنامج المرحلي المقرّر في العام ١٩٧٤ ويظهر هدف إقامة الدولة الفلسطينية المستقلة إلى جانب إسرائيل بوصفه الهدف الأقصى، وجد عرفات في الشيوعيين أوائل من يؤيدونه، إذ أن هذا هو ما طالبوا به هم منذ البداية. وهكذا، أسهم الحزب الشيوعي الفلسطيني بدور متميز في الدفع في اتجاه ما تبلور في نهاية المطاف، في العام ١٩٨٨، فأفرز وثيقة إعلان الإستقلال والمبادرة السلمية الفلسطينية التي قبلت تسوية تُشكل قرارات الأمم المتحدة، ومنها القرار ٢٤٢، مرجعاً لها.

في هذه المحطة، توجت مشاركة الشيوعيين في هيئات م. ت. ف. بتوسيع هذه المشاركة في المجلسين الوطني والمركزي، وانتخاب عضو مكتب الحزب السياسي سليمان النجاب عضواً في اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير، إضافة إلى تمثيل الشيوعيين في الهيئات السرية التي أنيط بها العمل المتصل بالإشراف على انتفاضة الأرض المحتلة. ويتذكر شهود تلك المحطة، وبينهم كاتب هذه السطور، أن بشير البرغوثي، الأمين العام للحزب، المقيم في الأرض المحتلة، وسليمان النجاب الذي أبعده سلطات الاحتلال عنها، صارا بين أقرب المقربين إلى ياسر عرفات.

المحطة التالية كانت تلك التي بدأت باتفاق أوسلو. هنا احتاج عرفات، الذي أعاده الاتفاق إلى أرض

الوطن، إلى مساندة الشيوعيين. كان الاتفاق المثير للجدل قد دفع معظم فصائل م. ت. ف. وكثيرين من أعضاء "فتح" ذاتها إلى معارضة سياسة عرفات كما تجسدت في هذا الاتفاق. الشيوعيون الفلسطينيون، وهم الذين لم تفتقر أدبياتهم إلى ملاحظات سلبية ضد هذا الاتفاق، لم ينضموا إلى معارضي عرفات، ولم يخذلوه، ولم يبخلوا عليه بالتأييد. لقد أوغل الحزب كثيراً في سياسة مساندة ياسر عرفات، وقبِلَ الأمين العام للحزب، بشير البرغوثي، أن يصير وزيراً في الإدارة التي أنشأها عرفات بعد عودته إلى الوطن، فضلاً عن استمراره في التمتع بموقعه الأثير عند الزعيم.

في هذه المحطة بالذات، بدّل الحزب الشيوعي الفلسطيني اسمه، فنحى منه صفة الشيوعية، وصار الأسم هو حزب الشعب الفلسطيني. وبتأثيرٍ مثابٍ من بشير البرغوثي ومن جاروه من أعضاء القيادة، عدّل الحزب برنامجه ذاته، ونحى منه ما يشير إلى شيوعيته. وقد بلغت درجة مساندة حزب الشعب لياسر عرفات حدّاً أطلق إشاعات وتكهنات نسبت لإقدام الحزب على تبديل اسمه إلى رغبة بشير البرغوثي وفريقه في إعفاء ياسر عرفات من اللوم الذي تصبه عليه الأوساط العربية المعادية للشيوعيين. هذه الإشاعات والتكهنات لم يظهر ما يؤكد صوابها، غير أن إطلاقها واستمرار بعضها إلى اليوم يدلان، مع دلائل أخرى، على عمق العلاقة وحميميتها بين ياسر عرفات وبين الشيوعيين.

يشار، هنا، في ختام هذه المقالة، إلى الحقيقة المعروفة، وهي أن "ركاح" الناشط داخل دولة إسرائيل، ظل، منذ تأسيسه حتى يوم الناس هذا، في طليعة الأحزاب الشيوعية، دعماً لمطالب الشعب الفلسطيني الوطنية وتشبثاً بحق هذا الشعب في الظفر بدولة خاصة به، ودفاعاً عن منظمة التحرير الفلسطينية. ويشار هنا، أيضاً، إلى أن ياسر عرفات كان بين أوائل قادة م. ت. ف. الذين التقوا قادة "ركاح". وقد نسج عرفات مع حزب الشيوعيين هذا علاقات اتسمت هي الأخرى بالثبات والحميمية والدعم والاحترام المتبادلين.



## أوراق فكرية







## الإخوان من التنظيم إلى السلطة

حلمي النمنم \*

في ٣٠ يونيو ٢٠١٢ أدى د. محمد مرسي اليمين القانونية أمام هيئة المحكمة الدستورية العليا كرئيس لجمهورية مصر العربية، حتى هذه اللحظة كان د. مرسي رئيساً لحزب الحرية والعدالة، القناع السياسي لجماعة الإخوان المسلمين وكان كذلك عضواً بمكتب إرشاد جماعة الإخوان، مكتب الإرشاد هو أعلى درجة تنظيمية بالجماعة، مثل المكتب السياسي للحزب الوطني الديمقراطي زمن حسني مبارك.

جاء مرسي إلى الموقع بانتخابات لم تكن نزيهة تماماً، فقد شابتها مخالفات عديدة لم يتم التحقيق فيها إلى الآن، بعض هذه المخالفات، مثل خروج البطاقات الانتخابية من المطبعة الأميرية وفيها علامة صح على اسم د. مرسي كانت كافية لإبطال الانتخابات في رأي بعض القانونيين، غير أن حالة التوافق العام ارتضت النتيجة تأسيساً على أنه لم يكن مقبولاً أن يأتي إلى الرئاسة الفريق أحمد شفيق تلميذ مبارك المباشر، وربما لأن معظم الأطراف السياسية في مصر أرادت الخلاص من الفترة الانتقالية بما فيها من اضطرابات بتجليس رئيس للجمهورية يملأ المقعد الشاغر منذ تخلي مبارك عن الرئاسة في ١١ فبراير ٢٠١١.

كان وصول مرسي إلى الرئاسة يمثل نقلة مذهلة في النظام السياسي المصري، بالنسبة لجماعة الإخوان فقد تربعت الجماعة على عرش مصر، رغم أنها كانت حتى تلك اللحظة، محظورة قانونياً، طبقاً

---

\* كاتب وباحث مصري

لقرار الحل الصادر بشأنها منذ سنة ١٩٥٤، ولم يكن في حلم الإخوان الوصول إلى الرئاسة، لتتذكر نداء المرشد العام للجماعة محمد مهدي عاكف في صيف ٢٠٠٥ على صفحات مجلة "آخر ساعة" بأنه يتمنى أن يجلس مع الرئيس وأنه سوف ينتخب مبارك لمدة رئاسية جديدة وأنه يتمنى من الرئيس أن يسمع منهم هم ولا يسمع عنهم فقط، وصدر عن قادة الجماعة في تلك الفترة ما يفيد الترحيب بجمال مبارك وريئاً للحكم، وطوال عام ٢٠١١ أعلن عدد من قادة الجماعة أنهم لن يخوضوا انتخابات الرئاسة المرشح وأنهم ليسوا في وضع يؤهلهم لذلك، ثم فاجئوا الجميع بدخول الانتخابات المرشحين اثنين، أحدهما أساسي هو خيرت الشاطر والثاني احتياطي هو د. محمد مرسي، بعض المعلقين اكتفوا بوصف الإخوان بأنهم كذابون، وهم كذلك في كثير من المواقف، لكن في حالة الانتخابات الرئاسية كان الأمر أكبر من مسألة الكذب.

من عام ١٩٣٠ التاريخ الرسمي لتأسيس الجماعة، وصدور أول لائحة لها وحتى سنة ٢٠١٢ مسافة طويلة وشاقة مليئة بالألغاز والتحويلات والصفقات.

الشائع أن الجماعة تأسست سنة ١٩٢٨، وهو تاريخ مشكوك في صحته، وهناك رأي بين بعض الدارسين الغربيين أن الجماعة تأسست سنة ١٩٢٩، تأسيساً على أن حسن البنا مؤسس الجماعة ذهب إلى الإسماعيلية في بداية العام الدراسي لسنة ١٩٢٨، وعادة يبدأ العام الدراسي في النصف الثاني من سبتمبر (أيلول)، ولم يكن ممكناً لشاب نزل غريباً بمدينة الإسماعيلية أن يبادر إلى تأسيس الجماعة، قبل أن يرتب أموره من حيث تسلم العمل كمدرس للخط العربي في إحدى المدارس الأهلية ثم يرتب حياته، وهكذا استقر رأيهم على أن الجماعة تأسست سنة ١٩٢٩، وهذا رأي ظني وتخميني، ولكن إذا أخذنا بالوثائق المتاحة فإن الجماعة تأسست سنة ١٩٣٠، ذلك أن أول لائحة لها والتي بمقتضاها نالت موافقة الجهات الرسمية صدرت سنة ١٩٣٠، وسوف نعتبر أن ذلك هو عام التأسيس وليس سنة ١٩٢٨ كما ذكر البنا نفسه وعنه ينقل كتاب الجماعة (١).

في تلك اللائحة نجد المادة الثانية تقول بالحرف الواحد "هذه الجمعية لا تتعرض للشؤون السياسية، أيًا كانت ولا للخلافات الدينية (٢)" وتتحدث اللائحة عن جمعية وليس عن جماعة، وعن مجلس إدارة ورئيس لهذا المجلس وليس عن مجلس شورى الجماعة ولا مكتب الإرشاد والمرشد العام، غير أن هذه اللائحة لم تعمر طويلاً، فبعد خمس سنوات تم تغييرها، لتصبح الجمعية جماعة وتحذف المادة الثانية بالكامل، وهذا يعني أن حسن البنا ومن معه قرروا أن يخوضوا في الشأن السياسي، وهذا ما حدث فعلياً بعد شهور قليلة وتحديداً مع تولي الملك فاروق عرش مصر.

كانت هناك اعتراضات على تولي الأمير فاروق عرش البلاد لصغر سنه - ١٥ سنة - وهكذا رأى فريق

من السياسيين المصريين أن يتشكل مجلس وصاية لإدارة شؤون البلاد إلى أن يبلغ فاروق السن القانونية، وكان زعيم الوفد مصطفى النحاس من أصحاب هذا الرأي وعدد من أمراء الأسرة المالكة، لكن والده فاروق الملكة نازلي ومعها الديوان الملكي وعلى رأسه علي ماهر (باشا) وبمساعدة إنجليزية قرروا أن يعود فاروق على عجل ويتولى العرش رسميًا، وهكذا قرر علي ماهر أن يكون هناك مشهد جماهيري لاستقبال الملك فور عودته من لندن، وكان أن استدعى علي ماهر حسن البنا وجماعته للتهاتف إلى الملك، وسعد البنا بهذا الاستدعاء وتحدث في مذكراته بفخر عنه وعن التهتافات التي هتفها للملك هو وأنصاره (٣) وكان من بين الذين هتفوا معه عمر التلمساني المحامي، الذي سيصبح مرشدًا عامًا بعد ذلك زمن السادات ومبارك.

عبر كواليس الديوان الملكي والباب الخلفي للسياسة دخل حسن البنا هذا المجال، صال وجال في كواليس السياسة المصرية، لعب مع كل طرف وضده، حدث ذلك مع الوفد وزعيمه النحاس باشا، وكذلك مع السعديين وزعيمهم النقراشي باشا، في صيف سنة ٤٧ كان النقراشي باشا يتهياً للسفر إلى الأمم المتحدة مطالبًا باستقلال مصر، وقد وقف الوفد ضد النقراشي بقوة، لكن حسن البنا قاد مظاهرة من أعضاء الإخوان لتأييد النقراشي والتهتاف له، يومها تحدثت السفارة البريطانية بالقاهرة في تقاريرها عن أن النقراشي دفع بسخاء للبنا كي يقود المظاهرة (٤) وفي العام التالي مباشرة كان تنظيم حسن البنا الخاص ينفذ عملية اغتيال النقراشي، الأمر الذي دعا الصحف المصرية أن تطلق على البنا "راسبوتين" السياسة المصرية، كان النقراشي قد أصدر قرارًا بحل جماعة الإخوان في سنة ١٩٤٨.

لم يعمل حسن البنا مع القوى المحلية في مصر فقط، لكنه بحكم المرحلة التي عاشها وظروف مصر والمنطقة تعامل مع القوى الكبرى أيضًا، في سنة ١٩٤١ بدأ تعامله المباشر مع المخابرات البريطانية (٥) وتعامل كذلك مع المخابرات الألمانية حين كان روميل يتهياً لدخول الإسكندرية وحين كان الملك فاروق وعلي ماهر يتعاملان معها، ثم سعى هو إلى السفارة الأمريكية بالقاهرة للتعامل معها، على النحو الذي كشفه سكرتيره الخاص محمود عساف في مذكراته وتكشفه أيضًا الوثائق الأمريكية.

بعد حل الجماعة واغتيال النقراشي في ديسمبر ٤٨، تم اغتيال البنا في فبراير ١٩٤٩، وظل قرار حل الجماعة ساريًا، حتى سنة ١٩٥٠، حيث عادت ثانية إلى العمل بمرشد جديد اعتقد كثير من قيادات الإخوان أنه جاء من خارج الجماعة، هو المستشار حسن الهضيبي، لكن تبين فيما بعد أنه لم يكن خارج الجماعة، بل كان ممن يطلق عليهم "الخلايا النائمة" فقد شرح هو قصة إعطاء البيعة لحسن البنا سنة ١٩٤١، وأنه ظل على علاقة خاصة به يتلقى توجيهاته، ولم يكن البنا يريد أن يعلن انضمام الهضيبي للجماعة، حتى لا يفهم بأنه يعمل على اختراق القضاء المصري (٦)، مع الهضيبي وفي عصر

الملك فاروق لم تتدخل الجماعة في السياسة على النحو الذي كان أيام حسن البنا، حتى قامت ثورة يوليو ١٩٥٢ فعادت سيرتها السابقة وكان أن قامت الجماعة بمحاولة اغتيال الرئيس جمال عبد الناصر في أكتوبر ١٩٥٤ بميدان المنشية في الإسكندرية، وإلى الآن هناك الكثير من الألغاز في هذه المحاولة، تتمثل في أن العلاقة بين عبد الناصر والإخوان لم تكن ساءت إلى الحد الذي يدفعهم إلى اغتياله، لكن كانت علاقة المرشد العام، آنذاك، توثقت مع السفارة البريطانية في القاهرة ومع المخابرات الخارجية البريطانية.. هل تمت هذه العملية بالتنسيق أو عبر الاختراق البريطاني للجماعة..؟

لا تسمح هذه الدراسة بالتوقف عند هذه العملية وتتبع ما وراءها، غير أن محاولة الاغتيال الفاشلة لعبد الناصر أدت إلى صدور قرار مجلس قيادة الثورة بحل جماعة الإخوان المسلمين، وهذا القرار مازال ساريًا ونافذًا إلى اليوم.

كان قرار الحل الذي اتخذته مجلس قيادة الثورة والتعامل الصارم والوعيف مع الجماعة سببًا كافيًا لاختفائها، وفي عام ١٩٦٤ كان الرئيس عبد الناصر بصدد إغلاق بعض الملفات السياسية فأفرج عن اليساريين وبدأ في الإفراج عن الإخوان وكان يستعد لبدء مرحلة سياسية جديدة تتيح قدرًا من التعدد السياسي داخل الاتحاد الاشتراكي تمهيدًا لعودة الأحزاب، لكن جاء عام ١٩٦٥ بغير ما يتوقع، حيث ضبط تنظيم جديد للإخوان بقيادة سيد قطب، يخطط للاغتيال وللعنف، والثابت من أوراق سيد قطب، التي كتبها بعنوان "لماذا أعدموني"، أن التخطيط كان لاغتيال عبد الناصر وزكريا محيي الدين وصلاح نصر وعلي صبري والمشير عامر، أي رؤوس الدولة، صحيح أنه لم تكن لديهم الإمكانيات للتنفيذ ولا السلاح الكافي، لكن التنظيم كان يعني بوضوح أن عقلية التنظيم الخاص الذي أسسه البنا لا تزال قائمة وحاكمة داخل الجماعة.

في العام ١٩٧٠ رحل عن عالمنا الزعيم جمال عبد الناصر ثم خلفه في رئاسة مصر محمد أنور السادات، وكل منهما عرف حسن البنا وتعامل معه، كان عبد الناصر أحد الضباط الذين دربوا مجموعات من الإخوان في صحراء المقطم استعدادًا لدخولهم فلسطين إلى جوار الفدائيين والمنتطوعين المصريين والعرب (٧)، أما السادات فقد عرف البنا وتعامل معه منذ سنة ١٩٤٠ وكتب عن هذه التجربة في أكثر من كتاب له.

مع صعود السادات إلى السلطة، كان في مصر بقايا للإخوان، تتمثل في المرشد العام حسن الهضيبي وعدد من القيادات القدامى، لكن لم يكن لهم تواجد بين الأجيال الصاعدة، كانت هذه الأجيال مشبعة بالأفكار القومية واليسارية، وكانت هناك بعض الاتجاهات الدينية تنمو من أثر هزيمة ١٩٦٧، ولو سارت الأمور على هذا النحو لانقرض الإخوان ودخلوا في ذمة التاريخ، غير أن الأعيب

السياسة كانت تحتاج إليهم وهذا ما حدث.

بعد حرب أكتوبر ١٩٧٣، قرر الرئيس السادات إعطاء قبلة الحياة لجماعة الإخوان من جديد، وهكذا عاد عدد كبير من أولئك الذين أقاموا سنوات بالمملكة العربية السعودية وسمح لهم بالعمل من جديد بين الشباب، خاصة في الجامعات (٨)، كان السادات يشعر بانزعاج شديد من الناصريين ومن اليساريين عموماً، ولم يكن نسي أصداء صراعه مع مجموعة علي صبري في مايو ١٩٧١، ورغم أنه خرج من ذلك الصراع منتصراً ووضعهم في السجون، وشهرتهم في الصحف، غير أنه كان يشعر أنهم أقوى منه حتى وهم في السجون، في تلك الفترة كانت نوادي الفكر الناصري قوية في الجامعات، فأطلق السادات التيارات الدينية وفي القلب منها الإخوان للتصدي لتلك النوادي، ولم يعد خافياً أن إزاحة الناصريين والقوميين واليساريين بالتيارات الدينية لم يكن هدفاً ساداً فقط، بل كان هدفاً عاماً لدى عدد من أنظمة الحكم في المنطقة، خاصة التي ترتبط بعلاقات قوية مع الولايات المتحدة ودول الغرب عموماً.

هكذا عاد الإخوان للعمل من جديد وغضت الدولة الطرف عن بعض ما جاء في قضية الفنية العسكرية، حيث ذكر طلال الأنصاري في مذكراته أنهم قبل الشروع في تنفيذ العملية التي استهدفت السادات نفسه حصلوا على إذن خاص من مرشد الجماعة حسن الهضيبي، ونقلت إليهم الإذن، الحاجة زينب الغزالي، وهي نفسها كانت الوسيطة من قبل بين نفس المرشد وسيد قطب في تنظيم ١٩٦٥.

ازداد اعتماد السادات على الإخوان وثقته بهم في أعقاب حادث ١٨ و ١٩ يناير ١٩٧٧ وكانت انتفاضة شعبية كادت أن تطيح بالسادات، لولا أن الأخير استعان بالجيش، وكان شرط وزير الحربية المشير محمد عبد الغني الجمسي أن يلغي السادات قرارات زيادة الأسعار التي ألهمت المتظاهرين، وضحت ثقة السادات بالإخوان بعد أن دعى المرشد العام عمر التلمساني إلى حضور لقاء مع السادات، في شهر رمضان، أذيع على الهواء وكان التلمساني جالساً في الصف الأول، وسمح له بالحديث، وتكلم كلمات بسيطة أخرجت السادات، ومما قاله السادات في هذا اللقاء مذكراً التلمساني بأنه سمح للجماعة بالعودة وسمح لمجلة الدعوة أن تعاود الصدور، لكن دون أن تهاجم سياسات الدولة.

في عهد السادات اخترق الإخوان مفاصل المجتمع المصري، طلاب الجامعات وعدد من النقابات المهنية، وأنشئوا المستوصفات الإسلامية بالمناطق الشعبية لعلاج الفقراء والاتجار في الأزياء الإسلامية أمام المساجد الكبرى وفي الجامعات، بتوفير الحجاب والعباءة للفتيات والسواك والجلباب للشباب.. وفي زمن السادات أرادت الدولة أن تتخفف من بعض مسؤولياتها تجاه المواطنين، خاصة في المناطق

الفقيرة ودخل الإخوان إليها، يوفرون مراكز الدروس الخصوصية للطلاب وأشياء من هذا القبيل، غير أن السادات لم يسمح لهم بالاقتراب من مؤسسات الدولة والعمل السياسي المباشر.. لكنهم باتوا في وضعية جعلتهم جاهزين لاختراق الدولة متى سنحت لهم الفرصة، وهو ما حدث، فلم تتأخر عليهم الفرصة طويلاً.

في ٦ أكتوبر ١٩٨١ جرى اغتيال الرئيس أنور السادات في منصة العرض العسكري بمدينة نصر، وقام بالاغتيال الملازم أول خالد الإسلامبولي وعدد من أعوانه المحسوبين على الجماعة الإسلامية، قبل اغتياله بأكثر من شهر كان السادات تحفظ على أكثر من ١٥٠٠ مواطن ومواطنة، يمثلون النخبة المصرية من كل التيارات، وكان بين المتحفظ عليهم عمر التلمساني المرشد العام للإخوان، ومن ألغاز تلك الأيام أن عددًا من قادة الإخوان غادروا مصر قبل أيام من قرارات التحفظ مثل مصطفى مشهور ومهدي عاكف وخيرت الشاطر، سافر مشهور وعاكف إلى ألمانيا وتوجه الشاطر إلى لندن، والثلاثة وردت أسماؤهم ضمن قوائم المتحفظ عليهم.. هل كان سفرهم مصادفة أم أن هناك من نبههم إلى ضرورة السفر من داخل نظام السادات أم من حلفائه في الغرب الذين كانوا على معرفة بما يخطط له السادات هذه عينة من التساؤلات التي لا نجد عليها إجابات قاطعة إلى اليوم.

جاء حسني مبارك إلى الحكم عقب اغتيال السادات محملاً بخبرات ورؤى ودروس أستاذه ومعلمه في السياسة، السادات نفسه، وضع هذا بجلاء في موقفه من الإخوان المسلمين، صحيح أن مبارك لم يفرج عن عمر التلمساني ضمن المجموعة الأولى، التي التقاها في القصر الجمهوري، وصحيح أيضاً أن الجماعة توقف نشاطها العلني منذ سبتمبر ١٩٨١، وكان مبارك مقتنعاً بدرس السادات أن الإخوان هم الحل الناجح لمواجهة اليسار عمومًا وأضاف مبارك إليهم الوفد.. أي المعارضة الديمقراطية والمدنية لنظامه، الذي هو امتداد طبيعي لنظام السادات وإن كان به بعض التعديل الشكلي، وقدم مبارك رسالة إلى الإخوان أنه يريد حكم القانون ويحترم أحكام القضاء، لذا حين صدر حكم القضاء الإداري بعودة مجلة الاعتصام والمختار الإسلامي التابعتين للإخوان سمح لهما بالصدور الفوري، وسمح لمصطفى مشهور وآخرين غيره بالعودة إلى مصر والعمل من جديد داخل الجماعة.

وفي بداية عهد مبارك كان اليسار قويًا في مصر ومؤثرًا، ولم يهادن اليسار حكم مبارك، كان حزب التجمع هو الحزب الوحيد الذي أعلن سنة ١٩٨٧ رفض الاستفتاء لدورة رئاسية جديدة يخوضها حسني مبارك، وكان رأي الحزب أن دورة واحدة تكفي لمبارك، ولم يغفرها لهم مبارك أبدًا، وفي بداية عهده أيضًا وجد حزب الوفد إقبالاً قويًا في الشارع في ذلك الوقت جرى الحديث عن انضمام فاتن حمامة للوفد وشرع د. يوسف إدريس كذلك في الانضمام للحزب، وحين كان الاستعداد يتم لانتخابات مجلس الشعب سنة ١٩٨٤، ذهب د. فؤاد محيي الدين فزعًا إلى مبارك من أن التقارير

تتحدث أن حزب الرئيس "الوطني" لا يمكنه الفوز بأكثر من ٢٠٪ وأن الأغلبية سوف تكون للوفدين واليسار، حكي مبارك ذلك إلى مكرم محمد أحمد رئيس تحرير المصور في أحد حواراته.

وكان أن أقدم مبارك على خطوة لم يفعلها من قبل أي من حكام مصر سواء في ذلك الملك فاروق أو محمد نجيب وجمال عبد الناصر والسادات، حيث سمح للإخوان أن يخوضوا انتخابات مجلس الشعب سنة ١٩٨٤ ضمن قوائم الوفد ونجح منهم ١٦ نائبًا وسمح لهم بالبروز الإعلامي ليكونوا هم وجه المعارضة بدلاً من الوفد والقوى الوطنية الأخرى، وكان ذلك بداية التمكين لهم داخل الدولة المصرية، بعد ذلك سمح لهم بخوض الانتخابات كمستقلين، حتى أن شعارهم في انتخابات ٢٠٠٥ كان من صياغة د. أحمد فتحي سرور رئيس مجلس الشعب "مشاركة لا مغالبة".

وجود الإخوان في البرلمان، بسماع من الرئيس نفسه، أتاح لهم أن يكونوا جزءًا من نظام الحكم، خاصة أنهم منذ برلمان سنة ٢٠٠٠ كانوا هم المعارضة في المجلس، أتاح لهم ذلك المشاركة في التشريع وفي الرقابة على أداء الحكومة، وتقديم الخدمات عبر الأجهزة الحكومية والمحلية للمواطنين في دوائرهم الخاصة، هم كذلك فهموا حدود اللعبة داخل البرلمان، كانوا دائماً مؤيدين لإعادة ترشيح مبارك للرئاسة، وأبدوا موافقات ضمنية ثم علنية بدءًا من عام ٢٠٠٥ على توريث الرئاسة لنجل مبارك، وفي الاستجابات التي تقدموا بها داخل المجلس، خاضوا في المناطق المسموح بها، أي إحراج وزير ما أو انتقاد عام للحكومة، أما توريث النظام فلم يفتربوا منها بالمرّة، وهذا ما كان يريده مبارك من المعارضة بالضبط.

أتاح وجود الإخوان في البرلمان الالتقاء تحت سمع وبصر الدولة بالأمريكيين والتباحث معهم ولن ينتبه مبارك إلى خطورة ذلك إلا في آخر عامين من حكمه.

كانت هناك مهمة أخرى للإخوان لدى مبارك، وشرع يعدهم لها منذ سنة ١٩٨٢ وهي أن يواجه بهم التيارات الإسلامية الأخرى، المتشددة أو المتطرفة، تحديداً الجماعة الإسلامية وتنظيم الجهاد، وهما من تورط في اغتيال السادات ثم في الهجوم على ضباط ومعسكرات الأمن المركزي في أسبوط، كانت تلك مشكلة تورتق مبارك، لذا نجده يفرج عن بعض رموز التشدد مثل أيمن الظواهري وعمر عبد الرحمن، ويسمح لهم بالخروج من مصر في إجراء غير معتاد في مصر، كانت العادة أن المفرج عنه في مثل هذه القضايا يظل فترة ممنوعاً من السفر، لكن هذه المرة كانت هناك رغبة في التخلص الناعم والهادئ منهم بتركهم يخرجون، وصل الأمر حد الإيحاء لبعضهم بالسفر، وهو ما فعله اللواء محمد عبد الحليم موسى مع د. عمر عبد الرحمن (٩).

قام الإخوان بتلك المهمة فقد وفقوا بضراوة ضد أفكار الخروج على الحاكم أو تكفيره، وكان ذلك

يتم بالتنسيق بين الجماعة وأجهزة الأمن في وزارة الداخلية (١٠)، وحين وقعت الحوادث الإرهابية في مصر منذ نهاية الثمانينات كان الإخوان يحاولون التوسط لدى الجماعات الأخرى للتهديئة أو هذا ما بدا وقتها.

كانت قنعة مبارك هي نفس قنعة السادات وزيادة أن الإخوان المسلمين جماعة معتدلة وأنهم لا يطمعون في الحكم وأنهم طلقوا العنف نهائيًا منذ سنة ١٩٦٥، وفوق ذلك لا يهاجمون الرئيس ولا أفراد أسرته ولا يمانعون في التوريث ولا يكثرون من الحديث حول الفساد، ولا ينتقدون علاقته مع الولايات المتحدة ولاحتظت الأجهزة الأمنية أنهم إذا شاركوا في مظاهرة ويظهر فيها هتاف عدائي للرئيس ينسحبون هم أو يقومون بالتكبير فقط.

كان مبارك يعرف أن هدف الجماعة منه أن يمنحهم الشرعية، وكان هو يلاعبهم بها، سمح لهم بكل شيء، في إطار أن تبقى الجماعة "المحظورة" (١١)، كانا يعملان عرفيًا وكانت الشرعية في يده هو، ذات مرة شبهت هذه العلاقة بأنها أقرب إلى علاقة بين رجل شهواني.. أناني ولثيم وامرأة لعوب، لا هي لديها الكبرياء لأن تبتعد عنه نهائيًا ولا هو لديه الشجاعة والقوة لأن يمنحها الشرعية ولا لديه قدر من الخلق والثقة التي تمكنه من الاستغناء عن هذه العلاقة، فقد كانت تؤدي له الكثير من الخدمات.

كان للإخوان مهمة أخيرة لدى مبارك ونظامه، كان مبارك قرر باسم الخصخصة مرة وباسم الديمقراطية مرة أن يتخلص من معظم أعباء الدولة تجاه مواطنيها، ملايين من المصريين يسافرون إلى العراق وإلى السعودية والإمارات ودول الخليج، وتفتح لهم الأبواب فتتخلص الدولة من أعبائهم ثم يقومون بتحويل العملة الصعبة لإنقاذ الاقتصاد المصري وقرر التخلص من المواطنين الأقباط تمامًا بإلقاء مسؤوليتهم بالكامل على الكنيسة المصرية وعلى قداسة الأنبا شنودة وصار هؤلاء المواطنون رعوية خاصة للبابا، صحيح أن الكنيسة يجب أن تتولاهاهم روحياً فقط، أما دنيوياً أيضاً فكان ذلك جديداً، الغريب أن رجال مبارك - فيما بعد - راحوا يشكون من أن الكنيسة تتحول إلى دولة داخل الدولة.

في هذا الإطار كان للإخوان نصيب غير قليل كانت القاهرة والمدن الكبرى تشهد نشوء ونمو تجمعات وأحياء عشوائية تمامًا، لا تقوم الدولة تجاهها بأي دور، وأعلنت الدولة عن خطط لتطوير هذه العشوائيات، والتي وضحت خطورتها منذ أحداث الأمن المركزي سنة ١٩٨٦، وتشكلت لجان وعقدت اجتماعات وكلف وزير الإدارة المحلية بمتابعة هذا الأمر، ولم يحدث شيء أكثر من هذا، هنا تركت الدولة هذه التجمعات والمجتمعات كلية للإخوان وللجماعات السلفية، وبعض الجماعات المتشددة، السلفيون والمتشددون قرروا إقامة الحدود على الأهالي في هذه المناطق، وبالطبع في مناطق فقيرة



ومحرومة لابد من انتشار المخدرات والجنس، واعتبر السلفيون أن رسالتهم تطبيق الحدود على هؤلاء "المارقين" أما الإخوان فقاموا بتوزيع الدقيق والسكر عليهم وتنظيم دروس خصوصية لأبنائهم ومستوصفات طبية وفي وسط هذا كله يبثون دعوتهم وأفكارهم، ظهر تواجدهم بقوة أثناء أحداث زلزال أكتوبر ١٩٩٢ وأتاحت الدولة لهم هذا الدور وسعدت به.

ولم تدرك دولة مبارك أن الإخوان صاروا بذلك شركاء في الحكم وفي الدولة.

لم تكن علاقة مبارك بالإخوان سمناً على عسل، ولا كانت ودودة، فقد صدم مبارك وأركان حكمه فيهم سنة ١٩٩٥، مع تفجير قضية "سلسبيل" التي تورط فيها عدد من قادة الإخوان، وجدت أجهزة الأمن في أوراق القضية مذكرة من ١٢ صفحة فولسكاب بعنوان "فتح مصر" تحدثت الوثيقة عن خطة الجماعة للتغلغل في النقابات المهنية وقطاعات واسعة من المجتمع وعدد من مؤسسات الدولة، كانت الوثيقة صادمة للجميع، بدءاً من مبارك، وبعدها بشهور بدأ اعتقال عدد من قيادات الجماعة وتم إحالتهم إلى المحكمة العسكرية، كشفت الوثيقة أن العلاقة بين الطرفين أو "الوليفين" بالتعبير المصري الشائع قائمة على الانتهازية المشتركة وتبادل المصالح وأنها تخلو من الحب أو الود. وكانت الأمور بين الطرفين وصلت إلى مرحلة لا يمكن لأي منهما أن يتراجع عنها ولا أن يتقدم عليها خطوة، صحيح أن الجماعة حاولت أن تعوض ذلك بإظهار مزيد من التحمل لقسوة الحبيب (مبارك) وإظهار فيض من المشاعر تجاهه هو ورجال حكمه، ولم يملوا من ذلك، في أثناء الانتخابات البرلمانية لعام ٢٠٠٥، قرر الإخوان عدم الدفع بأي مرشحين لهم في الدوائر وعلى المقاعد التي تقدم لها كل من د. أحمد فتحي سرور وكمال الشاذلي وذكريا عزمي وغيرهم، وفي حوار له بالمصري اليوم برر د. محمد مرسي القيادي بالجماعة - رئيس الجمهورية الآن - ذلك بأن الجماعة ترى أن هؤلاء رموز وطنية لا يجوز منافستهم وقال أيضاً إن الجماعة كانت تنوي أن تفعل الشيء نفسه مع المهندس أحمد عز باعتباره رمزاً وطنياً، لكنه هو لم يسمح لهم بذلك، إذ أنه دائم الهجوم العنيف عليهم، أي أنهم يريدون وصلاً معه لكنه لا يمنحهم الفرصة لذلك.. وفي نفس التوقيت تحدث مرشد عام الجماعة محمد مهدي عاكف بفيض من الثناء والود والإكبار على الرئيس مبارك.

وحين كان حسني مبارك يعالج في أحد مستشفيات ألمانيا، سنة ٢٠٠٩، خرج مرشد عام الجماعة د. محمد بديع على شاشة قناة "دريم"، برنامج "العاشرة مساء" داعياً إلى الرئيس بالشفاء، ولا بأس بذلك، لكنه قال إن الذي ينالم في المستشفى ليس رئيس الحزب الوطني ولا رئيس مصر فقط إنه أب لكل المصريين، وهو تعبير لم يقل به أي من أنصار مبارك، وكانت الكلمة غريبة على الأسماع، كانت فكرة الأبوة السياسية ابتعدت كثيراً عن الأذهان والتصورات السياسية، خاصة في عهد مبارك الذي كان يردد دائماً أن مصر تعيش دولة المؤسسات وأن القانون وأحكام القضاء تحترم في عهده ولا يتم

الخروج عليها.

ظلت العلاقة تترنح بين شد وجذب، يظهر النظام بين حين وآخر "العين الحمراء" للجماعة من باب التذكير فقط بأن الدولة حاضرة، وهنا لابد من أن نتذكر تصريحاً مهماً من اللواء عمر سليمان حين قرر الترشح للانتخابات الرئاسية، قال مهدداً الإخوان بأن لديه الصندوق الأسود الخاص بهم، وقال مذكراً لهم بأن المخبرات العامة في عهده كانت "الصدر الحنون" للجماعة ولقياداتها، هو لم يذكر أي تفاصيل لكن الإشارة واضحة تماماً.

حين قامت ثورة ٢٥ يناير، كان الإخوان آخر من لحق بها وشارك فيها، وثبتت اجتماعات اللجنة الوطنية للتغيير أنه في الأسابيع السابقة على قيام الثورة وأثناء التجهيز للخروج في مظاهرات يوم ٢٥ يناير، رفض قادة الجماعة المشاركة في المظاهرات وقللوا من أهميتها، وبات معروفاً الآن أن اللواء عمر سليمان نائب رئيس الجمهورية شرع في إجراء حوار مع القوي السياسية وكان هدف الحوار الحيلولة دون خروج مبارك من الحكم واستمراره حتى شهر سبتمبر ٢٠١١، حيث يكمل مدته الرئاسية، وكان قادة الإخوان الأسرع إلى الاستجابة للجلوس وللحوار مع عمر سليمان مقابل أن يحصلوا على حزب باسمهم، أي الشرعية التي سعوا إليها عقوداً.

وسقط حسني مبارك في ١١ فبراير وبدأت المرحلة الانتقالية التي أدار فيها المجلس العسكري البلاد وكان الواضح أن الأمور تسير بقصد أو بدون قصد لكي يتم تسليم مسؤولية مصر إلى "التيار الديني" تسليم مفتاح، بدءاً من الاستفتاء على التعديل الدستوري في ١٩ مارس ٢٠١١، ورفض المجلس العسكري نداء القوى والتيارات المدنية بضرورة أن يكون الدستور أولاً، وقرر أن يكون الدستور أخيراً، وهكذا دخل المصريون استفتاء ١٩ مارس بدعاية تقول إن من يقول "نعم"، أهما يقولها للإسلام ومن يقول "لا" فهو يعترض على الإسلام، وسارت دعاية مفادها أن الذين يريدون الدستور أولاً يريدون إلغاء المادة الثانية من دستور ١٩٧١ ويعلنون الحرب على الإسلام، وهكذا أدارت العملية السياسية وكأنها صراع حول "الإسلام".

ثم سمح بقيام أحزاب سياسية على أسس دينية، فانطلق الإخوان وحواشيهم يشغلون الساحة ولديهم التنظيمات التحتية والتمويل الضخم، غير معلى المصدر.

سارت المرحلة الانتقالية بطريقة تقود إلى الإخوان المسلمين، معروف الآن أنه كانت هناك مساندة قوية من الإدارة الأمريكية لجماعة الإخوان، وهناك الكثير من الأسرار والألغاز في تلك المرحلة تحتاج الكشف والإعلان، وفي الشارع المصري الكثير من الشائعات في هذا المجال، حول المساندة من بعض الأطراف في الإقليم والتي وصلت حد التآمر والتواطؤ للدفع بالإخوان، مثل الذي فتح السجون يوم

٢٩ يناير ٢٠١١ ومن أحرقت ملفات المساجين في ملف وادي النطرون الذي كان يمثل فيه د. محمد مرسي ومثل التحويلات المالية الضخمة التي وصلت لبعض الجمعيات الدينية ثم آلت في النهاية إلى الدعاية الانتخابية و...

المهم سعد د. محمد مرسي إلى الرئاسة، ورغم أن قطاعاً كبيراً من الناخبين اختاروه خوفاً من البديل وليس اقتناعاً أو قبولاً به وبعضهم يتحدث الآن عن أنه "عصر على نفسه ليمونة" واختاره، لكن الجماعة اعتبرت نفسها هي الفائزة وأنها هي التي تربعت على عرش مصر، ومن هنا ظهرت العديد من الأزمات.

غير أن صعود الجماعة على هذا النحو كشف الحقيقة، فتبين أنها لا تملك مشروعاً للدولة ولا حلمًا للنهضة، أو مشروع النهضة كما قامت دعايتها الانتخابية، وضح كذلك أنها لا تملك مشروعاً للإحياء وللتجديد الإسلامي، تكشفت الأمور وهو أنها مشروع للسلطة، مشروع عاش في الكواليس وفي الظلام ولما حانت الفرصة للخروج إلى النور والعلن، تبين أنه حتى بهذا المعيار مشروع قاصر إلى أبعد حد، وتلك قضية أخرى.

## المراجع:

- (١) حسن البنا مذكرات الدعوة والداعية.
- (٢) نشر جمال البنا شقيق حسن البنا الأصغر نص هذه اللائحة والتعديلات التي تمت عليها بعد ذلك.. راجع جمال البنا وثائق الإخوان ج ١ وج ٢.
- (٣) كتب حسن البنا فصلاً من مذكراته عن مشاركته في هذا الاستقبال، ثم قامت الجماعة بحذف هذا الفصل ابتداءً من عام ١٩٧٦ حين أعادوا نشر المذكرات، كانت الطبعة الأولى من المذكرات صدرت سنة ١٩٥٠ وكان البنا نشرها فصولاً في مجلة الإخوان، راجع في ذلك حلمي النمنم: حسن البنا الذي لا يعرفه أحد، مكتبة مدبولي.
- (٤) محسن محمد: من قتل حسن البنا، دار الشروق.
- (٥) رصد مارك كورتيس تفاصيل هذا التعامل وامتداداته بعد ذلك، حتى سنوات الخمسينات في كتابه "التاريخ السري لتأمر بريطانيا مع الأصوليين"، ترجم الكتاب: كمال السيد ونشره المركز القومي للترجمة بالقاهرة سنة ٢٠١٣.
- (٦) أسعد سيد أحمد: الإسلام والداعية.. الإمام المرشد حسن الهضيبي، ج١، طبعة دار الأنصار، ص ١٢ و ١٥.
- (٧) ما تزال علاقة عبد الناصر بالإخوان موضع لغط، فريق من الإخوان زعم أنه انضم إلى التنظيم الخاص وبايع حسن البنا، وتزيد بعضهم إلى حد القول إن البنا أوصى بأن يكون عبد الناصر مرشداً عاماً من بعده، ولا توجد شواهد تثبت شيئاً من ذلك حتى الآن.
- (٨) شرح محمد حسنين هيكل في كتابه "خريف الغضب" تفاصيل الترتيبات التي وضعها السادات مبكراً لعودة الإخوان بتدخل من كمال أدهم مدير المخابرات السعودية.
- (٩) راجع في ذلك: حمدي البطران: "الأمن من المنصة إلى الميدان".. الناشر: دار العين، والمؤلف لواء سابق في وزارة الداخلية.
- (١٠) ماهر فرغلي: الجماعة الإسلامية في مصر من العنف إلى المراجعات.. دار الانتشار العربي - ٢٠١٢.
- (١١) د. هشام العوضي: صراع على الشرعية - الإخوان المسلمون ومبارك- ١٩٨١ - ٢٠٠٧، مركز دراسات الوحدة العربية - ٢٠٠٩.



## آفاق الحراك الشعبي للثورة المصرية

محمود الورداني \*

( ١ )

كاتب هذه السطور يعتبر نفسه سعيد الحظ الى أقصى حد . فلم يحدث أن اهتز قلبي الى هذا الحد على مدى ستين عاما . كان يوم ٢٥ يناير ٢٠١١ يوما عاديا مثل سائر الايام . وكانت المواقع الالكترونية وبعض الصحف قد نشرت خبر تنظيم مظاهرة في ذلك اليوم ، والمفارقة انه كان يصادف عيد الشرطة . وكنت قد انتويت المشاركة مثلما اعتدت . أقف قليلا داخل القفص لأجأر بالهتاف ساعة أو ساعتين وقد أحاطت بي دروع من جنود الأمن المركزي الغلابة والمدربين على النهش . وبالفعل بعد الساعة الواحدة بدقائق ، كان هناك عشرات قليلة أسفل مبنى محكمة النقض بدار القضاء العالي في قلب القاهرة . وكالعادة أيضا كان مفترضا أن أدخل القفص شأن العشرات و " أتسلى " كما كان الرئيس قد قال ساخرا قبل أيام قليلة معلقا على نشاط المعارضة . لاحظت أن الجنود لايمنعون أحدا من الانضمام الى المظاهرة ، لكنهم يحيطون بها جيدا ويحكمون الحصار حولها .

كان اليوم عطلة رسمية والشوارع شبه خالية ، فعبرت الشارع ، وبدلا من أن أدخل القفص ، خطر لي أن أستمر في السير ، وانحرفت الى الشارع المجاور ، حيث يقع مبنى نقابة الصحفيين التي تحولت في الفترة الأخيرة الى أحد معاقل الوقفات الاحتجاجية ضد نظام مبارك ، لكنني لم أجد سوى أربعة أشخاص فقط . سألتهم عن الأحوال ، فابتسم أحدهم قائلا انهم في انتظار الفرج !

---

\* كاتب وباحث مصري

قلت لنفسي : لأتمشى قليلا .. وواصلت سيري في الشارع وعدت الى دار القضاء العالي لأدخل القفص ، أي الى تلك المظاهرة السابق الاشارة لها ، وعندما وصلت الى بدايتها ، فوجئت ان هناك مظاهرة أخرى نجحت في اختراق الطوق الأمني وانطلقت في شارع رمسيس المؤدي الى ميدان التحرير . منذ تلك اللحظة تغير وجه بلادنا الى الأبد وسقط النظام . رأيت تلك المعجزة الأسطورية تتشكل أمامي : عشرات ثم مئات ثم آلاف أوقفوا السير في الشارع وراحوا يندفعون في اتجاه ميدان التحرير.

## ( ٢ )

مر ما يزيد على العامين منذ قيام الثورة ، وكاد الاتفاق ينعقد بين أغلب القوى المدنية ' على أن الثورة قد تم الغدر بها أو سرقتها لحساب الاسلام السياسي . والآن فإن كل الاحتمالات متوقعة ، بدءا من نزول الجيش الى تمرد قوات من الداخلية (حدث هذا بالفعل وتمرد قسم لا يستهان به من تشكيلات الأمن المركزي) الى إجراء انتخابات رئاسية مبكرة ، بل ان اندلاع انتفاضة جياع أمر ليس مستبعدا ، وربما يكون احتمال استمرار الاخوان المسلمين حتى موعد الانتخابات الرئاسية بعد أربع سنوات هو الاحتمال المستبعد الوحيد حتى الآن .

لن تتناول السطور التالية تلك الاحتمالات إلا في علاقتها بالحراك الشعبي الذي لم يهدأ لحظة واحدة سواء خلال حكم العسكر الذي امتد من ١١ فبراير ( شباط ) ٢٠١١ وحتى ٣٠ يونيو ( حزيران ) ٢٠١٢ ، أو خلال حكم مرشح الاخوان محمد مرسي منذ ٣٠ يونيو وحتى الآن ، بل الأهم أن ذلك الحراك ازداد اشتعالا .

والمقصود بالحراك الشعبي خروج الكتل الجماهيرية الحية من القفص ، وهي كتل تختلف في توجهاتها وأساليبها ومواقفها الى هذا الحد أو ذاك ، عن الكتل التي مهدت للثورة منذ تأسست حركة ( كفاية ) ، مروراً بحركة ٩ مارس لاستقلال الجامعات ، وحركة استقلال القضاء ، وحركة ١٦ ابريل ، وحركة النقابات المستقلة ، واشتداد ساعد منظمات المجتمع المدني ، والدور الذي لعبه د . محمد البرادعي ، ومن قبله المواجهة التي كان الكاتب اليساري الراحل محمد السيد سعيد قد أجراها مع حسني مبارك في معرض الكتاب بالقاهرة في مطلع عام ٢٠٠٥ ، وهي مواجهة علنية تضمنت تنديدا بخطايا جهازه القمعي ضد المواطنين وخصوصا مواطني سيناء . وعاقب مبارك مفكري ومثقفي مصر بإلغاء لقائه السنوي بهم ، وهو اللقاء الذي كان قد اعتاد عليه - كجزء من الديكور الديمقراطي - منذ أكثر من عقد من الزمان . بطبيعة الحال تلك الكتل تضم في صفوفها النخبة بالأساس وتؤثر بشدة في القطاعات المدنية من الجماهير ، وفي الوقت نفسه لم تستطع أن تمارس هذا التأثير نفسه في جماهير الفقراء في أعماق القرى

والنجوع والمصانع ، بينما تمكن الاخوان المسلمون من ممارسته باللعب على المشاعر الدينية للبسطاء ، فضلا عن تقديم خدمات مختلفة وتوزيع المواد الغذائية على الفقراء خصوصا في مواسم الانتخابات ، اما السلفيون فقد تمكنوا من ممارسة تأثيرهم من خلال آلاف المساجد والزوايا المنتشرة في كل مكان .

### ( ٣ )

وإذا كانت الاعداد التي خرجت خلال الثمانية عشر يوما الأولى للثورة تقدر بالملايين في كل المدن ، فإن هذا معناه أن مصر كلها تقريبا لحقت بقطار الثورة . وإذا اضيف الى هذا أن من تحمل عبء الثورة هم الشبان والشابات ، فإن هذا يعني أيضا استمرار الثورة ونفْسَهَا الطويل . وفي هذا السياق فإن اعتماد الثورة على شبكات التواصل الاجتماعي منحها خيالا جديدا يكاد يتقاطع جذريا مع كل ماسبقها من احتجاجات وانتفاضات وهبات جماهيرية .

ويمكن اعتبار كتاب الناشط الشاب وائل غنيم عن هذا الملمح الأساس من ملامح الثورة المصرية ، من أهم الأعمال التي سردت التجربة الأسطورية ، عندما تأسست صفحة " كلنا خالد سعيد " - الشهيد الذي كان في العشرينات من عمره ، وتم ضربه حتى الموت من جانب الشرطة في السادس من يونيو (حزيران ) عام ٢٠١٠ - وانضم إليها أكثر من مئة ألف شاب في غضون أيام قلائل ، وكانت التمهيد والتدريب المباشر للثورة التي مالبت أن اندلعت بعد شهور قليلة .

غني عن البيان ان اعتماد الثورة على الميديا الحديثة ليعني مجرد تغيير في الأساليب النضالية ، بل الأهم أنه تغيير في منطلقات الخيال وارتياحه آفاق تتجدد على الدوام ، وهو ماسأعود إليه لاحقا .

من جانب آخر ، فإن هؤلاء الثوار - أعني كتلتهم الأساس - لا ينتمون الى أيديولوجية أو أحزاب سياسية أو حركات محددة ، بل الأغلب انهم وجدوا أنفسهم في الشارع يواجهون القمع والتنكيل ، سواء خلال حكم مبارك أو العسكر أو الاخوان المسلمين ، واستمدوا أفكارهم من تجربتهم المباشرة في الحركات الاحتجاجية والاعتصامات ، وصولا الى العصيان المدني في بعض المحافظات أخيرا .

ومن بين ملامح الثورة أيضا سلميتها التي أذهلت العالم ، لكن الأهم أنها أدت الى انضمام عشرات الآلاف اليها منذ أيامها الأولى . وأخيرا عدم وجود قيادة محددة لملايين اعتصموا في كل ميادين مصر ، وقرروا رحيل مبارك دون أي تفاوض وهو مامنحها حرية مطلقة ووفرلها الحماية من الضربات الأمنية .

أما أهداف الثورة الأساسية فلم تتغير حتى الآن ' وهي عيش - أي خبز - حرية .. كرامة .. عدالة اجتماعية ، ليس فقط لأن أيا منها لم يتحقق ، بل أيضا لأنها الأهداف التي لم يختلف عليها أحد ، بما

في ذلك الفصائل المنتمية للإسلام السياسي التي شاركت بعد عدة أيام من اندلاع الثورة مثل الاخوان المسلمين ، أو بعد خلع مبارك بالفعل مثل بعض تيارات السلفية التي كانت ترى ان طاعة أولي الامر قاعدة شرعية.

أهداف الثورة إذًا، تلعب دورها في الحراك الشعبي وتمنحه استمرارا ونفَسًا طويلا كما أسلفت ، وبالتالي فإن مواصلة الاحتجاجات والمظاهرات والمسيرات والاعتصامات لتحقيقها استمرت وسوف تستمر .

وإذا وضع القارئ في اعتباره التدهور الاقتصادي الحاد والنزيف المستمر لما تبقى من موارد ، ومارتكبه المجلس العسكري من خطايا كارثية خلال الفترة الانتقالية من المماثلة في تنفيذ مطالب الثورة والاقتصر على وقف التوريث ، وكذلك مساعدة الاخوان وتمكينهم من الحكم ، وخوضهم سلسلة من المعارك والمذابح العنيفة ضد الثوار خلال عامي ٢٠١١ و ٢٠١٢ ، فيما عرف بمذابح محمد محمود ومجلس الوزراء ومحيط وزارة الداخلية ، والمذابح المماثلة في الاسكندرية وسلسلة من المحافظات ..

وإذا وضع القارئ في اعتباره أيضا ازدياد عدد الشهداء ، وتضاعف أعداد الجرحى ، ومن انتهكت أعراضهن في المظاهرات أثناء فضها بالقوة ، ومن عذبوا وجرى التنكيل بهم في الأقبية والسجون ، ومن قتلوا بالرصاص الحي والخرطوش ، ومن اختنقوا بقنابل الغاز أمام القصر الرئاسي ، ثم من اختطفوا وتعرضوا للتعذيب في أكشاك حراسة القصر الرئاسي على يد عناصر من الاخوان المسلمين خلال شهري نوفمبر وديسمبر ٢٠١٢ .

ولعله من المفيد هنا أن أشير الى أن الكتل الجماهيرية السابق الاشارة لها لاتتنمي الى طبقة اجتماعية واحدة، صحيح انها تشكلت أساسا من فقراء المدن، إلا أنه صحيح أيضا ان قطاعات واسعة من المتعلمين وأبناء الطبقة الوسطى ومسائير الناس والميسورين شاركوا ويشاركون بقوة.

إذا وضع القارئ كل هذا في اعتباره، فإن آفاق الحراك الشعبي تبدو مرشحة لمزيد من المعارك الطاحنة.

#### ( ٤ )

والحال، أن الأعداد الضخمة التي شاركت في الاعتصامات والاحتجاجات والمسيرات ، ينخرط المزيد منها كل يوم في النضال العملي ، ووقودها الأساس هم الشباب ، وتعتمد أساسا على الميديا الحديثة وعلى الأخص شبكات التواصل الاجتماعي ، كما أنها لاتتنمي الى أيديولوجية محددة ، ولم تتحقق أهدافها بعد مرور عامين من المعارك الطاحنة ، مع مزيد من التدهور الاقتصادي الحاد ، واتساع المعارك والمذابح وسقوط الشهداء والمصابين على نحو شبه يومي ، وسلمية الثوار وعدم وجود قيادة محددة .. إن كل هذه الوقائع تشير بالقطع الى استمرار هذا الحراك ، بل واتساعه يوما بعد يوم .

يضاف الى ماسبق أن حاجز الخوف سقط الى الأبد ' فقد شاهدت بنفسي بعد ظهر يوم ٢٥ يناير - في



اليوم الأول للثورة - شبابا سيكون ، حرفيا سيكون ، عندما نجحت أول مظاهرة في اقتحام ميدان التحرير ، كما شاهدت بنفسي ذلك الشاب الذي وقف في عرض الشارع الخالي ، في هذا اليوم نفسه ، بثبات مخيف ، بينما مدرعة الشرطة التي تستخدم خرطوم المياه لتفريق المتظاهرين تتقدم نحوه مسرعة . انتظر الشاب بهدوء حتى اقتربت المدرعة منه وكادت تدهسه ، فقفز قفزة أسطورية ، طار في الهواء حقيقة وليس على سبيل المجاز ، وهزم الوحش الذي كان يستعد لإطلاق خرطوم مياهه .

وطوال الأيام ، بل والساعات التالية ، وحتى إجبار المخلوع على التنحي في ١١ فبراير ( شباط ) كان المصريون يهزمون عقودا من الخوف والرعب والإذلال والنيل من الكرامة وإفساد الروح ، تلال من سلاسل القمع و الفقر والفساد المنظم أزاحها المصريون كل ساعة من أيام ثورتهم حتى أجبروا الديكتاتور على الرحيل.

لدى كاتب هذه السطور يقين يتأكد يوما بعد يوم أن أهم ماأنجزته الثورة هو إلحاق الهزيمة بالخوف الذي عشنش في الصدور على مدى ستين عاما ، واستبدال الجساسة والجرأة والخيال الجديد الشاب به ، ومهما جرى ومهما تعرضت الثورة المصرية للعثرات ومحاولات الاختطاف ، إلا أن الحقيقة المؤكدة أن المصريين هزموا الخوف.

هذه الحقيقة الساطعة تدعو للاطمئنان بقوة على مستقبل الحراك الشعبي ،لنتذكر فقط اننا أمام ثورة ذات خيال مختلف ، تم الاعداد لها علنا وعلى رؤوس الأشهاد، بل ان كاتبها مثل د. هشام يونس كتب على موقع " فيس بوك " في ٢٤ يناير - قبل الثورة بيوم واحد - مامعناه انه لا توجد ثورة بموعد مسبق ، في إشارة الى الدعوة التي أطلقها الشباب على الموقع ذاته بالنزول والتظاهر والقيام بالثورة ، مؤكدا ان تحديد هذا اليوم مجرد بلاغة ، وهو نفسه - يونس - سرعان ماأصدر واحدا من أهم الكتب عن الثورة قبل أن ينصرم عامها الأول .

ومع كل هذا فإن طريق الحراك الشعبي المؤدي لتحقيق أهداف الثورة ليس مفروشا بالورود، خصوصا بعد تسلم الاخوان المسلمين السلطة بتنصيب محمد مرسي رئيسا للجمهورية ، وبدء عملية التمكين حسب المصطلح الاخواني ، والذي يقضي بالتسلل الى مفاصل الدولة العميقة بزرع الأنصار والكوادر في مختلف الأجهزة والمؤسسات وتوليهم مناصب تنفيذية حاسمة ' مستخدمين في هذا السبيل كل الأساليب العنلية والمفضوحة والعنيفة كلما لزم الأمر.

فعلى سبيل المثال نظمت جماعة الاخوان المسلمين وحلفاؤها من السلفيين حصارا لمقر المحكمة الدستورية العليا على مدى شهر كامل لمؤيدي قرارات الرئيس مرسي رئيس الجمهورية في ديسمبر ٢٠١٢ ، لمنعها من النظر في دستورية مجلس الشورى والجمعية التأسيسية لوضع الدستور ، وكان قد

تحدد لنظرها يوم ٢ ديسمبر . وكان رئيس الجمهورية قد أصدر منفردا إعلانا دستوريا في ٢٢ نوفمبر ٢٠١٢ لم يجرؤ أي من حكام مصر السابقين على إصدار مثيله ، حيث تضمن على سبيل المثال " الاعلانات الدستورية وقرارات رئيس الجمهورية منذ ٣٠ يونيو ٢٠١٢ وحتى نفاذ الدستور تكون نهائية وغير قابلة للطعن عليها وتنقضي كافة القضايا المنظورة أمام القضاء بشأنها " ، كما تضمن أنه " لايجوز لأي جهة قضائية حل مجلس الشورى أو اللجنة التأسيسية " ، وتضمن أن " لرئيس الجمهورية إذا قام خطر يهدد البلد وسلامته أو يعوق مؤسساته أن يتخذ الاجراءات والتدابير على النحو الذي ينظمه القانون " ، فضلا عن منح رئيس الجمهورية حق " اتخاذ اجراءات استثنائية لحماية الثورة " دون تحديد .

هذا مجرد مثال فقط للأساليب العلنية المفصوحة لمحاولات الاخوان المحمومة لحرث الأرض على الصعيد الدستوري ، وذلك لتمرير دستور وضعته جمعية تأسيسية مشكوك في شرعيتها واستقالت منها غالبية القوى المدنية فضلا عن الأزهر والكنيسة ، ومالجا إليه رئيس الجمهورية يدل على مدى الخطل والتخبط من ناحية ، وشهوة السيطرة وفرض النفوذ مع إقصاء وتهميش المختلفين وليس مجرد المناوئين من ناحية أخرى .

مثل هذا الإعلان لا يصدر إلا عن عتاة الديكتاتوريين الذين يندر أن يوجد الزمان بأمثالهم ، فالرئيس يحصن قراراته وإعلاناته باعتبارها نهائية وغير قابلة للطعن عليها ، والأشد خطرا انقضاء كافة القضايا المنظورة أمام القضاء. وإذا أضفنا الى هذا ان البلاد بلا برلمان ' بعد حل البرلمان السابق بحكم المحكمة ، فإن هذا معناه ان الرئيس قابض على السلطتين التشريعية والتنفيذية في آن معا ، ويمارسهما منفردا ، بينما مجلس الشورى المهيم عليه من جانب الاخوان والسلفيين يرتكب الخطايا والموبقات ' بإصدار قوانين تستكمل حرث الأرض وتههيدها لصالح الاخوان .

#### ( ٥ )

أثناء كتابة هذه السطور ، دارت واحدة من أكثر المعارك شراسة وعنفا ، عندما توجه عدد من الشباب المعارضين لممارسات الاخوان السياسية لمقر الجماعة ، ليرسموا رسومهم الجرافيتي على الأرض أو الجدران ، مثلما كان آخرون قبل اسبوعين توجهوا لذات المقر، ورقصوا الرقصة المعروفة " هارلم شيك " احتجاجا أيضا على ممارسات الاخوان ، وانصرفوا في هدوء ، لكن الاحتجاج الأخير انتهى نهاية دامية .

وهنا أود أن أفتح قوسا لأوضح ان الوضع القانوني والرسمي للجماعة هو انها جماعة محظورة حيث تم حلها بالفعل منذ عام ١٩٥٤ بعد محاولتها اغتيال جمال عبد الناصر ، وظلت على مدى السنوات السابقة جماعة محظورة بقوة القانون ' ومع ذلك حافظت على وجودها ، على الرغم مما تعرضت له من اعتقال وقمع وتعذيب اعضائها ، خصوصا في أعقاب محاولة اغتيال جمال عبد الناصر . والمجال هنا

ليس مناسباً للاستطرد كثيراً فيما يتعلق بالدور الذي لعبه الإخوان في الحياة السياسية المصرية ، وإن كان ممكناً أن يرجع القارئ الى كتابين بالغى الأهمية في هذا الخصوص ، وهما كتاب الباحث الراحل حسام تمام " الإخوان المسلمون قبل الثورة " وأصدرته دار الشروق ، والثاني " سر المعبد " لأحد المنشقين عن الإخوان وهو الاستاذ ثروت الخرباوي وأصدرته دار نهضة مصر .

على أي حال ، نجحت الجماعة في ظل الظروف المعاكسة في التواجد بقوة ، بل وحصلت في الانتخابات البرلمانية عام ٢٠٠٥ على ثمانين مقعداً ، وفي سياق حكم حسني مبارك كان الإخوان جزءاً أساسياً من المعادلة السياسية ، وذلك بسبب اعتماد مبارك على تخويف الغرب والولايات المتحدة بأنهم البديل الوحيد لحكمه ، وهو ما أدى الى حرصه على تواجدهم بالقدر الذي يحتاجه ووفق صفقات محددة لم تعد سرا الآن ، من بينها مثلا السماح لهم ولحلفائهم بامتلاك قنوات فضائية دينية ، أو دور نشر ، أو مقاعد في البرلمان ، أو الانخراط في أعمال خيرية مثل انشاء مستوصفات علاجية وتوزيع مواد غذائية على الفقراء ، كما سمح لهم أيضاً بالتواجد القوي في أغلب النقابات المهنية والاتحادات الطلابية .. الخ.

أعود الى المعركة التي دارت بين الإخوان والقوى المدنية خلال النصف الثاني من شهر مارس هذا العام ، وتتلخص في قيام عدد من الشباب المعارض للإخوان بالتوجه الى مقر الإخوان الذي تم بناؤه بعد الثورة ، ورسوموا رسومهم الجرافيتي - كما سبقت الإشارة - احتجاجاً على إقصاء الجماعة وتهميشها لكل القوى السياسية ، وانفرادها بالحكم والاستحواذ على السلطتين التشريعية والتنفيذية ، وانفرادها كذلك بكتابة الدستور على هواها ، والأخطر انها تنفرد أيضاً بامتلاكها ذراعاً سياسية - "حزب الحرية والعدالة " - الذي تأسس بعد الثورة ، الى جانب وجود جماعة الإخوان المسلمين المحظورة قانوناً والمفروضة بحكم الأمر الواقع وممارسة دورها كحاكم لمصر ، وهو الأمر الذي يفسر توجه الشباب للاحتجاج أمام مقر الحكم الحقيقي ، وهو مقر الإخوان الرسمي ، بدلا من التوجه الى قصر الرئاسة .

وفور توجه الشباب للاحتجاج السلمى برسوم الجرافيتي ، بادر حراس المقر وشباب الجماعة بالاعتداء على شباب المعارضة ، ولم يفرقوا بين الشبان والفتيات ، كما قاموا بتكسير عظام - حرفياً - عدد من الصحفيين الذين كانوا يقومون بواجبهم المهني بتغطية الحدث ، وقد تم توثيق كل وقائع الاعتداء بالفيديو وأذاعته الفضائيات ونشرته الصحف .

وعلى مدى اسبوع كامل قام الشباب بالتردد على المقر والتظاهر في محيطه ، تمهيداً لمليونية أسموها "جمعة رد الكرامة" ، حيث سعد الى هضبة المقطم عدة آلاف ، إلا أن الأمر تطور وحدثت عدة اشتباكات وجرح عدة مئات من الجانبين ، على الرغم من الآلاف من جنود الأمن المركزي ومدركات الشرطة التي اصطفت لحماية المقر.

أوردت التفاصيل السابقة لأوضح إلى أي مدى وصل الاستقطاب والاحتقان ، مما يؤثر على الحراك الشعبي في اتجاه تحقيق أهداف الثورة ، كما يوضح أن هناك حالة غليان مستمرة ، في ظل أوضاع القوى السياسية الحالية وكذلك أجهزة الدولة ( الجيش - قوات الامن - مؤسسة الرئاسة ) .  
وإذا كنت سوف أحاول فيما يلي إلقاء الضوء على تلك الأوضاع ، إلا أن هذه المحاولة سوف تقتصر فقط على علاقتها بالحراك الشعبي ، أما الكتل الجماهيرية التي خرجت من القفص بعد هزيمة نظام مبارك ، فسوف أرجئها إلى القسم الأخير من هذه الدراسة .

## ( ٦ )

فيما يتعلق بالقوى والأحزاب السياسية ' فهناك أولا تلك التي كانت قائمة قبل الثورة ، وقد تكفل نظام مبارك على مدى ثلاثين عاما بإفساد أغلبها أو إضعافها إلى أقصى حد وحصارها ، وهناك ثانيا تلك الحركات والأحزاب التي تشكلت بعد الثورة.

قبل الثورة ، سمح النظام بعدد محدود من الأحزاب ، سواء تلك الموروثة من عهد سلفه أنور السادات ، أو تلك التي نشأت في عهده ، وكلاهما لم يكونا سوى مجرد ديكور يتزين به النظام ، في ظل سيطرة أمنية مطلقة ، من بينها مثلا أنه لم يكن مسموحا بأي نشاط سياسي خارج مقل الأحزاب .

وهكذا ، فإن حزبا مثل حزب الوفد بكل تراثه الليبرالي العريق الذي استمدته من ثورة ١٩١٩ ، تحول إلى مجرد مقر وصحيفة لا يقرأها أحد . وحزب مثل حزب التجمع اليساري الذي شهد نهوضا شديدا عشية وفي أعقاب انتفاضة الطعام في مطلع عام ١٩٧٧ ، دخل في غيبوبة طويلة ، وانفض القراء عن صحيفته الأهالي ، وتكلست قيادته القديمة ، وتراجع دوره في الحياة السياسية المصرية على نحو مخيف . أما الأحزاب الصغيرة التي سمح قانون الأحزاب المقيد للحريات بها ، فقد كان أغلبها مجرد فقاعات ، ولا تحرص الا على الإعانة المالية التي تمنحها الدولة .

كذلك عانى اليسار الثوري السري من مرضه المزمن القديم ، أي تشرذمه وحلقيته وعزلته ، فبعد أن وجهت له أجهزة الأمن ضربات متلاحقة وسريعة ، خلال عقدي السبعينات والثمانينات من القرن الماضي ، أجهز على البقية الباقية منه جموده وعزلته وعجزه عن فهم الواقع الجديد الذي كان يتشكل ويتحول إلى علامات استفهام كبرى .

أما الحركات الاحتجاجية الجديدة ، فقد بدأت في الظهور مع اندلاع انتفاضة الأقصى في خريف ٢٠٠٠ بتأسيس اللجنة الشعبية لدعم الانتفاضة الفلسطينية ، وتميزت بهيكلها التنظيمي المرن وانفتاحها على جميع التيارات ، وركزت على العمل الاحتجاجي المباشر خارج الأطر المؤسسية . وعشية الحرب الأمريكية

على العراق، تأسس عدد من الحركات المناهضة للغزو الأمريكي مثل حركة ٢٠ مارس والحركة الشعبية لمناهضة الصهيونية والامبريالية ، والى جانب المظاهرات العارمة، نجحت تلك الحركات في عقد عدة مؤتمرات بالقاهرة لمناهضة الحرب على العراق شارك فيها نشطاء من الداخل والخارج .

وشهدت الفترة بين عامي ٢٠٠٤ و٢٠٠٥ ظهور عدد آخر من الحركات التي أولت عنايتها للشأن الداخلي مثل الحركة المصرية من أجل التغيير المعروفة باسم " كفاية " ، والحملة الشعبية للتغيير ، والتجمع الوطني للإصلاح ، والجهة الوطنية للتغيير . وتميزت حركة كفاية تحديدا بحرصها على هيكل تنظيمي مرن ، اتسع ليسار والتيارات القومية والاسلامية وفق مطلب محدد توافق عليه الجميع ، وهو "للاستمرار .. لا للتوريث " أي رفض إعادة انتخاب مبارك أو توريث ابنه ، الى جانب ضرورة اصلاح سياسي ودستوري شامل ، والأهم أنها الحركة التي كسرت تابو التظاهر العلني في الشارع ، وتعرضت من جراء ذلك لعنف وقمع شديدين .

وعموما فإن من أهم ماضيف الى رصيد الحركة السياسية في مصر خلال الفترة بين ٢٠٠٠ و٢٠٠٨ دخول جيل جديد من النشطاء الشباب الى المجال السياسي ، حيث برز دور منظمات المجتمع المدني ، وبدأ هذا الجيل في التعبير عن نفسه والتفاعل والنقاش من خلال مواقع التواصل الاجتماعي والمجموعات البريادية . كان هذا التطور الأخير حاسما ، وسرعان ماتم اعتماده بين الحركات الجديدة.

والى جانب الدور الذي لعبته حركة كفاية - كما سبقت الإشارة - أُعلن عن تأسيس حركة شباب من أجل التغيير في فبراير ٢٠٠٥ ، وأُسست بدورها حركة تضامن المطالبة التي قادها عمال وفلاحون وموظفون عام ٢٠٠٧ ، أما حركة شباب ٦ ابريل فقد أسسها عدد من الناشطين على مواقع التواصل الاجتماعي في الحركات السابقة ، وارتبط اسمها بإضراب عمال مدينة المحلة الكبرى في ٦ ابريل عام ٢٠٠٨ ، حيث أعلنوا تضامنهم مع إضراب العمال ، والأهم أنهم دعوا لإضراب عام في كل مصر تزامنا مع إضراب عمال المحلة ، وقاموا بتشكيل مجموعات أرسلت مئات الرسائل الى الأعضاء المصريين على موقع الفيس بوك ، الى جانب استخدام الحركة للرسائل القصيرة على الهواتف المحمولة والمنشورات والشعارات المتعلقة على جدران الشوارع ، ونجح هذا الإضراب الى حد كبير بعد عقود من إفساد الحياة السياسية.

من جانب آخر ، سمح نظام مبارك بوجود جماعة الاخوان المسلمين ، بشرط أن تكون تحت قبضته المباشرة، كما أسلفت ، بينما اختار أن يواجه جماعات الاسلام السياسي الجهادية التي رفعت السلاح في وجه نظامه بالعنف ، وقام بتصفيتهما تقريبا إما بالقتل المباشر أثناء المعارك، أو بالزج بأعضائها في السجون سنوات طويلة .

على أي حال ، يجب التأكيد هنا مرة أخرى على أن وجود الاخوان المسلمين كان ضروريا لنظام مبارك

نفسه، مثلما كان ضروريا لنظام السادات الذي فتح لهم أبواب التواجد والتأثير على مصراعيها، لمواجهة أعتى خصومه وأقواهم آنذاك من اليساريين والقوميين في صفوف الطلاب والعمال، وأخرج البقية الباقية من الاخوان من السجون ، فأعادوا تشكيل تنظيمهم وبدأوا في تنفيذ المهام التي خرجوا من السجون على أساس تنفيذها ، ونجحوا في الوقوف بقوة في وجه خصوم السادات بالتعاون مع أجهزة الأمن .

واستقرت العلاقة بين مبارك والاخوان، فهم يعرفون الخطوط الحمراء جيدا ولايتجاوزونها، ومهما بدا العداء مستحكما، إلا أن كلا منهما يعرف أهميته للآخر من ناحية، ومن ناحية أخرى يحب الاعتراف بأنهم حققوا تواجدا سياسيا وتأثيرا متزايدا في قواعد جماهيرية معتبرة، خصوصا في الريف والنقابات المهنية والجامعات ، فضلا عن أن خيارهم بالوجود العلني تحت عين أجهزة الأمن ورقابتها المباشرة ساهم في تعزيز تأثيرهم وتواجدهم السياسي.

#### ( ٧ )

حاولت في السطور السابقة أن أقدم عموم المشهد السياسي السابق مباشرة على الثورة، في علاقته بآفاق الحراك الشعبي في المرحلة المقبلة. وإذا كانت القوى السياسية المختلفة قد شاركت على هذا النحو أو ذاك ولحقت بقطار الثورة، فإن من فجروا الثورة هم الشباب، ومن الثابت أن الاخوان لم يشاركوا إلا بعد ثلاثة أيام من اندلاعها، وقبل خلع مبارك وافقوا على الجلوس مع عمر سليمان الذي كان مبارك قد عينه نائبا له والتفاوض معه، بينما رفضت قوى سياسية أخرى، وعلى الأخص الشباب، لقاء النائب بعد إطلاق النار على المتظاهرين السلميين.

وكما سبقت الإشارة ، فإن آفاق الحراك الشعبي في اتجاه تحقيق أهداف الثورة ليس مفروشا بالورود، خصوصا مع الاستقطاب الحاد وأجواء الاحتقان المخيمة بعد تولي مرسي مرشح الاخوان مقاليد الحكم في لحظة فارقة وخاصة جدا، فهو أولا لم ينجح إلا بفارق ضئيل جدا لم يتجاوز ١% ، وثانيا فإن قسما لا يستهان به ممن أعطوا أصواتهم له ، لم يفعلوا هذا إلا كرها لمنافسه احمد شفيق المعروف باعتباره مرشح النظام القديم، أي أنهم انتخبوا مرسي لصالح استمرار الثورة، وبعد أن قدم تعهدات مسجلة وموثقة بالالتزام بتحقيق أهداف الثورة، وعلى الأخص الالتزام بالديمقراطية وحرية التعبير، إلا أنه سرعان مانكث عنها الواحد تلو الآخر بعد فوزه في الانتخابات الرئاسية.

ومع ذلك فإن إلقاء نظرة سريعة على الشهور التي سبقت انتخاب مرشح الاخوان سيكون مفيدا لفهم المرحلة المقبلة ، حيث تجسد الحراك الشعبي في ظهور عشرات الائتلافات والحركات والجبهات

الشبابية التي لم تفجر الثورة فقط ، بل وحملت عبئها الرئيس ، وواصلت السير في طريقها لتضم إليها قوى جديدة لم يتسن لها المشاركة الفعلية في أحداث أيام الثورة الأولى. وإذا كانت تعاني من الانقسامات والتشردم ، إلا أنها تتميز بالنقاء والصلابة ولا تعرف الحلول الوسط ، وتملك استخدام الميديا الحديثة ، وتملك أيضا خيالاجديدا مبهرا . وطوال عام ونصف العام منذ خلع مبارك وحتى تسليم السلطة لموسي في ٣٠-٦-٢٠١٢ ، بقيت الحركات الشبابية ذات الهيكل التنظيمي المرن في الشارع لتحقيق أهداف الثورة ، وواجهها المجلس العسكري بالاعتقال والمحاكمات العسكرية والتعذيب وفض المظاهرات والاحتجاجات بالقوة ، بينما حرص الاخوان وغيرهم من فصائل الاسلام السياسي لأسباب مختلفة ، على عدم الصدام بالمجلس العسكري بل والتنسيق معه .

وقد أدت الادارة المتهرئة للمرحلة الانتقالية على يد المجلس العسكري لخطايا كارثية ، لذلك فإن نزوله لفرض الأمن والنظام في حالة اندلاع الفوضى المتوقعة سيكون محفوقا بالمخاطر ، خصوصا مع انتشار تهريب السلاح وتشكيل نوع من الميلشيات تتبع الاخوان أو بعض السلفيين .

والحال أن الكتلة الجماهيرية المدنية ، سواء قسمها المنتمي للأحزاب والحركات المدنية والليبرالية ، أو قسمها الآخر غير المنتمي هي الوحيدة التي قررت خوض المعركة حتى نهايتها ، وهو ماتجسد في أعقاب صدور الإعلان الدستوري السابق الإشارة له في نوفمبر عام ٢٠١٢ ، حيث سبقت هذه الكتلة أحزاب جبهة الإنقاذ التي تضم كل المناوئين للاخوان ، وسارعت بالتوجه للقصر الرئاسي وحصاره لإجبار الرئيس على إلغاء الإعلان الدستوري . وبالرغم من أن الاعتصام السلمي أمام القصر حق للمتظاهرين ' إلا أن الاخوان وبعض السلفيين استدعوا كوادهم وهاجموا الاعتصام وقاموا بفضه بالقوة وأحرقوا الخيام وألقوا القبض على بعض المعتصمين وقاموا بتعذيبهم وسحلهم .

تشير كل الدلائل الى أن أوضاع الاستقطاب والاحتقان بين قوى الاسلام السياسي بأطيافه المختلفة، وبين القوى المدنية والليبرالية المنظمة وغير المنظمة ، مرشحة لمزيد من المواجهات لأن الأولى تندفع بأقصى سرعة نحو أخونة الدولة المصرية والتسلل الى مفاصلها ، بينما الثانية ليست لها قيادة موحدة، بل ان الكتلة الأكبر من الشباب اعتادت تجاوز الاحزاب والحركات المدنية في مواقفها .

وإذا كانت قوى الاسلام السياسي تمتلك السلطة الفعلية ، كما تمتلك تنظيمات هيراركية قوية ومنضبطة على نحو شبه عسكري ، فإن القوى المدنية لاتملك كل هذا ، إلا أنها تملك الأثمن والأقوى، وهو إلحاق الهزيمة بالخوف الى الأبد ، وهنا لأقصد المجاز ، بل حرفيا إلحاق الهزيمة بالخوف ، وكشف الشباب ويكشفون عن إبداعات جديدة في المقاومة ، من رسوم الجرافيتي على جدران الشوارع وأرضها بحيث تكون لسانا لحال الثورة ، الى تكتيكات الكر والفر ، الى انضمام المحافظات البعيدة عن القاهرة ومهاجمة

مقرات الاخوان المسلمين ، الى العصيان المدني ، ولم يعد يمر يوم من دون حدوث فعل سياسي في الشارع . هذا الإيقاع السريع للأحداث اليومية، وحركات المطالب الفئوية، وتصلب الاخوان وفشلهم في الاستجابة لها، مع بدء ظهور ميليشيات سلفية واخوانية قامت أخيرا بمحاصرة مدينة الانتاج الاعلامي ومنعت الاعلاميين وضيوهم من الدخول والخروج بات أمرا عاديا ومتكررا.

الحراك الشعبي إذن يتجه ببطء وإن كان بثبات نحو تحقيق أهداف الثورة والانتصار للدولة المدنية . وفي النهاية ، أكرر ان إلحاق الهزيمة بالخوف يتأكد يوما بعد يوم ، وربما كان هذا هو الضمانة المؤكدة والناجعة لاستمرار الحراك الشعبي وخوضه لمعاركه في اتجاه حماية الثورة من الاختطاف وتحقيق أه دافها.

## المراجع والمصادر

- محمود الورداني ، حكايات الحرية ، القاهرة ، الهيئة العامة لقصور الثقافة ، الطبعة الأولى ٢٠١١
- عبد العظيم حماد ، صراع الخوذة واللحية والميدان ، القاهرة ، مركز المحروسة للنشر والخدمات الصحفية ، الطبعة الأولى ٢٠١٣
- وائل غنيم ، الثورة ٢٠٠٥ ، القاهرة ، دار الشروق ، الطبعة الأولى ٢٠١٢
- شريف يونس ، مسارات الثورة ، القاهرة ، دار العين للنشر ، الطبعة الأولى ٢٠١٢
- دينا شحاتة ، تحرير ، عودة السياسة - الحركات الاحتجاجية الجديدة ، القاهرة ، مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالاهرام ، الطبعة الأولى ٢٠١٠
- ماهر فرغلي ، الخروج من بوابات الجحيم ، بيروت ، مؤسسة الانتشار العربي والرياض مركز الدين والسياسة ، الطبعة الأولى ٢٠١٢
- مروة نظير ، استقلال القضاء كضامن للديمقراطية ، القاهرة ، بدائل - كراسة غير دورية ، مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام



## الإسلاميون والحكم في المغرب الأقصى.. حصاد سنة

د. امحمد مالكي \*

يشهد المغرب منذ انتخابات ٢٥ نوفمبر / تشرين الثاني ٢٠١١ التشريعية حدثاً سياسياً نوعياً، يتعلق بقيادة حزب العدالة والتنمية، بوصفه حزباً مدنياً مرجعية إسلامية، العمل الحكومي، بعد تصدّره قائمة الفائزين في هذا الاستحقاق. فوفقاً للفصل السابع والأربعين (٤٧) من الدستور يترأس الحزب الفائز في انتخابات مجلس النواب الحكومة (١)، ويحق له، تبعاً لذلك، تشكيل الحكومة وتقديم برنامجه السياسي بُغية المصادقة عليه من قبل البرلمان، وتنصيبه دستورياً.

ووفقاً لوثيقة الدستور ٢٠١١، التي حددت مدة الولاية التشريعية في خمس سنوات، ستكون أمام الحكومة فرصة ممتدة للعام ٢٠١٦ لتنفيذ برنامجه السياسي العام، وتجديد كل طاقاتها لصياغة سياسات عمومية لتحقيق وعودها الانتخابية والسياسية، والاستجابة لتطلعات الجسم الانتخابي الذي منحها الشرعية بالتصويت على أحزابها. فهل ستمتكن حكومة الإسلاميين من الارتقاء إلى مستوى ما تم تسويقه لحظة الحملة الانتخابية، وما بعد التنصيب البرلماني للحكومة؟. تسعى المقالة إلى النظر في حصاد سنة من عمل الحكومة التي يترأسها حزب العدالة والتنمية، بُغية قياس منحى تطور أداء هذه الحكومة، وملازمة درجة انجازها للالتزامات التي وعدت بها على الصعيد السياسية والاقتصادية والاجتماعية.

---

\* كاتب وباحث مغربي

## أولاً : سياق فوز الإسلاميين

لم يكن حدثُ رئاسة " حزب العدالة والتنمية" للحكومة متغيراً جديداً أو مفاجئاً لقادته ومناضليه، إذ منذ انعقاد مؤتمره الأخير [صيف ٢٠٠٨]، باتَ واضحاً أنه يتطلع إلى المشاركة في العمل الحكومي وقد أسعفه في ذلك التعديل الدستوري الأخير [فاتح يوليو/تموز ٢٠١١]، الذي أقرَّ بأن يتولى الحزب صاحب الأغلبية في انتخابات مجلس النواب رئاسة الحكومة. بيد أن السياق الوطني والإقليمي والدولي الذي زامن هذه الحكومة ينطوي على أكثر من متغير، سيكون له دون شك الأثرُ الواضح، وربما الفاصل، في مسيرة هذا الحزب وآفاق تطوره إيجاباً أو سلباً.

فمن جهة، يقود الحزب ائتلاًفاً حكومياً من أربعة أحزاب (٢)، تتباعد إلى حد ما في المنحدرات التاريخية والأبعاد الاجتماعية والإيديولوجية، هي تحديداً: حزب الاستقلال، ذو الحمولة التاريخية والوطنية، والنزعة التقليدية المحافظة، والحركة الشعبية، التي أسست على خلفية الدفاع عن الأمازيغية والعالم القروي، وحزب التقدم والاشتراكية سليل الحزب الشيوعي المغربي. لذلك، يجد حزب العدالة والتنمية نفسه ملزماً على البحث عن أرضية مشتركة بين هذه الأطراف المتباينة. فهو وإن استطاع التوافق مع شركائه في تشكيل الحكومة، بما فيها توزيع الحقائق الوزارية، وتقديم البرنامج الحكومي ونيل المصادقة البرلمانية عليه، فإنه مطالب بالاستمرار في تطوير عمله إلى جانبهم، لاسيما أن المقتضيات الجديدة للدستور تشدد على المسؤولية الجماعية والمتضامنة للفريق الحكومي. كما أن الحزب ملزم، من جهة ثانية، وفق أحكام الدستور على قيادة الحكومة في تناغم وتطابق مع الاختصاصات التي منحها الدستور للملك، سواء تعلق الأمر بتلك المُسندة إليه بحسبه رئيساً للمجلس الوزاري، أو التي يتولأها باعتباره قيماً وساهراً على استمرار الدولة واستقرار المؤسسات، أو الصلاحيات التي أوكلها إياه الدستور في علاقته بباقي المؤسسات (البرلمان والقضاء). لذلك، يُعتبر هذا المعطى (تعدُّد الفاعلين والشركاء) مُحدِّداً مؤثراً على قُدرته في الذهاب بعيداً في تجسيد إستراتيجيته في سياسات عامة حكومية.. إنه ملزم على احترام وثيقة الدستور والإنصات والتعاون مع حلفائه من أجل تنفيذ البرنامج الحكومي المشترك على صعيد الواقع.

تُضاف إلى ما سبقته الإشارة إليه أعلاه متغيرات أخرى ذات أهمية وإزنة في رسم معالم تطور تجربة حزب العدالة والتنمية، يتعلق الأمر أساساً بحظوظ وحدود نجاحه في الاستجابة للمطالب التي رفعتها قوى الحراك الاجتماعي في المغرب في سياق الحراك العربي وفواعله بشكل عام. فما لا يختلف حوله اثنان أن الدينامية الجديدة للإصلاح في المغرب (الدستور الجديد والانتخابات التشريعية (شكل الحراك العربي أحد أقوى مصادرها، على الأقل من حيث التسريع بوتيرة التفكير في استباق الأحداث والعمل على تجاوزها إيجابياً. لذلك، سيتوقف مستقبل " الإسلاميين" على مدى قدرتهم على تحقيق

انجازات ملموسة في القضايا التي شكلت مُسببات انطلاق الحراك الاجتماعي، وفي صدارتها توسيع دائرة الحريات والمشاركة الديمقراطية، والحدّ من الاختلالات الاجتماعية. يُذكر أن المغرب لم يشدّ عن المنطقة العربية من حيث حاجته الماسّة إلى تعميق ديمقراطية المؤسسات وتقليص حجم الفجوة الاجتماعية. فقد تبيّن أن الإصلاحات الدستورية والسياسية التي أقدم عليها المغرب خلال تسعينات القرن الماضي [١٩٩٢ - ١٩٩٦]، وسعى إلى تطويرها خلال العشرية الأولى من الألفية الجديدة، ما زالت في حاجة إلى قوة دفع جريئة وعميقة، لتجعل نتائجها قادرةً على إحداث التغيير اللازم لدمقرطة الثقافة السياسية الناطمة لمؤسسات الدولة ونسيج المجتمع. والحقيقة أن إحدى النقط المفصلية في البرنامج الانتخابي للإسلاميين، والرهنات التي تنتظر شرائح واسعة من المواطنين أن يتميزوا عن غيرهم من الأحزاب في الوصول إلى نتائج واضحة في نطاقها قضية تخليق الحياة العامة ومحاربة الفساد، وإعادة الاعتبار لبيئة الدولة في صيانة المال العام والمحافظة على حُسن تديره وإنفاقه. بل إن البرنامج الحكومي نفسه، واستناداً إلى روح الدستور الجديد (٣)، أولى أهميةً خاصةً لموضوع الحكامة الجيدة ومستلزمات تحقيقها. ففي هذه الأولوية بالذات، يتوقف، في تقديرنا، مدى نجاح الحزب من عدمه، حيث يستطيع "الإسلاميون"، إن هم سجلوا اختراقات في مضمار خلخلة المجموعات المستفيدة من اقتصاد الربيع، وإصدار قوانين ووضع آليات عملية تحدّ من نفوذهم، وتُعيد للمال العام قُدسيته واعتباره، وقد شرع بعض وزرائهم في تدشين هذا الطريق، بنشر قوائم المستفيدين منذ عقود أو سنوات من مأذونيات ورُخص النقل العمومي بكل أنواعه، كما أن نشر لوائح الجمعيات المستفيدة من الدعم ستتلو هذا الإجراء في قادم الأيام، بحسب تصريح الوزير المكلف بالعلاقات مع البرلمان والمجتمع المدني (٤).

فهكذا، تكمن القيمة الإستراتيجية لأية خطوة في اتجاه الحدّ من الفساد ومحاربة اقتصاد الربيع، في كونها ستعزّد موقع "حزب العدالة والتنمية" في الخريطة السياسية والحزبية المغربية، وستوسع قاعدته الاجتماعية، وستُعظّم، بالنتيجة، قوته التنظيمية والسياسية. ولعلّ النسبة المرتفعة التي صوّتت لصالحه في الانتخابات التشريعية الأخيرة، تُراهن عليه، بعد ما شكّكت في قدرة الأحزاب الأخرى، بكل ألوانها وأطيافها، على إنجاز مهمة تخليق الحياة العامة والحدّ من آفة الفساد. ثم إن "حركة ٢٠ فبراير" (٥)، التي أعطت زخماً قوياً للحراك الاجتماعي المغربي، وما زالت مستمرةً في التظاهر بعد الفينة والأخرى، بعدما قاطعت التصويت على الدستور والمشاركة في انتخاب مجلس النواب في ٢٥ نوفمبر/ تشرين الثاني ٢٠١١، ستجد في "حزب العدالة والتنمية"، إن حاله النجاح في هذا الملف، محاوراً ذي صدقية، مقارنة مع باقي الفاعلين السياسيين الآخرين، سواء من داخل الأغلبية أو من قلب المعارضة نفسها.

## ثانياً: حصاد سنة من قيادة الإسلاميين

١ - جدير بالإشارة - قبل تشخيص عناصر حصاد سنة من قيادة الإسلاميين للعمل الحكومي - أن الدعوة إلى الإصلاح تعتبر علامةً فارقةً لما قبل تأسيس حزب العدالة والتنمية وما بعده، بل إن فكرة الإصلاح، وتحديداً التطلع إلى الإصلاح من داخل المؤسسات القائمة والثوابت الوطنية الناطمة لها، شكلت الروح المؤلدة لمنعطف انتقال فئة من الإسلاميين المغاربة من جمعية دَعوية (حركة الإصلاح والتجديد) (٦) إلى حزب سياسي مدني مرجعية إسلامية. وهو ما حفّزهم مباشرة على اختبار قدرتهم على إعمال فلسفة الإصلاح - كما عبرت عنها وثائق الحزب التأسيسية ومؤتمراته المنتظمة - عبر المشاركة في ثلاث ولايات تشريعية [١٩٩٧ - ٢٠٠٢ - ٢٠٠٧]، ومن خلال تواجدهم في المجالس البلدية والمحلية ورئاستهم لبعضها. ولئن بقي الحزب خارج العمل الحكومي لأسباب موضوعية خاصة بتطور النسق السياسي المغربي، وأخرى ذاتية مرتبطة بنضج تطلعاته كحزب، فقد ظل في تماس دائم مع الحكومات المتعاقبة منذ ١٩٩٨، إما ممارساً المساندة النقدية، كما حصل خلال حكومة "عبد الرحمن اليوسفي" [١٩٩٨ - ٢٠٠٢]، أو منتسباً إلى المعارضة البرلمانية [٢٠٠٢ - ٢٠١١]، مستثمراً الوسائل والآليات المتاحة من قبل الوثيقة الدستورية، وفي صدارتها العمل داخل المؤسسة التشريعية، أو من خلال أنشطته الحزبية ومنابره الصحفية والإعلامية. ويعتبر البرنامج الانتخابي لاقتراع ٢٥ نوفمبر/تشرين الثاني ٢٠١١ لحظةً قويةً لتجديد حزب العدالة والتنمية دعوته إلى الإصلاح، لاسيما وأن سياق الحراك العربي الذي انطلق من تونس في ١٧ ديسمبر/كانون الأول ٢٠١٠، وامتد، بدرجات متفاوتة، إلى سبع عشر دولة عربية، ومنها المغرب، كان محرّضاً على المطالبة بتغييرات نوعية في السلطة ومصادر توزيع الثروة. لذلك، يمكن القول أن الحزب اقتنص هذه اللحظة السياسية لإعادة تأكيد قدرته على إدخال الإصلاحات البنوية التي تتوق إليها قطاعات واسعة من المجتمع المغربي، والأكثر من ذلك، جهد من أجل تسويق شعار "الإصلاح في إطار الاستقرار"، أي الدعوة إلى إصلاح الممارسة السياسية دون صدمات، أو تغييرات هيكلية كبرى من شأنها تعريض البلاد لرجات واهتزازات اجتماعية لا يُعرف مدى تطورها على وجه اليقين. وغمّل إلى الظن - في غياب دراسات ميدانية عن السلوك التصويتي للجسم الانتخابي خلال الاقتراع الأخير - أن تجاوزاً واضحاً مع هذا الشعار عبّرت عنه شرائح مهمة من المشاركين في انتخابات ٢٥ نوفمبر/تشرين الثاني ٢٠١١، بما فيها التي لا تُقاسم الحزب مبادئه الإيديولوجية وقناعاته الفكرية والسياسية. قد نُفسر ذلك بالخوف من المستقبل، والميل إلى الرهان على حزب العدالة والتنمية في قيادة المرحلة التي تُزامن الحراك العربي وتُحايث أحداثه، كما قد نوع هذا التجاوز الإيجابي إلى اقتناع أكيد للجسم الانتخابي بأن المرحلة الراهنة هي بامتياز مرحلة حزب العدالة والتنمية، وليس بمقدرة سواه من الأحزاب، وقد تأكلت مشروعيتها، تحقيق شعار "الإصلاح في إطار الاستقرار".

٢ - دأبت النظم الديمقراطية على اعتبار مائة يوم كافية لتقييم الأداء الحكومي، بُغية استنتاج ما إذا كان

يسير في اتجاه الوفاء بوعود أصحابه وبرامجهم، أم بالعكس يميل إلى التعثر والإخفاق. وفي حالة حكومة السيد " عبد الإله بنكيران" مرت سنة ونيّف منذ تنصيبها في ٢٥ يناير / كانون الثاني ٢٠١٢، أي أكثر من خمّس الولاية المقررة لها من الناحية الدستورية (٢٠١١ - ٢٠١٦) (٧)، وهي مدة نخالها كفيلاً بقياس حصاد الحكومة الائتلافية التي يقودها حزب العدالة والتنمية.

■ فمن الزاوية السياسية، يمكن الإقرار بأن رئاسة حزب العدالة والتنمية للحكومة في أعقاب انتخابات ٢٥ نونبر/تشرين الثاني ٢٠١١، خلقت قدراً ملحوظاً من التفاعل بين الفاعلين السياسيين، ليس فقط بين الأغلبية والمعارضة، ولكن حتى داخل تحالف الأغلبية نفسه. وإذا كان الإقرار بشرعية فوز الإسلاميين في الاستحقاق الانتخابي ظل واضحاً وغير مشكوك فيه، فإن الاقتناع بقدره هؤلاء على الوفاء بوعودهم الانتخابية، والانتقال بالمغرب إلى وضع سياسي نوعي مختلف عن سابقه، لم يلق ما يكفي من التأييد، وقد علّت نغمه التشديد على أن الإسلاميين يُعوزهم وضوح الرؤية، ويحتاجون إلى الخبرات والكفاءات البشرية التي تمكنهم من صياغة سياسات عمومية قادرة على تعميق الإصلاحات التي وعدوا بإنجازها في حملاتهم الانتخابية، وأعادوا تضمينها في البرنامج الحكومي في صيغة تعاقدي مجتمعي، قائم على ثلاثة مرتكزات أساسية، هي تحديداً: العمل المندمج والمتكامل، والمقاربة التشاركية، وربط المسؤولية بالمحاسبة.

لعل أبرز ما يمكن التأكيد عليه من زاوية الحصاد السياسي للحكومة الائتلافية بقيادة الإسلاميين بعد سنة ونيّف من تنصيبها، سعيها إلى إعادة الروح للنقاش العمومي حول الشأن العام منهجية تديره. فما يلاحظ في هذه النقطة بالذات إصرار حزب العدالة والتنمية على تسويق صورته كفاعل سياسي، تجتمع فيه مقومات المبادرة، والتفكير، والتخطيط لقيادة العمل الحكومي، وتحمل مسؤولية نتائجه، وقد دفعت به حماسة هذا الإصرار أحياناً إلى الخروج عن المألوف والمعتاد في العمل المؤسسي عموماً، سواء على صعيد معجم اللغة المستعملة من قبل أمينه العام - بوصفه رئيساً للحكومة - أو من لدن وزرائه في الائتلاف الحكومي، أو على مستوى المبادرات والمشاريع المقترحة، وأساليب الدفاع عن جدواها وأهميتها. ولأن إسلاميي حزب العدالة والتنمية لم يخبروا الحكم من قبل، ووفدوا إلى السلطة من خلفيات اجتماعية وتعليمية وقيمية مغايرة بشكل لافت عمّن سبقهم من الممارسين السياسيين، فقد اجترحوا لأنفسهم أسلوباً خاصاً في تسويق مبادراتهم ومحاكاة من يخالفهم الرأي، الأمر الذي دفع بالكثير من الفاعلين السياسيين والاجتماعيين، ولاسيما من داخل المعارضة، إلى نعتهم ب" الشعبوية"، والتحذير من أن يُفرض تسويقهم لخطابهم إلى إضعاف جذوة التعاطي مع الشأن العام، وإفقار السياسة، بحسبها عملاً إنسانياً عاقلاً.

فبغض النظر عن الأحكام المتبادلة بين الأغلبية بقيادة الإسلاميين والمعارضة، التي اكتست أحياناً طابعاً قديحاً، نشير إلى أن حلحلة ملموسة طالت المجال السياسي المغربي، وإن لم تتضح معالمها وآفاقها بعد.

ويبدو أن مصدر القوة في هذه الحلحلة يكمن في تقريب السياسة من الناس، وربطها مباشرة بمشاكل عيشتهم، بل وحفزهم على اعتبارها ملكاً مُشاعاً للجميع، وليس فناً مقتصرًا على النخبة السياسية المحترقة. ثم لابد من التأكيد على أن الأحكام الجديدة للدستور سمحت بإطلاق مثل هذه الديناميات، حين قضى الفصل مائة (١٠٠) بتخصيص جلسة شهرية واحدة لتقديم الأجوبة عن الأسئلة المتعلقة بالسياسة العامة من قبل الحكومة (٨). وأيضاً حين أُلزم الفصل الحادي بعد المائة (١٠١) رئيس الحكومة بالمشول أمام البرلمان لعرض الحصيلة المرورية لعمل الحكومة، بغية مناقشتها وتقييمها (٩).

فاللاف للانتباه عند رصد حصيلة سنة من الأداء السياسي للحكومة التي يقودها الإسلاميون سعيهم إلى الوفاء بطرح أحد أهم الملفات الشائكة في المغرب، والتي عجزت الحكومات المتعاقبة سابقاً على معالجته، بما فيها تلك التي ترأسها زعيم الاشتراكيين، السيد عبد الرحمن اليوسفي ما بين ١٩٩٨ و٢٠٠٢، بتعلق الأمر بتخليق الحياة العامة ومحاربة الفساد، الذي ما انفك يضعف قدرة الاقتصاد المغربي، ويعقّد حظوظ امتلاكه كفاءة الإنتاج والانجاز. فاقتصاد الريع الذي وسم خلال عقود طويلة الممارسة المغربية في مجال الاستثمار والإنتاج، لم يعد مقبولاً من قبل شرائح واسعة من المجتمع المغربي، بل شكل موضوع اعتراض، وانتقاد، ومطالبة بالتغيير، وقد رُفعت شعارات واضحة عند انطلاق الحراك العربي، نددت به، و جهرت بإسقاط رموزه، وطالبت بإعادة بناء الاقتصاد الوطني على أسس جديدة، قوامها الشفافية، وتكافؤ الفرص، والإنتاجية، والممسالة والمحاسبة. كما أن حزب العدالة والتنمية، وهو يخوض معركة الانتخابات التشريعية في ٢٥ نوفمبر/ تشرين الثاني ٢٠١١، جعل شعار محاربة الفساد في قلب خطابه الانتخابي، وأمعن في التسويق له لاستمالة الفئات الاجتماعية التي تضررت من نتائج هذا النمط من الاقتصاد، وعاشت التفقر، والهشاشة، وتدني شروط العيش الكريم من جراء سياساته.

لم تكن النتائج في الواقع، وحتى حدود نهاية السنة الأولى من حكم الإسلاميين، مرضية في ملف تخليق الحياة العامة ومحاربة الفساد، بل إن رئيس الحكومة نفسه وبعض وزرائه، لم يترددوا في الاعتراف بصعوبة اقتحام دهاليز هذه القضية الشائكة والمعقدة. فعقود متعاقبة من الفساد كانت كافية لخلق ما أسماه سليم الحص "ثقافة الفساد"، أي صيرورة السلوكيات الاجتماعية الفاسدة في مجالات حيوية، من قبيل القضاء، والأمن، والإدارة، ثقافةً للفساد، والحال أن الثقافة، بحسبها عملية ذهنية، يصعب تغييرها في ربح وجيز من الزمن، بل تحتاج إلى وقت، ونفس جماعي صبور، وتستلزم توسيع دائرة مؤيدي محاربة ثقافة الفساد ومناصري مناهضتها والداعين إلى القضاء عليها. فالحاصل أن حجم المقاومة التي أبدتها المفسدون، كانت أقوى من إرادة الساعين إلى محاربة الفساد، لذلك اعترى خطاب الإسلاميين بعد مرور أقل من سنة من حكمهم نوع من الفتور عند حديثهم عن الفساد، وشرعوا في البحث عن المسوغات المعقولة وغير المعقولة التي تسعفهم في إقناع الرأي العام بأن الفساد ظاهرة اجتماعية مركبة، تحتاج إلى تدرج في الزمن

لمحاربتها، وتشترط حركة مجتمعية عامة، لا تقدر الحكومة وحدها على القيام بها بنجاحة واقتدار. لذلك، لم يذهب وزراء الحزب بعيدا في الكشف عن منابع الفساد والمستفيدين من اقتصاد الريع في قطاعات اقتصادية واستثمارية حيوية، من قبيل الصيد في أعالي البحار، والنقل على الطرقات بكل أنواعه، ومقالع الرمال، وتفويت الأراضي العمومية إلى الخواص، ناهيك عن المأذونيات في أكثر من قطاع تجاري، والدعم العمومي المرصد لمنظمات المجتمع المدني والأموال الخارجية المحولة في شكل منح وهبات، والتي قلما تخضع لأجهزة الرقابة المالية العليا للدولة.

■ أما اقتصادياً، فقد تميز أداء الحكومة التي يرأسها الإسلاميون بمجموعة من الإجراءات الاستعجالية عنيت، بدرجة أساسية، بالتشغيل، والرفع من القدرة الشرائية للمواطنين، وتنمية الطبقة الوسطى وتطوير إمكانياتها، وهو ما سمحت بتأكيده مؤشرات الاستثمار العمومي البالغ ١٨٨ مليار درهم خلال السنة الأولى من عمر الحكومة، إضافة إلى ارتفاع الاستثمارات الأجنبية بنسبة ١٦٪ خلال التسعة شهور الأولى من تنصيب حكومة السيد عبد الإله بنكيران. ويبدو واضحاً أن الحكومة، انسجاماً مع برنامجها السياسي، تسعى إلى ترشيد النفقات العمومية، والحد من الضغط المتزايد لهذه الأخيرة على الموازنة العمومية، وهو ما سمح لها واقعياً بتوفير خمسة مليارات درهم " نتيجة التشف في خدمات الفندق والاستقبال"، علاوة على اصرارها على فرض الرقابة على الأداء الضريبي، مما أتاح لها تعزيز إيراداتها من هذا المصدر الضرائب (مبلغ إضافي مقداره ثمانية مليارات درهم خلال العام ٢٠١٢).

جدير بالذكر أن الحكومة خصصت، في نطاق تدابيرها الاستعجالية، ٥١٠ مليون درهم لضمان التنافسية بين المقاولات، زيادة على رصد أربع مئة مليون درهم لرفع كفاءة المقاولات وتقوية قدراتها، كما لم يفتها إعطاء الأفضلية في الصفقات العمومية للمقاولات الوطنية، حتى حين يصل الفرق في العروض بينها وبين المقاولات الأجنبية عتبة الخمسة عشر في المائة. ففي الواقع، وعلى الرغم من أهمية هذه الإجراءات، ظلت حصيللة الأداء الاقتصادي للحكومة بعد مرور سنة على تنصيبها متواضعاً، مقارنة، من جهة، مع ما وعد به برنامجها السياسي، و بالنظر، من جهة ثانية، لتطلعات المواطنين والآمال التي عقدوها على هذه الحكومة، وانتظروا ملامسة نتائج واضحة منها. فلو وقفنا عند أمثلة عملية سناحظ محدودية الحصيللة الاقتصادية للحكومة، وضعف النتائج الفعلية لأدائها. فبينما وعد حزب العدالة والتنمية في برنامج الانتخابي بنسبة نمو اقتصادي تصل عتبة السبعة في المائة، نجد أن حصيللة السنة الأولى من عمل الحكومة بلغت ٢،٩٪، وهو معدل أقل بكثير من الوعد الذي قطعوه على أنفسهم، وعاودوا التأكيد عليه في البرنامج الانتخابي لحظة تنصيبهم، حين توقعوا أن تصل النسبة الإجمالية للنمو ٥،٥٪.

■ لم تنج الحصيللة الاجتماعية، هي الأخرى، من محدودية النتائج، وضعف التأثير الفعال والإيجابي في أوضاع الناس وأحوالهم المعيشية. جدير بالذكر أن الحكومة التزمت ب" تطوير وتفعيل البرامج

الاجتماعية بما يضمن الولوج العادل إلى الخدمات الأساسية خصوصاً التعليم والصحة والسكن، ويكرس التضامن وتكافؤ الفرض بين الأفراد والفئات والأجيال والجهات". بيد أن استقراء آراء المواطنين، وتحليل ردود فعلهم حُيال ما حققته الحكومة بالنسبة لأوضاعهم المعيشية، يدل، بما يترك مجالاً للاختلاف، أن ثمة خيبة أمل مما حققته الحكومة، وأن الحصيلة كانت ضعيفة، ودون سقف الآمال والتطلعات المنتظرة. والأخطر من ذلك، هناك من لم يتردد في القول إن السنة الأولى من عمر الحكومة تميزت بتراجع واضح عن العديد من المكتسبات الاجتماعية، وفي مقدمتها الزيادة في أثمان المحروقات التي كان لارتفاعها تأثيرات عميقة على القدرة الشرائية لفئات واسعة من المواطنين، وفي مقدمتها الفقراء، والطبقات محدودة الدخل. يُضاف إلى ذلك، تنصّل الحكومة من التزاماتها السابقة إزاء الشباب المعطلين حاملي الشهادات، حيث لم يتم توظيفهم كما تمّ الاتفاق على ذلك في إطار الحوار الاجتماعي، وهو ما تفسره نسبة البطالة في صفوف الشباب التي وصلت ثلاثين في المائة. ولعل ما يُذكي دقة هذه الأوضاع، ويزيد من تفاقمها، ويكشف عجز الحكومة عن التصدي لها، استفحال ظاهرة الفساد والرشوة، وضعف انغراس قيم الحكامة في التدبير العمومي، وهو ما يفسر تراجع مكانة المغرب في مراتب الشفافية الدولية، حيث احتل المغرب، بحسب التقرير الأخير لمؤسسة "مشروع العدالة العالمية"، الرتبة الثمانين ( ٨٠ ) من أصل ٩٧ دولة.

### ثالثاً - وماذا عن مشاهد المستقبل؟

ليس في مكن هذه المقالة الحكم على مستقبل أداء الحكومة التي يقودها حزب العدالة والتنمية في شخص زعيمه السيد عبد الإله بنكيران ، فهي لم تتجاوز السنة ونيف تستكمل، لكن بالمستطاع تبيان الحدود التي تتحكم في إرادة " الإسلاميين" وهم يرومون الارتقاء بفكرة الإصلاح وصياغتها في سياسات عمومية قابلة للتنفيذ على صعيد الممارسة، كما بمقدرة المتابع للشأن السياسي المغربي استشراف الحظوظ الدنيا التي ترتمس أمام هذه الحكومة على صعيد الواقع وتوقعات الانجاز.

فعلى صعيد الحدود، ثمة مصادر ثلاثة لا بد من التنبه إليها لمعرفة الإمكانيات المتاحة للحكومة التي يقودها حزب العدالة والتنمية، وهي في عمقها حدود ذات طبيعة دستورية - مؤسسية، وأخرى ذات صلة بالسياق المغربي، وصنف ثالث مرتبط بالظرفية الاقتصادية والمالية الإقليمية والدولية. فحكومة السيد عبد الإله بنكيران، كما أسلفنا الإشارة ، تشتغل في علاقة تلازمية مع المؤسسة الملكية، بكل ما أتاح الدستور لهذه الأخيرة من صلاحيات واختصاصات مقرّرة وإستراتيجية، كما أنها ملزمة بالإنصات والتنسيق والتعاون مع حلفائها، ما يعني أن قدرتها على الذهاب عميقاً في الإصلاحات رهين بهذين الفاعلين الأساسيين، أي الملك والأحزاب أطراف التحالف الحكومي. صحيح أن الدستور الجديد وسّع دائرة عمل الحكومة وأناطها بصلاحيات مهمة في مجال صياغة السياسات العمومية وتنفيذها وتتبع آثارها، وصحيح كذلك أن الإرادة



الملكية واضحة في مضمار مواصلة الإصلاحات وتعميقها، غير أن الحكومة بقيادة حزب العدالة والتنمية تبقى مرتهنةً إلى حدّ كبير بمكونات النسق السياسي المغربي، ومهدى فعالية تكاتف جهودها من أجل تسريع وتيرة الإصلاح وتعزيز آلياته وتعميق مكاسبه. والواقع أن أطراف النسق السياسي المغربي وإن شددت في خطبها على ضرورة الاستمرار في الإصلاحات، وأعلنت عن إرادتها في صون مسيرته، فإن ثمة مقاومات، وهو أمر طبيعي في كل المجتمعات التوّاقة إلى الانتقال إلى وضع أفضل، ستسعى إلى الحدّ من إيقاع مشروع الإصلاح، ولمّ لا تعريضه إلى كبوات وربما إخفاقات. فصيلة الاختلالات المتراكمة على مدى خمسة عقود واضحة في المغرب، وتحتاج إلى نَقَسٍ إصلاحي جماعي، منتظم، صبور، ومتدرج في الزمن. لذا، يشكل توسيع دائرة بناء التأييد حول قضية الإصلاح أولويةً إستراتيجيةً، لتشمل كل الأطراف المعنية بهذا المشروع، بغض النظر عن الاختلافات الإيديولوجية والسياسية.. إن الأرضية المشتركة المطلوب تسويقها والتوافق حولها تكمن في إقناع المترددين والمنافحين لفكرة الإصلاح بأن مصلحتهم أولاً وأخيراً تتوقّف على ضمان الاستقرار، وصيانته، وتوفير شروط العبور السّلس إلى مرحلة تقطع مع مصادر التوتر السياسي والاجتماعي الذي عمّ البلاد العربية، ومنها المغرب. والحال أن حزب العدالة والتنمية ما انفكّ، منذ فوزه في الانتخابات التشريعية الأخيرة، يفتح جسورَ التواصل مع كل القطاعات وجماعات المصالح التي يعي أهمية دورها في إنجاح تجربته الإصلاحية على رأس الحكومة، سواء داخل أوساط الاقتصاد والمال والشغل [منظمات أرباب العمل وجمعيات المستثمرين، والنقابات والروابط المهنية]، أو في علاقته بالقطاعات الوازنة من أجل بناء الثقة في قدرة الحزب على إنجاح سيرورة الإصلاح.. إنها عملية حوارية شاقة ومعقدة، تتطلب ذكاءً وصبراً كبيرين لتعطي نتائجها الإيجابية والفعالة.

إلى جانب هذين المصدرين، ثمة مصدر ثالث سيحدّد من أداء حكومة حزب العدالة والتنمية ويرهن إرادته في تحويل مشروعه الإصلاحي إلى سياسات عمومية قابلة للتنفيذ، ومفتوحة، بالتالي، على نتائج من شأنها تمتين موقعه في الخريطة السياسية والحزبية المغربية.. إنه مشكل تمويل الجهود الإصلاحية التي تضمنها برنامجه الانتخابي، وتمت ترجمتها إلى حد كبير في البرنامج الحكومي المصادق عليه من قبل البرلمان نهاية شهر يناير/كانون الثاني ٢٠١٢. فمن الواضح أن انتقال الإسلاميين إلى ممارسة السلطة عبر قيادة العمل الحكومي تزامن مع ظرفية إقليمية ودولية موسومة بالأزمة المالية والانكماش الاقتصادي. لذلك، لاحظنا تراجعاً واضحاً في توقعات حزب العدالة والتنمية وهو يتحدث عن النمو الاقتصادي الذي تروم حكومته تحقيقه، فمن نسبة سبعة في المائة التي سوقها خطابه الانتخابي كسقف أعلى منتظر، شرع في التشديد على أن معدل النمو المزمع إدراكه سيتراوح ما بين ٢,٥% و ٥%، وإلى سبعة في المائة مع نهاية ولايته عام ٢٠١٦، ولا نعرف على وجه اليقين ما إذا كانت الظرفية الاقتصادية والمالية الصعبة ستسمح بتحقيق هذه النسبة. ومع ذلك، يتضمن برنامج الحزب وتصريحات قادته من داخل الحكومة وخارجها رهانات من شأنها تنويع

وتعظيم فرص انسياب رؤوس الأموال والاستثمار إلى المغرب، من قبيل " التمويلات الإسلامية"، على الرغم من النتائج غير الفعالية التي أسفر عنها هذا النمط من التمويل في دول عربية كثيرة [مصر أساساً]، وأيضاً الادخارات التي يراهن الحزب على جنبها من تخليق الحياة العامة وترشيد الإنفاق العام، ومحاربة الفساد واقتصاد الربيع.

تنطوي المعطيات المعالَجة أعلاه على مفارقة دقيقة بالنسبة لمستقبل حزب العدالة والتنمية وآفاق تطور تجربته السياسية والتنظيمية. فمن جهة، لمست قطاعات مهمة من المجتمع المغربي في فوزه إمكانيات وفرصاً مفتوحة على الإصلاح، بسبب أنه حزب حديث النشأة [١٩٩٨] - على الرغم من تشديد قاداته على أنه سليل الحركة الوطنية، وأن شرعيته تنهل من تاريخ الكفاح من أجل الاستقلال - ثم علاوة على حدائته، ظل سجله النضالي شبه أبيض، لم تنل منه إخفاقات بناء الدولة المغربية الحديثة، حيث ظل بعيداً عن مثالب السلطة ووزر ممارستها، كما حدث لمجمل الأحزاب السياسية المغربية، القديمة منها والحديثة. يُضاف إلى ذلك أن بروز الحزب وتعاطف قاعدته الشعبية، تزامنا مع ما يمكن أن نسميه " الزمن السياسي للإسلاميين"، وهي دورة تاريخية تشترك فيها عموم البلاد العربية، حيث هناك طلب متزايد على هذا النمط من الخطاب التوافق إلى ممارسة السلطة بلُبوسات إسلامية، بعدما تراجعت الخطابات السياسية المتناظرة معها، كما هو حال القومية، والاشتراكية، والليبرالية، والعلمانية والحدائثة. بيد أن " الإسلاميين"، وهذا هو الوجه الثاني من المفارقة، يفتقدون إلى الإمكانيات المالية والاقتصادية، وتعوزهم الخبرة المؤسساتية، وتقاليد تدبير الشأن العام، التي تمكنهم من ولوج أبواب النجاح في تجربتهم الحكومية. ناهيك عن القلق المتزايد للمواطنين ورغبتهم في أن يلمسوا بسرعة نتائج حكم الإسلاميين تغير أوضاعهم نحو الأفضل، في ميادين الشغل والصحة والتعليم، وكل ما يملكهم من العيش الكريم. إن المستقبل سيكون صعباً بالنسبة لتجربة حزب العدالة والتنمية من هذه الزاوية بالذات، أي أفق النجاح في الإنجاز، وتجنب الكبوات، وربما الإخفاقات التي قد تُضعف مكانتهم وتعرضهم لما يمكن تسميته " الترهل السياسي" Harcelement Politique، والسلطة، كما هو معروف، تساهم في الترهل وتنمي شروطه. فإذا كانت المقارنة بين تجربة الاشتراكيين المغاربة في السلطة [حزب الاتحاد الاشتراكي على وجه الخصوص] ونظرائهم في حزب العدالة والتنمية لا تنطوي على كل العناصر المطلوبة لصحة إقامتها، فإنها تساعد على الأقل على استخلاص العبر والدروس. فقد دخل الاشتراكيون المغاربة مقام السلطة بعد أن ظلوا قرابة أربعين سنة خارجها [١٩٦٠، ١٩٩٨]، غير أنهم خرجوا منها بعد ممارستها عقداً من الزمن ونيف [١٩٩٨ - ٢٠١١]، أكثر ترهلاً وانشفاقاً وتراجعاً على صعيد قوتهم السياسية والتنظيمية. ومع ذلك في السياسة كالفلاحة التفاوض واجب. ثم إن حزب العدالة والتنمية وعدّ المصوتين عليه أن يبقى صريحاً معهم، وفيماً للالتزامات التي قطعها على نفسه وأدى القسم من أجلها. لذلك ننتظر المستقبل للحكم على تجربة، إن نجحت في تفكيك تحالف السلطة

والثروة ولو بالتدريج، ستفتح الباب واسعاً لحياة سياسية جديدة في المغرب الأقصى، وربما لعموم البلاد العربية، بل وستدفع الفكر السياسي دفعا لإعادة النظر في أطروحاته حيال قدرة الإسلاميين على تدير الشأن العام باقتدار، بكفاءة تحريره عالية إزاء المنظومات الفكرية التي استبدت بعقول العرب وأثبتت عدم التأثير في اتجاه التغيير في المنطقة..

## الهوامش

(١) نصّ الفصل السابع والأربعون من الدستور المغربي الجديد ( ٢٠١١) على ما يلي: " يعين الملك رئيس الحكومة من الحزب السياسي الذي تصدر انتخابات أعضاء مجلس النواب، وعلى أساس نتائجها..". أنظر الجريدة الرسمية المغربية، العدد ٥٩٦٤ مكرر، بتاريخ ٣٠ يوليو ٢٠١١، ٣٥٥٩ وما بعد.

(٢) يتعلق الأمر بكل من حزب الاستقلال، والحركة الشعبية، وحزب التقدم والاشتراكية، علاوة طبعاً على حزب العدالة والتنمية (٣) أولى الدستور الجديد أهمية خاصة لموضوع الحكامة ومؤسساتها وآلياتها، حيث أفرد لها باباً منفرداً، هو الباب الثاني عشر الذي يبتدئ من الفصل ١٥٤ وينتهي في الفصل ١٧١. للإطلاع على الدستور المغربي، الصادر في ٢٩ يوليو/ تموز ٢٠١١، أنظر الجريدة الرسمية، عدد ٥٩٦٤ مكرر بتاريخ ٣٠ يوليو/ تموز ٢٠١١، ص ٣٦٠٠.

(٤) نُشر الخبر في العديد من الصحف الوطنية، وفي الموقع الإلكتروني لحزب العدالة والتنمية يوم الأحد ١١ مارس/ آذار ٢٠١٢.. راجع موقع الحزب: <http://www.pjd.ma/>

(٥) تكونت حركة ٢٠ فبراير عند انطلاقها من كل من مناصلي جماعة العدل والإحسان الإسلامية غير المرخص لها قانونياً، واليسار الاشتراكي الموحد، وحزب النهج الديمقراطي، وشتات من الجمعيات والمنظمات، ومناصلي بعض الأحزاب السياسية، ونشطاء جمعويين مستقلين.

(٦) تجدر الإشارة إلى أن الحزب يعتبر نفسه سليل الحركة الوطنية، وليس وليد انصهار أجبرته الظروف بين قاداته المنحدرين من "جمعية الإصلاح والتجديد" و" الحركة الشعبية الدستورية الديمقراطية"، بزعامة عبد الكريم الخطيب، التي لها امتدادات تاريخية قديمة، سواء داخل جيش التحرير المغربي، أو في أوساط النخبة الوطنية المغربية.

(٧) نشير إلى أن الدستور المغربي الحالي حدد في فصله الثاني والستين مدة الولاية التشريعية في خمس سنوات: "ينتخب أعضاء مجلس النواب بالاقتراع العام المباشر لمدة خمس سنوات، وتنتهي عضويتهم عند افتتاح دورة أكتوبر من السنة الخامسة التي تلي انتخاب المجلس". .

(٨) نصت الفقرة الثالثة من الفصل مئة على ما لي: " تقدم الأجوبة على الأسئلة المتعلقة بالسياسة العامة من قبل رئيس الحكومة، وتخصص لهذه الأسئلة جلسة واحدة كل شهر، وتقدم الأجوبة عنها أمام المجلس الذي يعنيه الأمر خلال الثلاثين يوماً الموالية لإحالة الأسئلة إلى رئيس الحكومة".

(٩) نص الفصل الحادي بعد المائة على ما يلي: " يعرض رئيس الحكومة أمام البرلمان الحصيلة المرحلية لعمل الحكومة، إما بمبادرة منه، أو بطلب من ثلث أعضاء مجلس النواب، أو من أغلبية أعضاء مجلس المستشارين. تخصص جلسة سنوية من قبل البرلمان لمناقشة السياسات العمومية وتقييمها".



## مستقبل التنوير في بلدان الربيع العربي: سوريا نموذجاً

د. عبد الرزاق عيد\*

تحتل موضوعة التنوير موقعا خاصا في فهم سيرورة حركات الاحتجاج الثورية في بلدان الربيع العربي، فالبلدان العربية ليست متساوية من حيث مراكمتها للتراث التنويري، حيث (مصر وتونس وسوريا) تتمتع بميراث تنويري متميز ليس عن بلدي الربيع العربي الآخرين (ليبيا-اليمن) فحسب، بل وعلى المستوى العربي عموماً. لكن المفارقة أن التطور السلمي للحراك الثوري في مصر وتونس، ومن ثم نجاح الحركتين الشعبيتين في مصر وتونس في إرغام رئيسيهما على التنحي والاستقالة، عبر استقلالية واضحة للجيش عن السلطة السياسية، أهلهته للانحياز الوطني إلى جانب الشعب، في حين أن سوريا المشابهة لهما ثقافيا، مدنيا، وتنويريا، أظهرت (سلطتها الأبدية) وحشية أكثر من النظام الليبي (القذافي) الذي لا يتوفر على مخزون تنويري كما هو الأمر في سوريا، وكذلك اليمن الذي يفترض أنه الأقرب إلى البنية القبلية الليبية، قبل بالتسوية السياسية السلمية دون (خيار القذافي - أو الأسد).

وهذا ما سيطرح على الباحث رصد الخصوصية السورية في هذا السياق، لتفسير سؤال: لماذا نحت باتجاه نموذج القذافي، ولو بهمجية أشرس، وأكثر وحشية، جعلتها نموذج وحده في الاستهداف المقصود المتعمد والممنهج للقصف المفعم بالأورغاسم الشهوي الغريزي الشاذ إنسانيا، حيث نقلت لنا أفلام (اليوتيوب) دبابات تقصف عمارات دون أن يكون في مواجهتها أحد، وتعتبر عن انتشارها

---

\* باحث وناشط سياسي سوري

وانتعاظها اللتذاذي. وهؤلاء الشباب الذين يقصفون العمارات بالدبابات يتبارون في شبهم التدميري حول عدد الطوابق التي تتكون منها العمارة المقصوفة: (أربعة أم خمسة طوابق)، وهذا الانتشاء كان تعبيراً صارخاً عن الذات الغريزية الانتقامية الثأرية الموغلة في اندساسها باللاشعور الجمعي المهووس بالكره التاريخي للآخر، حيث الكراهية هنا تتحول إلى هوية تتعرف بها الذات على أنها، من خلال تعريف ذاتها وتمييزها كهوية عبر توحدها حول كراهية هذا الآخر (في الوطن ذاته) الذي شكل الحماية الطبيعية للهوية الوطنية عبر التاريخ.. ومن هنا تبدو الرغبة الانتقامية باستئصال شأفة الآخر، وذلك بإشاعة هذه الظاهرة المميزة بوحشيتها عن مثيلاتها الديكتاتوريات.. وهي ظاهرة قتل الأطفال، واستخدامهم دروعاً بشرية، أي أن الخيار الأسدي دفع بسوريا أن تكون بعيدة عن سيرورة مثيلاتها في التاريخ التنويري العربي: في النموذجين: (المصري والتونسي).. بل وتجاوز الخيار القذافي.

إنه عالم من الغرابة والشذوذ، حيث تنتج نوعاً من الوحشية التي تتجاوز كل أشكال الفانتازيا..... وفي هذا الجحيم الذي لم تستطع مخيلة دانتي أو أبو العلاء المعري أن تنتجه فانتازيا، أي علينا أن نبحث عن آفاق التنوير وممكنات النور وسط ظلمات هذا الجحيم.

### إطالة تاريخية على دلالة مفهوم التنوير وسياقاته:

لقد كتبنا في مقدمة كتابنا (أزمة التنوير: شرعة الفوات الحضاري - مركز الامماء الحضاري (القاهرة -دمشق) -الطبعة الثانية ٢٠٠٥) عرضاً للموضوعات التي تناولناها كنمهيدي نظري تاريخي، لولوج موضوعنا عن (أزمة التنوير) منذ خمسة عشر عاماً في الطبعة الأولى للكتاب، التي كان لا بد منها لكي نتلمس آفاق مستقبل التنوير عربياً، ليتمكن تناوله في نموذج الخصوصي السوري، المعاصر النكوصي عن روح وحلم التنوير، الذي شغل المثقف النهضوي التنويري منذ القرن التاسع عشر، حيث حلم فرح انطون منذ عام ١٩٠٣، وذلك عندما نشر كتابه عن "ابن رشد".

كما قاربنا بحثياً القراءات التراثية الجديدة، وتحديات الواقع الراهن، تناولنا فيه شروط ولادة القراءات الجديدة للتراث، بوصفها ثمرة تحدي الجديد الذي يطرحه الغرب (استعماراً وحضارة) على الفكر العربي بل على الكيان العربي ذاته، حيث نجد كيف أن فكر النهضة العربية تفاعل مع التراث، ليس بوصفه الإشكالية المركزية للفكر العربي، كما يظهر خلال العقود الثلاثة الماضية، في الخطاب العربي المعاصر الذي قام المرحوم الدكتور محمد عابد الجابري بإطلاقته الشهيرة والمميزة عليه في كتابه "الخطاب العربي المعاصر"، فالتراث في عصر النهضة (التنويري) كان إحدى الإشكالات

التي من خلالها، كان الخطاب النهضوي التنويري بتعدد تياراته (الشيخ والتقني والليبرالي) يتأطر حول الشرعية الدستورية القانونية المدنية باعتبارها لا تتناقض مع الشرع، فأنتج ضرباً من المصالحة بين علم الأوائل وعلوم الإفرنج والعجم، بين النقل والعقل، وفي عصر التنوير العربي الحديث: إنتاج المثاقفة بين العقل العربي والعقل الغربي، بين التراث والمعاصرة، بين الإيمان والعلم، بين الوحي والواقع. وبذلك كان عصر النهضة (التنويري) في القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين، يتكيف بموروثه الديني والتراثي مع متطلبات ومهام وتحديات عصرهم، مانحين النهاجية الغربية التي تأثروا بها بعداً جوانياً، عندما أضلواها في العمق التراثي، حيث روح التنوير كانت تسكن مفاصل الكتابة التنويرية، من خلال حل مجموع الثنائيات المتصارعة، لصالح (العقل -التقدم - الحرية).. وسميتملها الكواكبي في سوريا في أواخر القرن التاسع عشر، وبداية القرن العشرين، وسنجد امتداداتها مع المتنور الحمصي (عبد الحميد الزهراوي)، ولذا ليس صدفة أن الإثنين لقياً حتفهما قتلا، على يد السلطنة العثمانية ذات الطربوش العثماني الفارغ.

وقد كانت المناهج المدرسية والجامعية السورية تسكت عن المحتوى التنويري لمشروع الكواكبي، ولاحقاً الزهراوي مع مجموع مثقفي شهداء ٦ أيار ١٩١٦ الذين أعدمهم جمال باشا السفاح بوصفهم عملاء للغرب كالعادة المألوفة لدى الديكتاتوريات الشرق أوسطية، حيث الشموليات الظلامية دائماً تتهم الفكر التنويري بأنه مستورد وعميل...

وهذه النزعة لا تزال لها مؤيدوها ومريدوها في الثقافة العربية، وذلك لدى كل الشموليات السلفية (قومية أم إسلامية أم شيوعية ستالينية)...بل إن هذه الآلية تبلغ حداً من (الهلوسة)، أن يتهم الحاكم المستبد العسكري الأمني الطائفي شعبه كله بالخيانة والعمالة؛ وتفرد به وبطانته (العصبوية) بالوطنية، والقومية، ورفض الغرب بوصفه استعماراً، ولدى الاسلام السياسي بوصفه (صليبياً) ولدى اليسار بوصفه (امبريالياً). فإذا كان تكفير وتخوين (التنوير) يوجه إلى نخب فكرية في زمن الانكشارية العثمانية، فانه في زمن الانكشارية الحديثة، يتم بتخوين الشعب كله كمنفذ للمؤامرات "الكونية"...

والغريب أن التيار القومي واليساري بهوسه الشعاري بمعنى (السيادة الوطنية) التي لم يقدم لها أي تعريف خاص بمنظورهم، سوى الموروث التحرري (الأنتي كولونيالي القديم) المتكون في سياقات مواجهة الاستعمار الكولونيالي، أي ثنائية (داخل وطني /خارج استعماري) دون تكوين مفهوم عن الوطنية (التنويرية/المواطنة) المتكوّرة على الذات، حيث الفعل المنطلق منها يعود فاعلاً فيها، متمثلاً بدولة المواطنة التي تتأسس على الشرعية الدستورية ومبادئ حقوق الإنسان، وهو التيار السوري الذي سمي نفسه بمعارضة الداخل ممثلاً بـ(هيئة التنسيق). فلقد أدانوا التظاهرة (النصف

مليونية) في حماة، عندما عبرت عن ترحيبها بالسفير الفرنسي والأمريكي، وهي تحمل الزهور وأغصان الزيتون تعبيراً عن سلمية ثورتها أمام شاهدين ممثلين لدولتين عظميين، وكان حضورهما من الناحية العملية والمردودية الإجرائية التي يتحسسها المتظاهرون الشباب المترعون حبا بثقافة الحرية والكرامة ، وذلك بالتضاد مع (النظريات الرمادية للايديولوجيات (القومية واليساروية والإسلاموية) التي غلفها الغبار في تلافيف أدمغة قادة معارضتهم المصابة بتصلب الشرايين!

وعلى هذا كانت قراءتنا في فكر التنوير العربي من منظور القراءات الراهنة للتراث، تنطلق من أنه كان ثمرة التحدي الذي طرحته هزيمة ٥ حزيران على العقل والوجود العربي، مما أدى بهذه القراءات إلى أن تنحو باتجاه مغاير للقراءات النهضوية التنويرية التي كانت تنتج قراءات متصالحة ومعاصرة لعصرها، لتبرهن أن الإسلام في روحه لا يتناقض مع الحداثة والتقدم الأوروبي والعالمي، بينما القراءات المعاصرة كانت خاضعة لتأثيرات الصدمة الحزيرية التي راحت تنتج تكيفاتها مع شروط هذه الهزيمة عبر المزيد من الانكفاء والردة عن القيم العقلانية التنويرية للفكر النهضوي، حيث راحت القراءات الجديدة تتكيف مع الزمن الهابط، زمن الهزيمة، من خلال التكيف مع توسع سلطان السلفية، التي وجدت في الهزيمة الحزيرية، هزيمة للفكر التقدمي العربي التنويري: بشقيه القومي واليساري (ناصرى- بعثى - شيوعي)... فكان شعار (الإسلام هو الحل)، الذي سيهيمن على فضاءات العقل العربي. كان على الخطاب القومي اليساري أن ينافس شعار (الإسلام هو الحل) بمزيد من التكيف مع الخطاب الإسلامي التقليدي السياسي (الأخواني) الذي قطع مع مؤسسه حسن البنا العلاقة التنويرية: (ليبرالية حداثية أو إصلاحية إسلامية): أي حركة التنوير الليبرالية الحداثية (أحمد لطفي السيد - طه حسين)، والتنويرية الإسلامية الإصلاحية (محمد عبده - علي عبد الرازق)... لكن عبد الله العروى، يذهب إلى أنه إذا كان التنويريون تميزوا بالجرأة الفكرية، لكن هذه الجرأة اختفت تحت الاحتلال.. ولهذا كانوا عرضة للنقد والملاحقة، إذ قد حدثت عملية الملاحقة الفكرية للإمام محمد عبده، والشيخ عبد العزيز الثعالبي، والطاهر حداد في تونس، ومن ثم طه حسين، وعلي عبد الرازق في مصر)، وذلك حسب العروى: (الحبيب الجانحاني - مرجعيات النهضة العربية والدولة المدنية (موقع سؤال التنوير - ٢٠١٢/١٠/٢)

وبذلك فإن الخطاب التراثي المُحدَّث انكبَّ يصفى الحساب مع كل قيم التنوير التي أنتجها الزمن النهضوي التنويري، من خلال تجربته، وتأثيره، وتخوينه للزمن الليبرالي التحديثي العربي بوصفه زمناً استعماريًا، زمن التشوه الذاتي والغزو الثقافي، واتهامه بالتغرب والاستلاب، كونه لم ينتج وعياً مطابقاً بزمه وإشكالاته الخاصة، بل طرح إشكالات غريبة عن واقع المجتمع العربي، حيث الهجانة، والإصلاحية، والقصور. وبلغ الأمر حد تخوين الإمام محمد عبده واتهامه بوطنته، حيث ينعى



عبدالله العروي على حركة التنوير نقصانها "الدقة والتثبت"، بل وإنها تكتفي في غالب الأحيان " بتلخيص مقالات مسرة، ونشرت كتب شعبية مبسطة... تهتم بالجوانب التافهة في الحضارة الغربية، وتهمل أخرى ثابتة " حسب العروي:(المرجع السابق -الجانحاني).

### العقلانية وإنتاج الوعي المطابق في الفكر العربي:

كان عبد الله العروي المفكر المغربي المجتهد الأول في نقد التنوير العربي الذي عرف في الزمن النهضوي الأول لنهايات القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، ومن ثم تأييم القراءة النهضوية وإنكار أهمية دورها التنويري، أي عجز مصفوفة الترسمة الثلاثية الشهيرة (الشيخ والتقني والليبرالي) عن إحداث التغيير المنشود، حيث بالنسبة إليه: " لو نجح إصلاح النهضة لما تم الاحتلال الأجنبي للبلدان العربية":(الجانحاني -المصدر السابق).

ولهذا (ردا على أطروحة العروي التي كنا مختلفين معها في الأصل كافتراض نظري)، قمنا بمقارنة فكرية نظرية بين إنتاج طه حسين في ميادين التراثيات، والقراءة المعاصرة التي قدمها محمد عابد الجابري المعاصر لنا، ويوصف طه حسين ممثل أوائل العصر الحديث (القرن العشرين)، مظهرين عبر التحليل، كيف كانت عقلانية النهضوي (طه حسين) عقلانية تاريخية تنويرية، تراهن على ميثاق الأنوار وانبثاقاته الطبيعية الجوانية النيرة، التي تبدد ظلمات الأوهام. أوهام المتوارث والمتعارف عليه اصطناعا وعرفا وتقليدا، حيث أنتجت نهائية طه حسين وعبها المطابق لزمناها وإشكالياتها الحدائثة المزامنة لعصره. وكانت في نهجيتها أكثر إجرائية ومردودية معرفية في إنتاج وعي مناسب لحاجات الواقع العربي للتطور فالتقدم.

أي أن ترسمة طه حسين المنهجية كانت أكثر تقدما إجرائيا وفعالية تنويرية، من النهائية العقلانية السكونية البنيوية لنهائية الجابري، التي أنتجت وعياً مفوّتاً بحاجات الواقع عندما حولت التراث إلى أب(بطركي) نستشيريه بكل خطواتنا نحو المستقبل، بل وساهمت -باسم الخصوصية والبنيوية- النسقية بتعزيز وتكريس انقسامات العقل العربي إلى أنساق مغلقة، تضيء المشروعية على واقع التأخر، وتعيد تذييره من مستوى (وعي الأمة)، إلى مستوى (وعي الملة) حيث ترسيم الأطروحة الاستشراقية عن وجود إسلامين (شيوعي وسني) سيما بعد الثورة الإيرانية (الخمينية) وطموحها لاستخدام المذهب الشيعي، استخدما ذرائعاً قومياً فارسياً وصفوياً.

وهي الصيغة الأكثر حضوراً اليوم أمام مستقبل التنوير السوري في ظروف الربيع العربي الذي يتحول في سوريا إلى شتاء قاس قارس جداً، تملؤه الأعاصير ويعصف به زهمير الأهواء العصبوية والمذهبية ما قبل مجتمع الدولة والأمة.

من خلال إطباق قوى التسلط على المجتمع المدني، التي تتحكم فيها غرائزية محدثة، لم يبق أمام التنوير إلا دهاليز ظلمات نفس ملتأثة بالبدائية والسحر الطقوسي الداخلي الباطني العرفاني (الغنوصي) السحري الخرافي (الميثي)، الغارق بالدم وهمجية القتل والإغتصاب، وهي تتوهم الحداثة والعصرية ومشروعية قتل الآخر بوصفه رجعيًا سلفياً إرهابياً!!

لنخلص بعد ذلك إلى أن مأزقية مشروع التنوير العربي التي تمثلت في صيغة (إعادة انتاج حداثة التأخر) باسم الخصوصية وبعث ثقافة الهوية بمعناها التقليدي الانكشاري المملوكي ما قبل الدولة الحديثة، لا يتجاوز مفهوم التغيرات مع الآخر الأجنبي القابع دائماً (هناك في الخارج)، وليس التغيرات مع الآخر الظلامي الاستبدادي الرعاعي، الطائفي العسكري العائلي القابع دائماً (هنا في الداخل)، كما بلورها الربيع العربي، وخاصة في سوريا التي يتوحد فيها الاستبداد والديكتاتورية العسكرية والمخابراتية، مع الطغيان الطائفي والعائلي (الأسدي) مما ليس له نظائر وأشباه ومثالات في عالم الاستبداد الاستثنائي العربي، العربي.

وتلك هي إحدى المميزات الفانتازية المرعبة لخصوصية الطغيان الأسدي الذي كان لا بد أن يترك آثاره على المضاد التنويري المفترض المعارض، الذي سيفرض عليه ضرورة ازدواج تعايش: (سلاح العقل، بعقل السلاح) في مواجهة قوى استثنائية في التاريخ البشري بدرجة تعويلها على ردود فعل هيجانان الغريزة بل وما قبل الغريزة، حيث القتل المتعمد الذي يلتذ بالذبح، وتحطيم وتهشيم الرؤوس بالبلطات، مما يدعو إلى العودة إلى الأبحاث الإنسانية والانثروبولوجية لدراسة سيكولوجية القبائل الهمجية.

### مأزق التنوير / حداثة التأخر:

خلال هذه الصيغة ستترأى أمام ناظرينا درجة الانغماد الفكري، والنكوص الثقافي في حياتنا الفكرية الثقافية المعاصرة عن كل منجزات التنوير التي حققها الفكر العربي حتى منتصف القرن التاسع عشر، وذلك إذا ما قمنا بجولة عامة في نصوص الخطاب العربي المعاصر، الذي يبدو (إلا قليلاً) أنه كفر مبدأ التقدم، وبكونية العقل، وتاريخية الوعي، عبر البحث عن أنساق حضارية لا تتصارع فحسب، بل تتحارب، من خلال انغلاق كل نسق على سيرورة تطوره الخاص. هذه الخصوصية، ستغدو أداة مفهومية لشرعنة الفوات الحضاري، أي القبول بمنتهى العقل أو الأدق اللاعقل، بأن خصوصيتنا تكمن في تأخرنا، في عطالتنا الثقافية التي تحمينا من اجتياح الآخر الغرب.. في زمن تحكمه (حرب الحضارات)، وفق أطروحات ما بعد الحداثة لهيمنتغتون وفوكو ياما.. لتجديد مقولة

كيلنغ حول "الشرق شرق والغرب غرب، ولن يلتقيا".

وعلى هذا سيبدو الربيع العربي، والسوري بخاصة ك لحظة مضادة، بمثابة مفاجأة تاريخية لكل ما راكمه العرب في العقود الأربعة الأخيرة، من نكوص عن التنوير، وانكفاء على الماضي التراثي: (الديني/ أي ما سمي باليقظة الإسلامية/الإسلام السياسي)، أو ما سمي بالخصوصية القومية التي انتهت إليها الفكر القومي (الناصرى والبعثي) الذي تغدو محصلته (خصوصية الاستبداد) في النموذج (الأسدي، الصدامي، القذافي، ونسبها الجزائري واليميني).

وهذان النسقان هما الأشد ترابطاً وتحالفاً ضد الربيع العربي، والأشد عدوانية وشراسة ضد الربيع التنويري السوري بسبب العناصر البنيوية المشتركة بينها وبين نظام عصابات الفساد والشمولية الأسدية.

في إطار تلمس آفاق التنوير في نموذج الربيع السوري، كان لا بد لنا من الإطالة على مشهد البحث في مسائل الفكر الديني وأرستقراطية الحداثة بهدف المقارنة واستجلاء صورة الثورة السورية اليوم ومعنى تحولاتها من إيقاعها المدني السلمي المخملي الرفيع خلال الستة الشهور الأولى، إلى استدراجها لحمل السلاح دفاعاً عن الذات بعد سقوط حوالي ستة آلاف شهيد لم يُرم فيها حجر من قبل المتظاهرين، وذلك باعتراف الأسد نفسه. ولهذا كنا قد أطللنا على الخطاب العربي المعاصر المنصب على المسائل الراهنة، التي تتجلى فيها مشكلات الفكر الديني، في صيغته النظرية، وممارساته السياسية، وشكل حوار مع الحداثة، فقمنا بمراجعة بحثين لنا في كتابنا (أزمة التنوير - سبق ذكره)، ومن ثم استخلاص النتائج الضرورية لبحثنا الراهن، وهما بحثان يتناولان أشكال تحقق الحداثة في السياق الثقافي العربي (السوري) من خلال نموذجين لفكر الحداثة السورية: الأول، (سلمان رشدي في المنظور العربي) للدكتور صادق جلال العظم، والبحث الثاني، للأستاذ أنطون مقدسي، الحداثة "عقدة الأفاعي".

الأول: بين سلمان رشدي وصادق جلال العظم، تناولنا فيه كتاب (العظم) "ذهنية التحريم" سيما الجزء الأكبر منه حول "آيات شيطانية" لسلمان رشدي، الذي ينتج من خلاله العظم خطاباً تقريبياً للرواية، لا يقلل حماسة، عن التأييم السلفي لها، ووجدنا أن وظيفة نقد الفكر الديني فيه، ينال من الدين الشعبي، ومخيمه الاجتماعي، وضميره الثقافي الوطني، أكثر مما ينال من الدين الرسمي (الأوتوقراطي) أو الدين المؤسسي (الثيوقراطي)، مما بدا وكأنه اعتداء على حقوق الإنسان في حرية اختياره لعقائده وطقوسه.

إن نقدنا لخطاب الصديق صادق جلال العظم حينها، أتت تجربة الربيع العربي في سوريا، لتبرهن

على صواب قراءتنا وخيارنا لما سميناه حينها بالإسلام الوطني الشعبي، في مواجهة الفكرانية الأرستقراطية التي تنظر للدين كمؤسسة رجعية، فأثت ثورة الشباب كثورة للحرية والكرامة تستمد مرجعيتها من فكر مدني (تنويري) كوني يتأسس على منظومة (إعلان حقوق الإنسان)، أي تتخطى الإيديولوجيات إن كانت دينية أم علمانية، يمينية أم يسارية، إنها ثورة الربيع (ما بعد العواصف)، أي ما بعد (الثورة السلمية التي هي تعريفاً، ما بعد ثوروية الإيديولوجيات).

نعم إنها تملك ذات النسغ العالمي السلمي الديمقراطي للثورات البنفسجية في أوروبا الشرقية، لكن الفرق هنا ليس في نوعية الثائرين الشباب المتشعبين بقيم التنوير (كونية الحرية والكرامة) عربا كانوا أم أكرادا أم سريانا سوريين على المستوى السوري، بل بدرجة صلابة نواة التحجر الاستبدادي للأنظمة الطغيانية، بين أنظمة النظام الأوروبي (حتى الشرقي) والنظام العربي، حيث الخسائر البشرية لثورات الربيع الأوروبي تكاد أن تخلو من المجازر حتى وإن كانت لم تخل من الضحايا، حيث يكاد أن يكون عدد الضحايا مقياساً لدرجة التمدن السياسي المجتمعي والدولتي لأوروبا الشرقية من جهة وبين الربيع العربي المشابه في سلميته شعبياً من جهة أخرى، والأمر نفسه، يمكن أن ينطبق على امثلة الربيع العربي بالقياس للنموذج السوري، حيث كان يفترض أن يكون النموذج السوري على مستوى تمثيل المجتمع المدني ومنجزاته الحداثية ثقافياً واجتماعياً هو الأقرب للنموذج التونسي والمصري من النموذج الليبي.

لكن رد النظام (الأسدي) يكشف أنه كان يتخطى في همجيته رد (القذافي)، وهذا ما يفسر المفارقة البدائية الغريزية المتوحشة للنظام الأسدي في كونه متخلفاً عن منسوب مجتمعه المدني، ويظهر مدى الصعوبات والعقبات التي واجهت قوى التنوير الديمقراطي السلمي الحداثي في سوريا الذي وجد نفسه بعد ستة أشهر من القتل بمواجهة صدوره العارية، أن لابد له من الدفاع عن الذات عبر اللجوء إلى السلاح. وعندما يحضر عالم السلاح -بطبيعة الحال- سينحسر الفضاء المدني والتنويري لصالح العنف والعنف المضاد، في لحظة انكشاف للخداع والحيادية الأوروبية والغربية أمام عيون الشباب السوري الذي استشعر أنه خذل وهو يصنع أرقى ثورة مدنية تنويرية يفترض أن يرحب بها كل دعاة (العالم الحر)، بل ومخملية خلال ستة شهور فقدت ستة آلاف شهيد كانوا يواجهون (المخزر بالعين).

وهذا يعني أن تجارب التنوير التي كانت تراهن على نقد جذري (العظم) ونقد نخبوي حداثي (مقدسي) للدين ذاته عبر النيل من مقدساته وتفكيكها، لم يجد صدها في الحراك المدني التنويري لحركات الشباب: في الربيع العربي والسوري، وأن مراهنتنا على نقد (الفكر الديني المنتج بشريا وليس نقد الدين ذاته المنتج غيبياً)، كما كان حوارنا مع الصديق د.صادق جلال العظم ولاحقاً

مقدسي، قد برهنت صحة مراهنتنا هذه، على ما سميناها (الدين الوطني الشعبي) وكشفت عن اجرائيتها وفعاليتها ومطابقتها لوعي الشباب المدني (التنويري) من خلال لقاء الجميع في (ساحات الجوامع) دون عقد وتشنج مذهبي أو ديني، والتي شكلت ساحات الانطلاق للتظاهرات، دون أن يعني ذلك أن التظاهرات إسلامية بالمعنى السياسي (إسلاموية)، بل هي مظاهرات وطنية مدنية (تنويرية: الحرية والكرامة)، لم تشكل لعلمانيينها ويسارييها ولطوائفها من المذاهب الأخرى عوائق ايديولوجية (فكرانية نخبوية - أدونيس) ضد رمزية الجامع.. بل ولدينا معطياتنا الشخصية أن ابناء أصدقاء من طوائف مسيحية، ومذهبيات إسلامية (دروز - اسماعيليين - علويين - يزيديين) أخرى كانت تخرج من الجامع دون اهتمام بالعوائق النفسية وعقد الرهاب (الفوبيا الإسلامية)، وذلك نأيا بالنفس عن سياجات العزلة الايديولوجية التقليدية المفقوة لأبائهم وأجدادهم الذين حولوا الحداثة من فضاء عقلي إلى سياج دوغمائي على حد صياغات الراحل (محمد أركون).

أما النموذج الآخر للتنوير الفكري: انطون مقدسي، فهو مع أدونيس الأكثر تداولاً تبشيريًا بالحداثة بشكل نخبوي مباشر متطرف بوصفها إيديولوجيا وليست فضاء معرفيا، وإن كانت تنحى عند أدونيس منحى الحداثة الشعرية رغم تكشفها لنا فكريا عن مضمير باطني طائفي، عندما ترى في الحداثة فعلاً أقليا (شيعيا) منشقا ابداعيا على وعي الأثرية التقليدية المحافظة (الأثرية - السنة) بمثابتهام ممثلا لـ "الثابت"، بالصد من الأقلية (الشيعية) كمثلة لـ "المتحرك"، وقد أشبعت كتابات أدونيس بحثا ونقدا في الكشف عن الجذور الطائفية لـ (تنويره) الحداثي... لا يمكن أن يكون هناك ثمة تنوير - حسب عصر التنوير - إذا لم ينبعث النور من الداخل... فهل يمكن أن يكون هناك ثمة تنوير في تجربة أدونيس المنطوية على (باطنية - طائفية) تعتقد - طائفيا - بأنها تحتكر التنوير والتحرير والحداثة (المتحول).

ولهذا فقد كان تأثيره بجيل من هوة الشعر المشغولين بهموم شكلانية بحثة، لكنه لا يمكن على مستوى الفعل التنويري الاجتماعي إلا أن يكون زركشة على سطح جسد اجتماعي تالف (ثابت)... ولن يظهر من الحداثة الأدونيسية في بيئتها الثقافية - الاجتماعية الطائفية (المتحركة) إلا شكل تحرر جسدي غرائزي، لا يستند إلى ثقافة التنوير، بل يستند إلى موروث حسي إباضي بدائي أقرب إلى روح المشاعية، منه إلى روح المنظومات المدنية والحداثة العصرية والتنويرية التي اعتبرها فرويد تمثيلا لتاريخ الكبت، بوصف الكبت الثمن الضروري للمدنية والتنظيم الاجتماعي الحديث، وذلك لانتقال البشرية من المرحلة الغريزية الحسية إلى المرحلة المدنية العقلانية، حيث المزيد من الحضارة يعني (مزيدا من الكبت) على طريق تطويع وتدريب الغرائز باتجاه مجتمع العقل الضابط والمحاصر لـ (الهو)، (هو) اندفاعات عالم النشوة الغريزة واندياحاتها التلقائية الطبيعية، فذلك ثمن

لا بد منه للحضارة ومكبوتاتها -حسب فرويد- على طريق تحرير الغرائز حضارياً وعقلياً. وهذا مما يصعب أن تستوعبه الانفلاتات الحسية لغريزة ابن الطبيعة البدائية الحسية، للشعرية الأقرب للطبيعة الفجة الأولى، المستولية على الهواجس الشعرية، والانفعالية الميثية الباطنية، التي تحكم (التنويرية الطائفية) لأدونيس.

أنطون مقدسي الداعية التبشيري فكرياً ونظرياً (أيديولوجياً) للحدثة (التنويرية) بالتوازي مع أدونيس داعية الشعرية الحدائية المشبعة بالفطرية الغريزية الباطنية الممتلئة بالحدوس، وإشراقات واسراءات وعروج النفس، في غياهب الحلم والرؤيا السحرية، للإمساك بالنور السحري (الميثي)، ولا تملك الوعي التاريخي للتنوير العقلاني المدني الديموقراطي !

أنطون هو الداعية فكرياً، ونظرياً، ترجمة وتأليفاً، ودعوة، في الثقافة السورية من موقع المثاقفة مع الغرب إلى الحدثة والتنوير. لكن حَدَّثَتْهُ التنويرية، لم تُنتج سوى زركشة على جسد بُنى مفوّته، مهترئة لأنها لم تنتج وعياً مطابقاً بزمنها التاريخي، مثله في ذلك مثل نموذج الحدثة الشعرية أدونيس، ولذا فقد انتهى مقدسي "الذي بدأ كمتقف قومي عربي يؤمن بالوحدة والحرية والاشتراكية إلى لاءات الحدثة التي تؤمن بكل شيء على قاعدة انهيارته، أي من نضالية رومانتيكية واثقة من فعاليتها الذاتية إلى برزخ سديمي، حيث لا ذات ولا موضوع، ولا مادية ولا مثالية، وحيث القلق والخوف وإرادة كلية القدرة يصنعها الغرب الذي هو خطة واختصاص مُغفَل " على حد تعبيره: (الحدثة: "عقدة الأفاعي" قراءة في النموذج السوري للحدثة (أنطون مقدسي)، وذلك في كتابنا: أزمة التنوير "شرعنة الفوات الحضاري") - مصدر سبق ذكره.

وعلى هذا شكلت تجربة التنوير الحدائية (الفكرانية) حالة "ثقافية" نخبوية انعزالية متعالية ومتأففة في تعاليها على وعي (العامّة /العوام)، بوصفها رجعية (دهماوية). وهي تتقاطع في نقطة واحدة رغم وهم التعارض الأيديولوجي الشكلي، مع الخطاب القومي (الناصرى والبعثى والشيعى) في التعامل مع (مستقبل الخطاب)، أي مع (الملتقى) بوصفه جمهوراً (الجماهير الشعبية) الغفيرة التي تقاد من قبل (راعيها: الزعيم التاريخي -والقائد الأوحّد- القائد الضرورة -الأب القائد... الخ) كالقطعان.

بل بدأ هذا المصطلح الذي يؤكد (رعاعية الرعية) ينتقل إلى المجالات الثقافية: الفنية والأدبية: (معبود- ومعبودة الجماهير...)، بل إن الخطاب الإسلامى لا يزال حتى اليوم يتعامل مع الشعب، ليس بوصفه مصدر السلطات، بل بوصفه "رعية". والقومى ينظر إليه (لبنة وحدوية) في جدار الوحدة العربية التي لا تعترف بالهوية السورية. واليسارى الذي ينظر إلى الفرد بوصفه (لبنة في

جدار مواجهة المشروع الامبريالي العالمي... بل وحتى الليبرالية العربية التي يفترض أنها تنطلق من فلسفة الفرد، بوصفه النواة الأولى لمقاربة أية حالة اجتماعية أم مجتمعية، كان قد تم طمرها تحت ركام الايديولوجيات الشمولية (قومية -يسارية -إسلامية -أو نخبوية فكرانية حدائية ثقافية)، فقد سيطر عليه الشعور بأنه دودة أو عبد مخصي، مقابل ديكية الآخر وفحولته التي برهن عليها الغرب من خلال (فتونته الديكية) الإسرائيلية في حزيران، بهزيمة العرب سنة ١٩٦٧.

ولهذا ليس هناك في الفكر العربي سوى منظومة ياسين الحافظ، الداعية إلى ضرورة المدخل (التنويري الليبرالي)، كتمهيد تاريخي ضروري لكافة تيارات الفكر العربي، هي المنظومة الوحيدة المتبقية لنا من تاريخ الأفكار السياسية السورية محافظا على حيويته وراهنيتها بالتوازي مع عبد الله العروي المغربي، الذي كان- بدوره- الداعية الأول لأطروحة ضرورة التمهيد الليبرالي التنويري للمرحلة الوطنية واليسارية لاحقا. رغم أن العروي عاد وشكك بفاعلية التنوير العربي كونه لم يحل دون المرحلة الاستعمارية، ثم عاد مراجعا لأطروحته هذه، فلقد ظل موقفه مضطربا من هذه الإشكالية! بينما ظل الحافظ أمينا لمسألة (التنوير الليبرالي) وإن لم يتمكن من التحول في حياته وزمنه، ولا عبر حزبه الذي خلفه في عدد من البلدان العربية، أن تتحول (مصفوته النظرية التنويرية هذه) إلى فكر اجتماعي أو تيار سياسي اجتماعي عريض، إذ ظل أسير وعي النخبة المثقفة. ولعل نفوذ فكر الحافظ الأوسع في دولة المغرب وربما الأردن كأنظمة ملكية تسعى للتمسك والاحتفاظ بإطار من الشرعية الملكية الدستورية، يفسر لنا حالة سلاسة التحولات الديموقراطية (دون مخاض الانتفاضات الثورية) بتعدد إيقاعاتها عربيا في هذين البلدين (المغرب والأردن). أي أن الموروث الليبرالي التنويري لم يجد مقاومة عنيفة فكرية وسياسيا وأمنيا - كسوريا بلد الغنائية الثورية ايديولوجيا سلطة ومعارضة- حيث أظهرت التجربة التاريخية العربية أن الملكيات العربية كانت الأقل شراسة في مواجهة التنوير، ربما بسبب موروث مدني تنويري للنخب الملكية الحاكمة في (المغرب والأردن)، بالعكس من أبناء رعا ع وحثالات الانقلابيين أصحاب: (الرطانة الشعارية الجماهيرية: الفلاحية الرعاعية والحثالة المدينية) المتفاصحة هزاء وسخرية وميلودراما باسم الشعب الذي لا يعني بالنسبة لهم (سوى جماهير العامة من الرعية التي ينبغي أن تؤمن: أن لاصوت يعلو فوق صوت الزعيم الأوحده) حيث خلف هذه الصيغة تكمن ثورية كاريزما زعامة (القوميين واليساريين والإسلاميين).

هذا على المستوى الداخلي لمنظور الكتل والشرائح الاجتماعية والتيارات الفكرية والأحزاب السياسية لذاتها ولمجتمعتها وسيرورة حركيتها. أما على المستوى الخارجي الدولي والعالمي، فلقد ظل التصور العالمي للستاتيكو-الإقليمي والدولي القائم بعد الحرب العالمية الثانية هو السائد والمهيمن والمعمول به، حيث يفترض أن الشرق الأوسط، وفق هذا الستاتيكو، هو مجموعة دول

- بلا شعوب- تديرها أنظمة ديكتاتورية لا تسمح للشعوب بدخول ساحة التاريخ ليكون لها رأي بمصائرها. فدول الشرق الأوسط، كما تعاملت دولها مع شعوبها بوصفها (رعايا عوام جماهيرية دهماوية)، نظر إليها الغرب الأوربي والأمريكي بذات الرؤية، وفق الترسمة التي رسمتها أنظمتها عن شعوبها ومصائرها، أي إما:(الأنظمة الديكتاتورية الحاكمة أو الأصولية السلفية الجهادية "القاعدة" على سبيل المثال...أو الفوضى). ولهذا ظل جيل الشباب الذي يمتلك (المشترك التنويري بين كل قوى المجتمع السوري: يسار وقوميين وإسلاميين) بمنأى عن الأطر السياسية التي تشكلت رسمياً بالتوافق مع النظام السوري والعربي والدولي (داخليا:هيئة التنسيق - وخارجيا: المجلس الوطني). ولهذا -أيضا- ظل الوعي المدني (التنويري المشترك:إسلامي- قومي -يساري- ليبرالي)، بين تيارات الفكر السياسي السوري، والذي كان هو المكون الرئيسي لقوة الثورة السورية الرئيسية السلمية خلال الشهور الستة الأولى مبعدا عن محاور الفعالية الأساسية.

حيث يتم كل ذلك من خلف ظهر السلطة المنهمكة بالملاحقة السهلة لأحزاب حفظت كل أسماء أعضائها خلال أربعين سنة، ومن خلف ظهر معارضة شبعت قمعا وقهرا ويأسا وانكفاء على الذات وملمة الجراح، فلم تجد حلولا لبقائها على قيد الحياة كمعارضة، سوى العودة إلى أحضان أخواتها الأصلبات المسلمات والجهويات التي كانت قد انشقت عنها بلحظة حماس أهوج مأسوف عليها!! وذلك منذ ربع قرن..! سوى أن رفاقهم الذين وقفوا مع السلطة وانضموا إلى جبهتها الوطنية التقدمية حينذاك، كانوا هم الأكثر واقعية وعقلانية ونجاحا حياتيا ومعاشيا..! لأنهم على الأقل لم يحبسوا مثل رفاقهم عشرات السنين مجانا، بل كسبوا امتيازات ومكاسب سلطوية ترمز لها ماركة (المارسيدس) التي حظي بها كل من يقبل في أن يكون عضوا في مجلس دمي الشعب (الأسدي) من هذه الأحزاب..!

ولهذا فإن رفاق الأمس يريدون أن يعوضوا عن خسارتهم مع رفاقهم الذين كسبوا كثيرا خلال فترة سجنهم، بأن يكافئوا بتسليمهم زمام قيادة الثورة للتعويض عما افتقدوه قبلها، بغض النظر عن موقفهم قبل الثورة الداعي لصواب حكمة رؤية رفاقهم القدامى وبعد بصيرتهم في أن النظام كان نظام صمود ومقاومة، ومعاداة للإمبريالية..ولقد كسبوا كثيرا من وراء هذا الوعي الوطني والقومي المبكر والحصيف، كما يظهر اليوم من خلال تحالف "جبهة المقاومة".

لقد بدا للأحزاب المعارضة بعد خروجها محطمة من السجن، أن أشقائها الذين لم يدخلوا السجن لعشرات السنين التي سجنوا هم فيها استفادوا من امتيازات الاعتدال والتعقل، فقد أثبتوا أنهم كانوا أكثر عقلانية ومنطقية في فهم سيرورة التاريخ السوري الذي اتفق الجميع على تسميته بـ"التاريخ الأسدي".



ولهذا فإن حركة التنوير ستلقي من جديد على أكتاف الشباب -جيل ما بعد الإيديولوجيا- مهمات إضافية، بسبب الهيمنة التقليدية للقوى التقليدية (إسلامية أم يسارية أم قومية)، على ساحة السياسة، وذلك بعد أن خذل الغرب الحركة الثورية المدنية (التنويرية الديمقراطية) بعد الشهور الستة الأولى السلمية البحتة للثورة والتي كان من شأنها أن تشكل ثورة مدنية تنويرية سلمية صافية، لو لم يترك العالم الشباب السوري يواجه كل الهمجية الأسدية بصدوره العارية وحده، حيث لم يكن هناك سبيل من اللجوء إلى السلاح للدفاع عن النفس والابن والعرض. وهذا ما يؤخر تحقيق الأهداف من أجل تحقيق التطلعات والطموحات التنويرية المدنية الديمقراطية للثورة، وذلك لما بعد حسم معركة السلاح على الأرض، خاصة في ظل قوى تقليدية بل ومتأخرة (يميناً ويساراً) تسيطر على الحراك السياسي رسمياً وإن لم يكن شعبياً، في ظل مرحلة ثورية لا تتيح التمثيل الانتخابي والشرعية الانتخابية، لكنها تضيف عبئاً جديداً على ثورة الشباب التنويرية الديمقراطية التي كان متاحاً لها أن تكون أرقى ثورة سلمية في زمن الثورة (المعلوماتية)، أي في زمن ما بعد عصر ثورات المرحلة (الصناعية) كالثورة الفرنسية.. فقد بدأت الثورة السورية أكثر سلمية من الثورة المصرية والتونسية، لكن الاستثنائي والمفاجيء للمتوقع في سيرورات حدث الثورة السورية -سوريا وعالمياً- أن القمع الوحشي البربري المرعب (أسدياً) لم يتجاوز الردود على الثورات السلمية المخملية المعلوماتية فحسب، بل وتجاوز الحروب الأهلية لثورات الزمن الصناعي (فرنسية - أمريكية - روسية...الخ).

حيث واجه الشعب السوري وطليعته الشبابية (التنويرية)، نوعاً استثنائياً - سيتحدث عنه التاريخ الإنساني- وهو نوع من السلطة العصبوية الطائفية الرعاعية الوحشية المنفلتة الغرائز- بل وما قبل الغرائز البدائية- متمثلاً بممارسات شاذة في التاريخ الإنساني، في زمن عجيب من التواطؤ والصمت العالمي، وكأن ثمة دهشة عالمية من هذا الخيال الابتكاري (الغرائبي المعزول استيطانياً عن أهله وشعبه) في القتل الذي يثير الذهول الغرائبي للخيال الاستشراقي... فلا يريد العالم أن ينتهي بسرعة كمسلسل مثير من مسلسلات (فانتازيا الرعب)، التي لا تتاح دائماً للمتفرج والمشاهد والمراقب عالمياً!!



## الربيع العربي بين الإرادة الشعبية ونظرية المؤامرة

عبد الغني سلامه \*

### مقدمة

يسود اعتقاد بين كثير من المراقبين أن ما يجري في المنطقة العربية من ثورات شعبية إنما يجري بتخطيط من دوائر غربية تقف على رأسها الولايات المتحدة، والهدف هو إعادة رسم الخارطة الجيوسياسية للمنطقة بما يخدم مصالحها. يستند هؤلاء في هذا التحليل إلى ما يسمى بنظرية "الفوضى الخلاقة" التي طرحتها بعض التيارات المؤثرة في الخارجية الأمريكية، وإلى تصريح لوزيرة الخارجية الأمريكية السابقة "كونداليزا رايس" لصحيفة "الواشنطن بوست" في ٩-٤-٢٠٠٥ توقعت الوزيرة فيه أن المنطقة العربية ستشهد إنتفاضات متصاعدة وتغييرات مؤثرة في سبيل التحول الديمقراطي، وأن هذا التحول، سيجرف أنظمة موالية وحليفة(١). كما يستند هؤلاء إلى ما قيل عن مؤامرة أعدتها وزارة الدفاع الأمريكية، صاغها المؤرخ الصهيوني "برنارد لويس" عام ١٩٨٣ وعبر عنها في مشروعه الشهير الخاص بتفكيك وتجزئة الدول العربية والإسلامية إلى كانتونات طائفية وعرقية(٢).

هذا التحليل ينطلق أساسا من نظرية المؤامرة. وهي نظرية ما زالت تهيمن على العقلية العربية منذ زمن طويل، وترتبط دوما بين الأحداث التي تقع وبين مؤامرة خارجية أعدت في الغرف المغلقة. وأصحاب هذه النظرية يؤمنون بوجود قوى قادرة على التخطيط والتنفيذ والتحكم بالنتائج بما يحقق مصالحها.

---

\* كاتب وباحث فلسطيني

وفي المقابل، ثمة مراقبون آخرون يرون أن ما حصل في المنطقة العربية من حراك شعبي عبارة عن ثورات جماهيرية خالصة، فرضت ذاتها بقوة الحق الذي خرجت من أجله على كافة الأطراف، بدءاً من النظام الحاكم الذي ثارت ضده، وانتهاء بالولايات المتحدة ذاتها. وهؤلاء يرفضون نظرية المؤامرة، من منطلق فهمهم لديناميكية حركة التاريخ، من ناحية، ومن ناحية ثانية فإنهم يؤكدون على فشل نظرية المؤامرة في تحليل الأبعاد السوسولوجية والموضوعية للمجتمعات العربية، وأن هذه النظرية أثبتت عجزها عن تفسير كثير من الأحداث والمنعطفات التاريخية الكبرى، لأنها من وجهة نظرهم نظرية غيبية سلبية، لا تركز على أسس موضوعية، بل تنطلق من الإحساس بالهوان والإقرار بالهزيمة وتؤسس مدرسة العجز الذاتي. وهم يرون أن هذه العقلية تصور العدو على أنه عملاق مخيف قادر على كل شيء ولا يملك إزاءه إلا الرضوخ والتسليم.

وإذا كنا نرفض التسليم بنظرية المؤامرة؛ فإن هذا لا يعني أن التاريخ يخلو من المؤامرات، وأن الآخرين لا يخططون ولا يرسمون إستراتيجيات بعيدة الأمد؛ فمن المؤكد أن مراكز صنع القرار، خصوصاً في الولايات المتحدة، لديها مخططات إستراتيجية وبدائل عديدة لحماية مصالحها وتأمين تفوقها لعقود قادمة، ومن ضمن هذه الإستراتيجيات "نظرية الفوضى الخلاقة chaos theory". وإذا سلمنا بأن اندلاع الربيع العربي كان إيذاناً بافتتاح عصر الجماهير من جديد وبقوة، وأنه نتاج تراكمات موضوعية، فلنا أن نتساءل: إذا كانت تصريحات رايس وغيرها من مخططات تم الكشف عنها قد جاءت قبل سنوات عديدة من اندلاع الربيع العربي، فهل كانت مجرد نبوءة، أم تخمين، أم هي قراءة عميقة للأحداث، واستشراف للمستقبل، أم هي إفشاء لأحد بنود المخططات الأمريكية؟ وإضافة لما سبق، هناك العديد من الأمور الغريبة والأسئلة المرعبة التي ظهرت في سياق الثورات العربية، وهي أسئلة لم تتم الإجابة عليها بعد، الأمر الذي جعل الكثيرين يشككون في دوافع الثورات العربية، ويربطونها بمؤامرات خارجية.

### نظرية الفوضى الخلاقة

طالما أن المهمة الأولى بالضلوع في المؤامرة هي الولايات المتحدة، كونها الدولة الإمبريالية الأولى في العالم؛ فإنه من الضروري التذكير بأن السياسة الخارجية (والداخلية أيضاً) لأي إدارة أمريكية (ديمقراطية كانت أم جمهورية)، تبقى مسخرة لهدف مركزي واحد، هو رعاية المصالح الطبقية للزمرة الحاكمة، أي مصالح الأوليغارشية الأمريكية الموزعة على أهم القطاعات الاقتصادية: الصناعات العسكرية، الطاقة، عالم المال، الإعلام، الصناعات العملاقة.. الخ. وعادة ما تخضع هذه السياسة لايدولوجية متناغمة مع تلك المصالح.

قبل أن تتوصل الولايات المتحدة أخيراً لنظرية "الفوضى الخلاقة"، كانت إدارتها تتبنى في إطار سياساتها الخارجية خلال حقبة السبعينات والثمانينات المدرسة الواقعية الكلاسيكية، والتي مثلها وزير الخارجية الأسبق هنري كسينجر، آنذاك، لم تكن الإدارة الأمريكية تهتم بما يحدث في الدول الأخرى، ولم يكن يعينها أن تكون الأنظمة الحليفة استبدادية أو فاسدة، طالما أنها لا تهدد مصالحها ولا تعادي سياساتها الخارجية.

وبعد انتصار الحلف الدولي بقيادة الولايات المتحدة على العراق في عاصفة الصحراء (١٩٩١)، والتي جاءت بعد انتهاء الحرب الباردة، تبنت الإدارة الأمريكية سياسة جديدة تقوم على إطفاء بؤر التوتر في مختلف مناطق العالم، بما فيها ناميبيا وجنوب إفريقيا واليمن ولبنان وحتى العراق، وشرعت بمشروع السلام بين العرب وإسرائيل، من خلال مؤتمر مدريد (١٩٩٢)، وكان هدفها تحقيق الاستقرار وفرض الهيمنة الأمريكية على العالم، وخصوصاً العالم الثالث، لما كان يعنيه بالنسبة لها من سوق عملاقة ستحل معضلة فائض الإنتاج والكساد الذي باتت تعاني منه الصناعات الأمريكية العملاقة، والبدء بتطبيقات منظومة العولمة والتجارة الدولية.

وفي عهد الرئيس بل كلينتون، حاول الديمقراطيون تركيز السياسة الخارجية الأمريكية نحو مشاريع العولمة الليبرالية، الجديدة (مناطق تجارة حرة وما شابهها)، هذه التي كانت تفضي إلى نوع من الإوليغارشية متعددة الجنسيات والعبارة للحدود. لكن هذه السياسة تحولت في إدارة بوش الابن، إلى نوع من العولمة العسكرية - الأمنية (٣).

وبعد قدوم الرئيس جورج بوش الابن وتحالفه اليميني في البيت الأبيض، تغيرت السياسة الأمريكية، خصوصاً بعد أحداث أيلول/سبتمبر ٢٠٠١؛ إذ تبنت أمريكا سياسة الحرب على الإرهاب، والتي إن مثلت عماد الإستراتيجية الأمريكية، فقد كانت في حقيقة الأمر مجرد غطاء على التوجهات الأمريكية الجديدة القائمة على الحروب واحتلال البلدان والتدخل المباشر في شؤون الدول لفرض سيطرتها عليها، والتمكن من حماية مصالحها، ونهب ثروات الأمم بشكل مباشر.

وفي هذا الموضوع، كتب د. أحمد عزم تحت عنوان الواقعية الجديدة، في صحيفة الاتحاد الإماراتية: "تعتمد أمريكا حالياً، في حربها العدوانية على العالم، سياسة التدخل في شكل النظام السياسي والقيم الثقافية والاجتماعية في دول أخرى، وتسعى لفرض القيم الأميركية عالمياً، أي فرض رؤيتها الخاصة للديمقراطية والإصلاح، على اعتبار أنها تنتج أنظمة ومجتمعات ترفض الإرهاب، ولأن الأنظمة الفاسدة في الرؤية الأميركية لها تشكل بيئة خصبة لقوى التطرف التي تتبنى مناهضة الأميركيين". وقد أضاف د. العزم أنه "وفقاً لمصطلحات العلاقات الدولية فإن المدرسة الكلاسيكية السابقة تمثل

المدرسة الواقعية، بينما يمثل المحافظون الجدد المدرسة المثالية، والفيصل بين المدرستين هو مسألة التدخل في شؤون الدول الأخرى؛ فالمثاليون يؤيدون التدخل في الشؤون الداخلية للدول الأخرى أكثر مما يؤيده الواقعيون. وإلى هذا، أضاف أن "أحد المثاليين السابقين هو فرانسيس فوكوياما، الذي كان من منظري المحافظين الجدد إبان حرب العراق، اكتشف فيما بعد أنّ فكرة نشر الديمقراطية قبل بناء دول قوية أمر خاطئ، وأنّ المحافظين الجدد، عندما أسقطوا النظام في العراق وأفغانستان، لم يكن لديهم تصور أو دراية بعمليات بناء الدول، وافترضوا أن الأمور ستستقيم بمجرد سقوط الأنظمة القائمة"(٤).

وقد عبّر فوكوياما عن نظريته في مقالة له حملت نفس العنوان "نهاية التاريخ" كتبها في العام ١٩٨٩، وتحدث فيها عن زحف "الرأسمالية الليبرالية" كنظام حاكم على بقية أجزاء العالم، وانتصاراتها المتتالية على الأيديولوجيات الأخرى، كالملكية الوراثية، والفاشية، وأخيراً الشيوعية. واعتبر فوكوياما أن هذا النظام "الرأسمالي الليبرالي" يشكّل المرحلة النهائية في التطور العقائدي للإنسانية، وبالتالي فهو نظام الحكم الأمثل. ومعنى آخر، فإن الوصول إلى هذا النظام حسب فوكوياما هو "نهاية التاريخ". وأوضح في الوقت ذاته أن المقصود من نهاية التاريخ ليس توقف استمرارية تواتر الأحداث (الصغيرة والكبيرة)، بل توقف التاريخ، بما هو تجربة بشرية تتطور بشكل متصل ومتماسك. بمعنى أنه لن يكون هناك أي تقدم أو تطور بعد اليوم فيما يتعلق بالمبادئ والعقائد والمؤسسات(٥).

صموئيل هنتنغتون، زميل فوكوياما رأى أن هناك تواريخ عديدة للبشرية، ولكلٍ منها محركه الخاص به؛ فهناك التاريخ القديم الذي تحرك بقوة رغبات وطموح الملوك والأمراء، وتاريخ آخر تحرك بقوة صراع الأمم، ثم تاريخ ثالث كان محركه صراع الأيديولوجيات، وقد إنتهى مع نهاية الحرب الباردة؛ بينما التاريخ البشري الحالي يتحرك بقوة صدام الحضارات، كالصدام القائم اليوم بين الإسلام والحضارة الغربية المستندة إلى الديمقراطية الليبرالية. وهذا الطرح يتعارض مع نظرية ماركس بأن محرك التاريخ الأساسي هو صراع الطبقات. أما فلاسفة ما بعد الحداثة فيقول معظمهم إن المعرفة هي محرك التاريخ(٦).

وبغض النظر عن ماهية محرك التاريخ؛ فإنه، وضمن هذا الإطار ومن منطلق هذا الفهم، تمت صياغة ما عُرف بنظرية الفوضى الخلاقة؛ والتي يرى بعض الباحثين أنها ابتكرت أول مرة على ضوء ما نجم عن حالة الفوضى والصراع والافتتال في بدايات تأسيس المجتمع الأمريكي، والتي كانت بدافع التنافس وجمع الثروة(٧).

ويبدو مفهوم "الفوضى الخلاقة" هو أقرب إلى مفهوم "الإدارة بالأزمات"، ولعل أبسط تعريف له

أنه حالة سياسية أو إنسانية يتوقع أن تكون مريحة بعد مرحلة فوضى متعمدة الأحداث، وهو مفهوم له جذور لاهوتية ومستوحى من نصوص توراتية.

ويُعدُّ مايكل ليدين، العضو البارز في معهد "أمريكا انتربرايز"، أول من صاغ مفهوم "الفوضى الخلاقة" أو "الفوضى البناءة" في معناها السياسي الحالي، وهو ما عبّر عنه ليدين في مشروع حمل اسم "التغيير الكامل في الشرق الأوسط" أعد عام ٢٠٠٣. وارتكز هذا المشروع على منظومة من الإصلاحات السياسية والاقتصادية والاجتماعية الشاملة لكل دول المنطقة وفقاً لإستراتيجية جديدة تقوم على أساس الهدم ثم إعادة البناء(٨). كما تحدثت وزيرة الخارجية الأمريكية السابقة كونداليزا رايس عن شعار الفوضى الخلاقة بعد غزو الولايات المتحدة للعراق عام ٢٠٠٣، وذلك في إطار مشروع الشرق الأوسط الجديد، والذي يتم فيه تقسيم الدول العربية إلى دويلات صغيرة، وتكون إسرائيل القوة العظمى في الإقليم(٩).

وتعتمد نظرية الفوضى الخلاقة أساساً على مبدأ "أن تغيرات ضئيلة جداً قد تسبب انهيار التوازنات المستقرة جداً"، أي أن كل شيء في هذا الكون يؤثر في كل شيء ويتأثر به. وتقوم هذه النظرية باختصار على أيديولوجيا أمريكية نابعة من مدرستين: الأولى صاغها فرانسيس فوكوياما بعنوان "نهاية التاريخ" - كما سبق شرحها - ويقسم فيها العالم ما بين عالم تاريخي غارق في الاضطرابات والحروب، وهي الدول التي لم تلتحق بالنموذج الديمقراطي الأمريكي، و بين عالم آخر هو ما بعد التاريخي، أي الدول التي تتبنى الديمقراطية الليبرالية وفق الطريقة الأمريكية. ويرى فوكوياما أن عوامل القومية والدين والبنية الاجتماعية أهم معوقات الديمقراطية.

المدرسة الثانية صاغها "هنتنغتون"، ويشرحها البروفيسور إدوارد سعيد قائلا: "تقوم فكرة هنتنغتون على مبدأ صراع الحضارات، معتبراً أن المصدر الأعمق للنزاعات والانقسامات في العالم الجديد لن يكون في الدرجة الأولى أيديولوجيا أو اقتصاديا، بل سيكون مصدرها حضارياً وثقافياً. أي أن الدولة القومية ستبقى اللاعب الأقوى، لكن الصدمات الرئيسية العالمية ستبرز بين دول ومجموعات تنتمي إلى حضارات مختلفة، ذاهباً إلى أن الخطوط الفاصلة بين الحضارات ستكون هي خطوط المعارك في المستقبل"(١٠).

ورغم تناقض المدرستين، إلا أنهما تتفقان على ضرورة بناء نظام عالمي جديد تقوده الولايات المتحدة، إضافة إلى معاداة الحضارة الإسلامية باعتبارها نقيضاً ثقافياً وقيماً للحضارة الغربية.

وتعتمد نظرية "الفوضى الخلاقة" في الأساس على ما أسماه "هنتنغتون" بـ"فجوة الاستقرار" وهي الفجوة التي يشعر بها المواطن بين ما هو كائن وما ينبغي أن يكون (أي الفجوة بين الحلم والواقع)؛

فتنعكس بضيقتها أو اتساعها على الاستقرار بشكل أو بآخر؛ فأتساعها يولد إحباطاً ونقمة في أوساط المجتمع، مما يعمل على زعزعة الاستقرار السياسي، لاسيما إذا ما انعدمت الحرية الاجتماعية والاقتصادية، وافتقدت مؤسسات النظام القابلية والقدرة على التكيف الإيجابي، لأنه سيكون من الصعب عليها الاستجابة لأي مطالب شعبية، إلا بالمزيد من الفوضى التي ستقود في نهاية الأمر، إلى استبدال قواعد اللعبة واللاعبين. وفي المقابل فإن ردم هذه الفجوة سيخلق مجتمعا مستقرا آمنا(١١).

وهناك نظرية "دول القلب ودول الثقب"، التي طورها أحد أهم المحاضرين في وزارة الدفاع الأمريكية، وهو البروفيسور "توماس بارنيت"، فقد قسّم العالم إلى من هم في القلب أو المركز "أمريكا وحلفائها"، وصنّف دول العالم الأخرى تحت مسمى دول "الفجوة" أو "الثقب"، ودول الثقب هذه هي الدول المصابة بالحكم الاستبدادي، والأمراض والفقر، والحروب الأهلية، والنزاعات المزمنة، وهذه الدول تصبح بمثابة مزارع لتفريخ الجيل القادم من الإرهابيين؛ وبالتالي فإن على دول القلب ردع أسوأ صادرات دول الثقب، والعمل على انكماش الثقب من داخل الثقب ذاته. ويرى "بارنيت" أن تلك الفوضى البناءة ستصل إلى الدرجة التي يصبح فيها من الضروري تدخل قوة خارجية للسيطرة على الوضع وإعادة بنائه من الداخل، على نحو يعجل من انكماش الثقب، وليس مجرد احتوائها من الخارج، منتهياً بتحويل الولايات المتحدة القيام بالتدخل، بقوله: "نحن الدولة الوحيدة التي يمكنها ذلك"(١٢).

وتقوم هذه السياسة بناء على قناعة صناع السياسة الخارجية الأمريكية بأن الأوضاع الداخلية في الدول الأخرى ليس شأنًا خاصا بهذه الدول بحيث لا يعني شيئاً بالنسبة لأمريكا؛ ذلك لأنها مرتبطة بالأمن القومي الأمريكي، القائم أساساً على تأمين أقدام أمريكا في حقول النفط العربية وحفظ مصالحها هناك. وبذلك فإن الأوضاع الداخلية لتلك البلدان تحتاج إلى تحول شامل لن يحدث إلا عبر التدمير الخلاق الذي سينتهي بإزالة الأنقاض ورفع الأشلاء، ثم تصميم نظام سياسي جديد ومختلف، لا يراوغ ولا يشترط ولا يهدد مصالح أمريكا الاقتصادية.

ولا تهدف نظرية "الفوضى الخلاقة" إلى إزالة الدولة المستهدفة إزالة تامة، بل إن هدفها ثنائي هو الهدم والبناء؛ حيث يركز مشروع النظرية على منظومة من الإصلاحات السياسية والاقتصادية والاجتماعية الشاملة لكل دول المنطقة، وفقاً لإستراتيجية جديدة تقوم على أساس الهدم ثم إعادة البناء. بمعنى أن المطلوب هنا هو إعادة تأهيل الدولة على نحو يخدم مصالح أمريكية إستراتيجية، وليس الهدف هو إزالة الدولة عن بكرة أبيها. وهنا، غاية أمريكا هي بسط سيطرتها بنفسها، لا عبر وسيط تقليدي .



وأنصار هذه النظرية يعتقدون أن خلق حالة من الفوضى وعدم الاستقرار سوف يؤدي حتماً إلى بناء نظام سياسي جديد، يوفر الأمن والازدهار الاقتصادي. وهو ما يشبه العلاج بالصدمة الكهربائية. غير أن ثمة أهدافاً متوارية تهدف الولايات المتحدة إلى تحقيقها بتلك الفوضى. ويتم تطبيق هذه النظرية على أي دولة تريدها وفق مخطط يتم أولاً بإطلاق الصراع الأيديولوجي، وصراع العصبية في داخلها، ثم التعبئة والتحريض الإعلامي ضدها، وأخيراً ضرب استقرارها الأمني، وخلخلة وضعها الاقتصادي.

ولكن مجرد الكشف عن هذه المخططات لا يعني أنها ستنفذ حرفياً وإذا وُضعت المخططات في طور التنفيذ فهذا لا يعني أنها ستنجح؛ فوجود مؤامرة ما لا يعني أنها قدّر مكتوب على الأمة وليس أمام هذه الأمة إلا الانتظار والقبول. فقد تُظهر الأيام أن ما تقوم به أمريكا من خلق حالة من الفوضى في الدول العربية، ما هو إلا محاولات لعلاج فشلها في العراق وأفغانستان، بل وللتغطية على فشلها في الحفاظ على حلفائها التقليديين، وفشلها في إدارة شؤون العالم العربي، وأنها لم تكن تملك ترف الخيارات وبالتالي، قد تجيء نتائج هذه الفوضى على عكس ما ترغب به وتخطط له أمريكا، وقد تكون إيجابيه تخدم المصلحة العربية العليا.

### حراك شعبي أم مؤامرة خارجية ؟

بالعودة إلى الثورات الشعبية العربية ومحاولة ربطها بمؤامرات خارجية، تُطرح أسئلة من نوع: ما هي طبيعة علاقة الجيوش العربية (التونسية والمصرية وغيرها) بوزارة الدفاع الأمريكية؟ وما هو حجم الدعم الأمريكي الذي تتلقاه تلك الجيوش من تسليح وتدريب وتأهيل؟ وماذا كان يفعل قادة وضباط هذه الجيوش في أمريكا عشية الثورة؟ وما هي الصلة بين ما سمي بـ "شباب الفيسبوك" والدوائر الغربية؟ وما مغزى ما قيل عن وجبات الكنتاكي وواثل غنيم في ميدان التحرير؟ والدور الغريب وغير المتوقع من الجيوش العربية التي لم تمارس دورها الوظيفي المعهود في حماية الأنظمة، التي هي أساساً من ركائز المشروع الأمريكي في المنطقة؟ ولماذا وكيف تحولت هذه الجيوش إلى حامٍ للثورة؟ وهي أسئلة محيرة تحتاج إجابات، ليس لأنها تفتح شهية أصحاب نظرية المؤامرة ونظرية الفوضى الخلاقة، وتطلق العنان لخيالاتهم ليشبعونا تحليلًا، بل لأنها أسئلة مشروعة، والإجابة عليها تمكننا من فهم الأحداث على نحو صحيح.

يرى أنصار نظرية الثورة الشعبية أن الحديث عن الثورات العربية بوصفها صنيعه الفيسبوك والمخبرات الأمريكية ومنظمات الـ NGO's، وأنها تأتي في سياق مخططات أمريكية تهدف إلى

إعادة رسم الخارطة الجيوسياسية على نحو جديد يخدم المصلحة الأمريكية أساسا، هو تقليل من شأن هذه الثورات، وهو تعدٍ على تضحيتها، واستخفافاً بإرادة الشعوب، وهو قبل كل هذا فهم مغلوطن لمنطق التاريخ، وتفسير مشوه ومنقوص للحقبة التاريخية بأكملها. ويؤكد هؤلاء أن هذه الثورات الشعبية وإن أتت في زمن العولمة وكانت إحدى تعبيراتها الواضحة، فإنها جاءت بفعل إرادة شعبية خالصة، وكانت أهدافها تنحصر في إسقاط الأنظمة التي ضربها العفن، ونخرها سوس الفساد، وبانت فضائحتها على نحو مستفز، لأن هذه الأنظمة جلبت لشعوبها الخراب والفقر والبطالة، وحرمتها من أبسط حقوقها، وجعلت البلدان العربية في قاع السلم الحضاري بين شعوب الأرض.

ومن ناحية ثانية، فإن نضوج عوامل الثورة، الذاتية من هذه العوامل والموضوعية، جاء بعد تراكم طويل، وأن لهذه الثورات إرهاباتها ومقدماتها التاريخية، وأسبابها الموضوعية، وأنها لم تكن قطعا فجائيا مع مراحل تاريخية سابقة، بل جاءت تتويجا لمسار نضالي وشعبي له عناوينه الواضحة وحيثياته المعروفة. ولا يعني وجود تقاطعات معينة بين أهداف الشعوب العربية ومخططات الدوائر الغربية أنها تطبق لهذه المخططات، والتاريخ مليء بالأمثلة التي كانت تلتقي فيها مصالح وأهداف جهات متناقضة ومعادية بعضها لبعض، دون أن يعني ذلك أنها مؤامرة بالمعنى الحرفي للكلمة.

الذين يفهمون ثورات الربيع العربي، انطلاقا من نظرية المؤامرة، واستنادا إلى نظريات من نوع الفوضى الخلاقة، أو صراع الحضارات، إما هم يمعنون في تصور صورة متخيلة في أذهانهم، هي في الحقيقة مجرد وهم، أو صورة مشوشة، أو أنهم أرادوا إسقاط هذه النظريات وغيرها على الواقع، بعد أن ظهرت نتائج الربيع العربي على نحو خيب آمالهم، أو جاء معاكسا لما كانوا يريدونه.

المفكر الفلسطيني إدوارد سعيد كتب عن صراع الحضارات قبل الربيع العربي بسنوات؛ واعتبر أن هنتنغتون وغيره عندما صاغوا نظرياتهم عن صراع الحضارات لم يجدوا الوقت الكافي لدراسة الحركات الداخلية في كل حضارة، وما فيها من التعددية. وقد اعتبر سعيد أن النظر لأي حضارة أو دين والتحدث عنهما بصورة كلية عمومية هما نوع من الديماغوجيا والتضليل، أو الجهل على أقل تقدير. وعند سعيد، يصعب الحديث عن الإسلام أو الغرب باستعمال توصيفات عمومية، حيث يوجد واقع تاريخي متشابك يستعصي على التصنيف أحيانا، أو التثبيت في قوالب جاهزة؛ فالعالم أجمع، بكل دياناته وحضاراته، يسبح في محيط واحد هو التاريخ الإنساني، ومن العبث محاولة حرته أو تقسيمه بالحواجر. وقد وصف إدوارد سعيد "هنتنغتون" بأنه: "أيديولوجي يريد تحويل الحضارات والهويات إلى غير ما هي عليه في حقيقتها، حين اعتبرها كيانات منغلقة بعضها

عن بعض، وأنها خالية في داخلها وفيما بينها من التيارات والتيارات المعاكسة التي شكلت تاريخ الإنسانية، ومنعت هذا التاريخ عبر القرون المتوالية من الاقتصار على الحروب الدينية والإمبريالية، بل أن يكون أيضاً مجالاً للتعاون والإخصاب المتبادل والمشاركة، فالحرب ليست وحدها هي الحقيقة" (١٣).

ولفهم الموقف الأمريكي من الثورات العربية، لا بد من التأكيد على أن دوافع أمريكا في انحيازها لخيار الشعوب، ورغبتها في تبني الديمقراطية، وتخليها عن حلفائها التقليديين، هي عوامل تكمن في انكشاف عمالة الحكام وفسادهم وفضائحهم، ورغبة الشعوب في التغيير، في وقت تنامت فيه قوة الحركات الشعبية التي تطالب بالإطاحة بالحكومات الفاسدة. وبالتالي، فإن أمريكا ستسعى لدخول المنطقة من بوابة أخرى هي بوابة الشعوب والديمقراطية. خصوصاً أنها باتت تخشى من تنامي وتعمق حالة الكراهية والسخط لدى الجمهور الإسلامي والعربي ضدها. وأن الأنظمة العربية بعد سقوط العراق لم تعد تهدد أمن أمريكا، وأن التهديدات الحقيقية تكمن وتتسع من داخل الدول ذاتها، بفعل العلاقة غير السوية بين النظام وبين الشعب.

وحسب النظرة الأمريكية، فإن البلدان الإسلامية تُعرف بأنها أنظمة سياسية مغلقة، ذات كثافة سكانية عالية، تنعدم فيها الحريات، وتتفشى فيها البطالة والامية. وبالتالي، فإن هذه الأنظمة ستكون تربة خصبة لإنبات المتطرفين؛ إذاً على أمريكا - وحفاظاً على مصالحها - تقديم المساعدة المادية اللازمة، وسماع شكوى الشعوب، وبناء الديمقراطية من الداخل، للحيلولة دون تكاثر الإرهابيين، كما أن أمريكا ستعمل من خلال مدخل الديمقراطية على تحقيق مكاسب اقتصادية على المدى الطويل. وتعتقد أمريكا أيضاً أن وجود أنظمة ديمقراطية في البلدان العربية سيخفض من حدة الصراع العربي الإسرائيلي، وربما سيمنع نشوب حروب ضد إسرائيل في المستقبل، لأنها تعتقد أن الديمقراطيات لا تقاتل بعضها بعضاً، وأن الشعوب الحرة إذا ما أُتيح لها مجال الاختيار ستختار السلام بدلا من الحروب.

وما يبدو جلياً هو أن الولايات المتحدة أصبحت لا تخشى ظهور الحركات الإسلامية بل تحاول استغلالها. ولدى أمريكا استعداد لقبول فكرة وصول حزب إسلامي معتدل للحكم عبر الانتخابات. وفي هذا الصدد يرى البعض أن أمريكا تريد أن تجعل من الحركات الإسلامية المعتدلة حسان طروادة. وهؤلاء يعتقدون أن الحركات الإسلامية أقوى من غيرها في التعاطي مع الشعوب الإسلامية، بسبب قوة ونفوذ العامل الديني الذي تجيد اللعب به، ولأنها أحزاب تسعى للسلطة. واستناداً لما سبق، يمكننا القول إن نظريات الفوضى الخلاقة وصدام الحضارات لا تنطبق تماماً على

الربيع العربي، مع التأكيد على أن أمريكا والغرب عموماً يتفاعلان بجدية واهتمام مع العالم العربي في ربيع، ويسعيان إلى أن يظل العرب ضمن المعادلات السياسية ذاتها التي سادت خلال القرن الماضي. وهذا يتطلب تدخلات عسكرية وأمنية أو سياسية واقتصادية تمنع الأنظمة العربية من الخروج عن دوائر السيطرة.

والقول بأنها ثورات شعبية، خرجت من رحم المعاناة، وجرت أحداثها في الشوارع والميادين العربية على أيدي شبان مخلصين، لا يعني الاطمئنان على مصيرها، سيما وأنها بلا قيادة واضحة، ومعظم قياداتها الشبابية بلا خبرة كافية، وحيث أن نظرية الفوضى الخلاقة تعتمد في أسلوبها على خلق تيارات فكرية متعددة ضمن إطار الديمقراطية، ومنها فكرة الإسلام المعتدل، الذي يوافق أفكار الغرب ولا يتصادم معها.

### خلاصة

عندما انطلقت الثورات الشعبية العربية، هذه التي سميت بالربيع العربي، كان التيار الكاسح من الجماهير وحتى من النخب مفتونا بها. وقد أخذ هذا التيار يتغزل بها ويعوّل عليها. لكن، بعد عامين، تراجع هذا التأييد إلى درجة ملحوظة، وبدأت الأصوات المشككة ترتفع أكثر. وصار الحديث عن تبعية هذه الثورات، أو إنها صنيعة مؤامرة خارجية، يقال في العلن.

هذا التراجع جاء نتيجة خيبة الآمال من تحسن الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية والأمنية، ونتيجة الصدمة من صعود الإسلام السياسي وتسلمه السلطة في أكثر من بلد، ونتيجة ممارسات عديدة مرفوضة، سواء من قبل الثوار، كالعنف غير المبرر وأعمال الانتقام، أو من قبل السلطات الحاكمة الجديدة، التي فجعت الجماهير بأدائها الهزيل والمثير للجدل. وما عزز من هذا التوجه، هو الموقف الأمريكي غير المتوقع (الاصطفاف إلى جانب خيار الشعوب)، أو المتوقع (التحالف مع قوى الإسلام السياسي، وتسهيل مهمة وصولهم للحكم)، ولكن، حتى لو جاءت النتائج مخالفة للمقدمات، فإن هذا لا يعني أن ما جرى كان عبارة عن مؤامرة أعدت بليل. فالتاريخ يخبرنا بأن كثيراً من الثورات الشعبية تمت سرقة على أيدي قوى لم تكن مشاركة فيها، أو أنه تم حرف الثورات عن مسارها؛ فليس بالضرورة أن تنتصر كل ثورة لمجرد أن أهدافها عادلة وثوارها مخلصون.

وإذا انحازت أمريكا لتيار معين من الإسلام السياسي ودعمت توليه السلطة، فهذا لا يعني أن جميع تيارات الإسلام السياسي عملاء للغرب، فهذا الاستنتاج، عدا عن سذاجته، هو تعميم دوغمائي ووقوع في فخ نظرية المؤامرة. وطالما أن المخططات الأمريكية بعيدة المدى تستهدف تجزئة دول

المنطقة إلى دول دينية وكانونات طائفية؛ فإن تأجيج الصراعات الدينية والمذهبية والطائفية يصبح شرطاً ضرورياً لتنفيذ المخطط وضمان نجاحه. وهذا يتطلب وجود قوى وأحزاب وتيارات دينية، تتولى السلطة أو المعارضة.

بمعنى آخر، الولايات المتحدة ليس لديها مشكلة في وصول أحزاب إسلامية للسلطة، فهي منذ اندلاع الربيع العربي وضعت خطط وبدائل للتعامل مع كافة الاحتمالات، سواء وصل الإسلاميون للحكم، أم العلمانيون، المهم أنها قادرة على فرض شروطها على أي جهة تتولى السلطة، بل أنها لم تبذل جهداً يُذكر في سبيل ذلك.

على أي حال، كل هذه النظريات تبقى موضع جدل ولا يمكن إثبات صحتها في الوقت الراهن. وربما تكون أمريكا قد تسرعت في تبني هذا الخيار، أو أنها كانت مجبرة على التعاطي معه، خصوصاً أن إعلامها يصدق بها ليل نهار، وأنها بحجة بناء الديمقراطية شنت حروبها على أفغانستان والعراق وغيرها، وبالتالي سيكون من الصعب عليها تبرير أي موقف معادٍ للديمقراطية.

ولابد من التأكيد على أن أمريكا وغيرها لا تمتلك مفاتيح المستقبل، وليس بمقدورها التحكم بنتائج كل شيء، وليس كل ما يجري على الأرض يجري بعلمها وموافقته. ومع ذلك، لا بد من الاعتراف بأن لديها مراكز الأبحاث والدراسات التي تضم المفكرين والمحللين الذين يراقبون الأحداث ويقرأون الواقع ويضعون الخطط والبدائل. ومن البديهي أنه عندما تجري أحداث معينة بمستوى ما يجري في المنطقة العربية، فإن أمريكا سرعان ما ستحاول ركوب الموجة والاستفادة من هذه التغييرات، أو تحويلها بما يخدم مصالحها، ولكن ليس هناك أي ضمانة لنجاحها في ذلك. ومثال ذلك الأبرز هو التحولات الديمقراطية في البلدان العربية.

في اعتقادي أن الديمقراطية الحقيقية التي تنشدها الشعوب العربية ستعمل على تصويب المسار التاريخي للأمة العربية، بعد أن كان يتجه بعكس مسار الحضارة الإنسانية، وستعمل على إطلاق المبادرات والطاقات التي ظلت مدفونة تحت رماد القمع والاستبداد، وستخلق البيئة والمناخ الصحي الذي في ظله ستعبر الشعوب عن إرادتها الحرة وعن قناعاتها التي تؤمن بها، وستصنع في فضائه مستقبل هذه الأمة بسواعد أبنائها وبشغفها بالحرية، وتوقها للخلاص من كل أشكال الهيمنة والاستبداد.

## الهوامش

- ١- د. سامح فاروق، مصطلح الفوضى الخلاقة ذلك الشرق الأوسط الجديد، صحيفة الوفد، <http://www.alwafd.org/>
- ٢- جميل عفيفي، الثورات العربية، ومشروع الشرق الأوسط الجديد، جريدة الأهرام، ١٤-٢-٢٠١٢.
- ٣- د. نور الدين عواد، مقارنة أولية للسياسة الخارجية الأمريكية في عهد أوباما، ورقة بحثية مقدمة للمؤتمر الدولي الثاني عشر "علوم سياسية جديدة"، الذي عقد في الفترة ١٨ - ٢٠ نوفمبر ٢٠٠٩. هافانا - كوبا. [http://www.grenc.com/show\\_article\\_main.cfm?id=23070](http://www.grenc.com/show_article_main.cfm?id=23070)
- ٤- د. أحمد جميل عزم، الواقعة الجديدة، صحيفة الاتحاد الإماراتية، ١٥-٤-٢٠١١.
- ٥- فرانسيس فوكوياما، نهاية التاريخ وخاتمة البشر، ترجمة: حسين أحمد أمين، مركز الأهرام للترجمة والنشر الطبعة ١، ١٩٩٣. من مقدمة الناشر.
- ٦- فؤاد النمري، نهاية التاريخ وفوكوياما، الحوار المتمدن، العدد: ١٩٦٢ - ٢٠٠٧/٠٦/٣٠ - <http://www.ahewar.org/debat/show.art.asp?aid=101275>
- ٧- عبد الأمير محسن ال مغير، نظرية الفوضى الخلاقة ومشروع الشرق الأوسط الجديد، شبكة الإعلام العراقي. <http://www.imn.iq/articles/view.268>
- ٨- هيفاء احمد يحيى، الفوضى الخلاقة وزرعها المنتامي في الدول العربية، الحوار المتمدن، العدد: ٣٤٨٦ - ٢٠١١/٠٩/١٤ - <http://www.ahewar.org/debat/show.art.asp?aid=275569>
- ٩- جميل عفيفي، الثورات العربية، مصدر سبق ذكره.
- ١٠- إدوارد سعيد، إسرائيل، العراق، الولايات المتحدة، دار الآداب، بيروت، ط١، ٢٠٠٧. ص ١٠٦.
- ١١- هيفاء احمد يحيى، الفوضى الخلاقة وزرعها المنتامي في الدول العربية، مصدر سبق ذكره.
- ١٢- هيفاء احمد يحيى، الفوضى الخلاقة وزرعها المنتامي في الدول العربية، نفس المصدر السابق.
- ١٣- إدوارد سعيد، إسرائيل، العراق، الولايات المتحدة، دار الآداب، بيروت، ط١، ٢٠٠٧. ص ١٠٧.

## المصالحة الوطنية في إطار العدالة الانتقالية

عبد الفتاح القلقيلي \*

في دراستنا في العدد السابق بعنوان "العدالة عبر التاريخ" أشرنا إلى "العدالة الانتقالية"، وقلنا "أن مصطلح العدالة الانتقالية حظي حديثا على الكثير من الاهتمام من كل من الأكاديميين وصناع القرار السياسي، كما حظي بالاهتمام في المجالات السياسية والقانونية، وخصوصا في المجتمعات الانتقالية (سواء من نظام تسلطي، او من الخلافات المدنية) إلى الديمقراطية"، وقلنا انها توفر فرصا لهذه المجتمعات لمعالجة انتهاكات حقوق الإنسان الماضية، والعمليات الوحشية الجماعية، والأشكال الأخرى من الصدمات العميقة من أجل تسهيل انتقال ممد إلى مستقبل أكثر ديمقراطية وسلاما. وغالبا ما يُطلق على هذه الاجراءات المصالحات الوطنية".

واليوم، وبما ان موضوعنا الآن هو المصالحة الوطنية، سنتوسع بالحديث عن "العدالة الانتقالية".

أوردت مذكرة توجيهية للأمم العام للأمم المتحدة في آذار/مارس ٢٠١٠ تعريفا لمفهوم العدالة الانتقالية معتبرة انها "النطاق الكامل للعمليات والآليات المرتبطة بمحاولة المجتمع التوصل إلى تفاهم بشأن الإرث الكبير من انتهاكات الماضي التي تمت على نطاق كبير من أجل ضمان المحاسبة وخدمة العدالة وتحقيق المصالحة".

ويرجع المختصون ظهور مفهوم العدالة الانتقالية إلى أعقاب الحرب العالمية الثانية، ولكنها صارت أكثر وضوحا في سبعينات القرن العشرين عبر ما يقارب من ٢٥ تجربة حول العالم؛ بدأت منذ العام ١٩٧٤ في أوغندا، ثم تلتها عدة تجارب بمسميات مختلفة: في بوليفيا ١٩٨٢، الأرجنتين ١٩٨٣، تشيلي ١٩٩٠، جنوب إفريقيا ١٩٩٥ تيمور الشرقية ٢٠٠٢ وصربيا ٢٠٠٤.

هذا "ويقتصر نطاق العدالة الانتقالية على الانتهاكات الجسيمة لحقوق الإنسان وجرائم معينة كالإبادة الجماعية، والجرائم ضد الإنسانية، والخروقات الجسيمة لقوانين وأعراف الحرب (كما يرى سوتاس إريك في

---

\* كاتب وباحث فلسطيني

المجلة الدولية للصليب الاحمر عدد ٨٧٠٤) على أساس كونها رؤية منهجية تهدف معالجة ماضي انتهاكات جسيمة، ومساعدة الشعوب أو الجماعات على التخلص بشكل مباشر وسلمي وغير عنيف من ثقل الماضي نحو مجتمع ديمقراطي، دون أن يكون ذلك فرضا على المجتمع، وبالتحديد على الضحايا ارتباطا بالعفو والمغفرة. وتقاس شرعية العدالة الانتقالية بمدى معارضة أو تأييد الضحايا لها، ودرجة قدرتهم على المشاركة بها والإفادة منها" (١).

وقد مثلت تجربة هيئة الإنصاف والمصالحة في المغرب في العام ٢٠٠٤ أول تجربة عربية ومثالا فريداً، كونها محاولة لاثبات إمكانية تحقيق العدالة الانتقالية من داخل السلطة (٢)

ودراسة التجارب العالمية فيما يتعلق بالعدالة الانتقالية مسألة ضرورية لاستخلاص الدروس. وليس الهدف من ذلك هو تقليد هذه التجارب أو استنساخها، بل يهدف إلى الإفادة منها، وتجنب الأخطاء التي وقعت فيها، وذلك لأن لكل تجربة خصوصيتها ولكل بلد ظروفه، وتحدياته ومشكلاته.

ومعروف أن الاطار العام في المرحلة الجديدة سيكون البحث عن هوية جديدة للمجتمع السياسي الجديد لتكون بديلاً أو نقيضاً للمجتمع السابق الذي انهار أو تراجع أو تفتت.

وقد يحتاج الأمر إلى إعادة النظر بالعديد من القوانين والأنظمة النافذة، وتهيئة تربة صالحة في ميدان التربية والتعليم لإعادة تثقيف الجيل الجديد بقيم جديدة أساساً للشرعية الدستورية القائمة على الحقوق والحريات، وكذلك تعزيز دور المجتمع المدني الذي يمكن أن يكون شريكاً فاعلاً وقوة اقتراح مكتملة للدولة ومشروعها العدالي، وهنا يمكن للإعلام أن يلعب دوراً كبيراً ولا غنى عنه لتعزيز التوجه العام الدستوري والقضائي والتربوي والمدني للوصول إلى الهدف المنشود.

وقد سبق المنطقة العربية عدد من البلدان على هذا الطريق، مثل الأرجنتين وتشيلي في أميركا اللاتينية التي توافقت مع تجربة جنوب أفريقيا، وكذلك تجارب بلدان أوروبا الشرقية التي عكست اتجاهين: الاتجاه الأول يميل إلى طي صفحة الماضي بعد تطبيق إجراءات العدالة الانتقالية (العقابية) على عدد محدود من القيادات المسؤولة عن الجرائم، بالترافق مع كشف الحقيقة والسعي لإحقاق العدالة، وتعويض الضحايا، وجبر الضرر، والتركيز على إصلاح الأنظمة القانونية والدستورية والقضائية والأمنية، وإلغاء كل ما من شأنه إعادة عهد الاستبداد والدكتاتورية.

أما الاتجاه الثاني فقد كان يميل إلى التوسع في العقوبة وتصفية الحسابات، دون أن يتوقف كثيراً عند ردود الفعل إزاء فكرة الانتقام والثأر، بما فيها أحياناً اللجوء إلى وسائل غير قانونية (مظاهرات عنيفة، واعتصامات، واغلاق شوارع، ..)، عند تعثر أو تلكؤ الوسائل القانونية لمساءلة المرتكبين. ولعل بعض البلدان العربية سارت بهذا الاتجاه، وخصوصاً تلك التي شهدت أعمال عنف وتدخلات خارجية، وهو اتجاه أقرب إلى القطيعة مع الماضي. وكلا الاتجاهين يتفقان على كشف الحقيقة، وتحصين المجتمع بوضع



ضوابط قانونية ومجتمعية تحول دون العودة إليه. ومنعاً لحدوث أعمال انتقام كيدية وثأر لا بد من الاعتذار الشخصي والمجتمعي وتهيئة جلسات استماع، ولعل هذا النموذج يمكن أن يكون الأقرب إلى طبيعة المجتمعات العربية التي لا تزال تشدّها روابط اجتماعية عشائرية ودينية.

ويجب ان تركز وسائل التوجيه (بما فيها الاعلام) على التسامح، وتجاوز الماضي باتجاه بناء المستقبل.

لقد تنوعت تجارب بلدان العالم في هذا المجال: فلقد سلكت بولونيا وهنغاريا ما سماه البعض "فقه التواصل" (٣)، في حين اتبعت ألمانيا الديمقراطية فقه القطيعة، أما تشيكوسلوفاكيا فقد تراوحت بين القطيعة والتواصل. وإذا كانت عملية التغيير السلمية في هذه البلدان قد حصلت بفعل صعود اللحظة الثورية إلى ذروتها باتحاد العوامل الموضوعية مع العوامل الذاتية، وانتقال الخوف من المحكومين إلى الحكام، فإنها في رومانيا اتخذت طريق مواجهة عنفية ودموية، وأدت في يوغسلافيا إلى تمزيق وحدة الدولة وانقسمت إلى خمس دول، ودخلت في حروب ونزاعات وانتهاكات جديدة وسافرة لحقوق الإنسان وعمليات إبادة وتطهير، بما فيها تدخلات دولية، وخطا الاتحاد السوفياتي السابق على هذا الطريق وتحولت الدولة العظمى إلى ١٥ دولة في إطار حروب ونزاعات حدودية ومجتمعية، أدت إلى إضاعة الكثير من قواعد العدالة الانتقالية التي كان يمكنها تجنب البلاد الكثير من الآلام والويلات، بالتمسك بالحقوق ومسألة الماضي وكشف حقيقة الانتهاكات ووضع حد لها قانونياً ومجتمعيًا، خصوصاً بتعويض الضحايا وجبر الضرر (٤).

أعتقد أن البلدان العربية ليست بحاجة إلى المرور بكل تلك المآسي للوصول إلى الاستقرار والأمن والتحول الديمقراطي، بل عليها وقد ما تستطيع نخبها الفكرية والسياسية التمسك بالقواعد العامة للعدالة الانتقالية والمضي في ترسيخ القوانين والأنظمة الديمقراطية، دفعاً للفوضى.

وانطلاقاً من هذا التحديد الحديث، فلقد أصبحت مسألة تطبيق العدالة الانتقالية أساسية في فهم ومتابعة مسارات التحولات الجارية في الدول العربية التي عبرت مخاضات الثورة بنسب متفاوتة من النجاح. وقد ظهر جلياً بأن هذا المفهوم غريب عن الثقافة الحقوقية السائدة وبأنه كان بعيداً عن اهتمامات المنظمات الحقوقية التي سبق وأن نشطت في هذه الدول أو في محيطها.

### ما المقصود بالعدالة الانتقالية؟

مفهوم العدالة الانتقالية هو حلقة الوصل بين مفهومين عموميين هما الانتقال أو التحول (Transition) والعدالة (justice). وبالنسبة لتعريفات الأمم المتحدة، العدالة: "هي من المثل العليا للمساءلة والإنصاف في حماية الحقوق وإحقاقها ومنع التجاوزات والمعاقبة عليها". أما الانتقال أو التحول في مفهوم العدالة الانتقالية: فهو مفهوم منحصر في فترة من التغيرات السياسية تتميز باتخاذ تدابير قانونية وحقوقية لمواجهة وتصحيح جرائم ارتكبت عن طريق نظام قمعي سابق، أو حرب أهلية، أو اشتباكات عامة كما حصل في فلسطين (وخاصة في قطاع غزة).

وهو ما يعني أن الانتقال مرتبط في مفهوم العدالة الانتقالية بالانتقال من مجتمع أقل تحرراً إلى مجتمع أكثر ديمقراطية وتحرراً. ومنذ سبعينات القرن الماضي وحتى الآن تم إقرار مبدأ العدالة الانتقالية في أكثر من ثلاثين دولة حول العالم بما فيها دول عربية كالمغرب والجزائر ودول أوروبية كرومانيا وبلغاريا والتشيك. والجدير بالذكر أنه ليست هناك صيغة واحدة للتعامل مع ماضٍ مفعم بالانتهاكات، فجميع المناهج والأساليب التي تم اتباعها في معظم البلدان التي طبقت تلك التجربة تستند إلى إيمان جوهري بحقوق الإنسان، ولهذا يجدر بكل مجتمع أن يختار الطريق الملائم له.

### • ما هي طبيعة الآليات والعمليات المرتبطة بتحقيق العدالة الانتقالية؟

العدالة الانتقالية ليست شكلاً خاصاً من أشكال العدالة، بل هي تكييف للعدالة على النحو الذي يلائم مجتمعات تخوض مرحلة من التحولات في أعقاب حقبة من تفشي انتهاكات حقوق الإنسان. وهناك مجموعة من الآليات المتنوعة المرتبطة بتحقيق العدالة الانتقالية، منها الآليات القضائية وغير القضائية (٥) مثل: أ- تقصي الحقائق: عن طريق تشكيل لجنة مستقلة تتقصى حقائق جرائم الماضي وكيفية ارتكابها والمسؤول عنها، وتحدد ضحاياها.

ب- محاكمات الأفراد المسؤولين عن جرائم الماضي، سواء على انتهاك حقوق الإنسان أو على جرائم اقتصادية متعلقة بقضايا الفساد واستغلال النفوذ والرشوة.

ج- التعويضات: وتشمل تعويض الضحايا وأسرهم عن الضرر الذي أصابهم من جراء انتهاكات الماضي.

د- فحص السجلات: وذلك بمراجعة الملفات الشخصية للموظفين العموميين وأفراد الأمن للكشف عن تجاوزاتهم وجرائمهم والفصل فيها بهدف إصلاح حقيقي للنظام الأمني والقضائي بجانب الإصلاح المؤسسي. وقد اشار احد الخبراء الدوليين بالعدالة الانتقالية الى أن تحقيق العدالة الانتقالية ليس بالأمر السهل، ويستلزم عدة متطلبات، منها:

١- الإرادة السياسية: فهي المحرك الأساسي لمنظومة العدالة الانتقالية وإن توافرت كل السبل التقنية اللازمة لتحقيق تلك المنظومة. فإن لم تتوفر الإرادة السياسية لن يتم تفعيل القوانين والقرارات الجديدة أو سيتم استخدامها لكبح جماح المعارضة السياسية، مما يعني إعادة إنتاج النظام السابق، لان "الانتقال الى الديمقراطية يتطلب ترسيخ ثقافة المشاركة، وحق الاختلاف" (٦).

٢- سيادة القانون: السلطات الحاكمة تضع تدعيم سلطتها وسطوتها على مقاليد الحكم على جدول أولوياتها، وتنشغل عن تعزيز سيادة القانون بل وقد تنظر إلى سيادة القانون بوصفه خطراً على تدعيم سلطتها، وقد يزداد الأمر سوءاً إذا ما اتخذت السلطات الجديدة (الانتقالية) المأخذ نفسه من الانتهاكات التي كان النظام السابق يبتغيها. وعليه ولهذا توجد ضرورة ملحة لتوخي الحذر عند إقرار قوانين خاصة بمعاقبة النظام السابق حتى لا يتسبب ذلك في زيادة قوة ترسانة القوانين الاستبدادية المعرّقة للحياة

الديمقراطية، وذلك عن طريق البعد عن القوانين الاستثنائية التي تخل بمعايير العدالة الجنائية، ولا تحقق قيام محاكمات عادلة ومنصفة. فالغرض من تطبيق منهج العدالة الانتقالية ليس الانتقام من النظام السابق بل الوقوف على حقيقة إدارة هذا النظام وتحديد الضحايا من أجل إعادة الاعتبار لهم، في إطار هدف أوسع وهو الوصول إلى العدل.

٣- استقلال السلطة القضائية: لا يمكن تخيل أي نوع من تطهير المؤسسات أو عزل الجناة أو حتى المحاكمات دون إقرار قانون جديد للسلطة القضائية، يضمن استقلاليتها وتحريرها من سطوة وزارة العدل والجهات الأمنية. والمطلوب ليس فقط ضمانة استقلال القضاة، ولكن أيضًا النيابة العامة، ومعاوئي القضاء، وخبراء وزارة العدل بما فيهم الطب الشرعي.

٤- إنشاء محكمة متخصصة للنظر في الجرائم السابقة، بشرط أن يكون قانون إنشائها متناسباً مع المعايير الدولية للمحاكمات العادلة، وألا تُعد محكمة خاصة أو استثنائية.

ويمكن ان تحدد الولاية القضائية لتلك المحكمة عن طريق قانون يصدره المجلس التشريعي القادم، بحيث يحدد اختصاص زمني للجرائم التي تحقق المحكمة في ارتكابها كأن تكون منذ عام ٢٠٠٦ وحتى تاريخ إنشاء المحكمة.

وأن يُطلب رسمياً من أي محكمة وطنية أخرى التنازل عن اختصاصها في نظر القضايا الداخلة في اختصاص تلك المحكمة، وذلك في أي مرحلة من مراحل التقاضي.

كما يمكن إعادة محاكمة أي شخص صدرت في حقه أحكام قضائية باتة من قبل أي محكمة وطنية في حال أن استطاعت المحكمة المتخصصة إثبات أن الإجراءات التي أتبع في محاكمة هذا الشخص لم تكن نزيهة ومحيدة. وفي الآونة الأخيرة، لم تكن التجارب التي تحبو في مصر وفي تونس باعثاً على الارتياح من خلال الفهم الصحيح للمفهوم وتطبيق "عادل" للعدالة الانتقالية بكل ما تعنيه من جوانب قانونية وسياسية وحقوقية واجتماعية وثقافية وتربوية، وشعر المراقبون بأن ما يحصل من محاكمات أو من معالجات في إطار مرحلة ما بعد سقوط النظام أو رأس النظام، ما هي إلا عمليات ترضية أو ترقيع أو حتى محاولات لطفي صفحة مؤلمة بطريقة اعتباطية دون التمعّن في قراءتها، وخاصة في ليبيا.

وفي فلسطين ارتفعت ضوضاء المصالحة الوطنية في هذه الأيام، وارتفعت أسهمها نظرا للمناخ والجو السائد والملائم لها بعد انتصارين: الأول، في غزة، حين تغلبت غزة الثائرة والغاضبة بما تملك من تحد على دولة كانت تشكل "رامبو" المنطقة. وحينما نصف ما حدث في غزة انتصارا لا ننضم بذلك لجوقة التطليل والتزوير، ولكننا نكون واقعيين. فمجرد الصمود امام الغزو الشديد هو انتصار. فليس شرط الانتصار هزيمة المهاجم، او القضاء عليه. ألم يكن صمود منظمة التحرير الفلسطينية في لبنان عام ١٩٨٢ انتصاراً، رغم ان النتيجة كانت خروج المنظمة من بيروت؟! وكذلك ، ألم يكن صمود حزب الله في جنوب لبنان عام ٢٠٠٦

انتصارا رغم ما لحق لبنان من دمار؟!

اما الانتصار الثاني، فكان حين دخل الفلسطينيون الأمم المتحدة رافعين لواء التحدي. واعتبارنا هذا الحدث انتصارا لا يدخلنا في جوقه المطبلين الآخرين، رغم ان ما حصلنا عليه مجرد قرار للجمعية العمومية، وقراراتها غير ملزمة. والقرار مجرد اعتراف بدولة غير عضو في الامم المتحدة، اي دولة بمقعد مراقب. والذين يبالبون بنصر غزة يحاولون التقليل من شان انتصار نيويورك مشيرين ان منظمة التحرير، واثاء انتهاجها برنامج الكفاح المسلح، وقبل اوسلو كان لها مرتبة مراقب. ومقعدا منذ ١٩٨٨ لم يعد مقعد منظمة التحرير، بل مقعد فلسطين. ورغم صحة هذه المعلومات فإن ذلك لا يلغي انتصار نيويورك لانه من نوع انتصار غزة، حيث ان انتصار نيويورك ايضا كان انتصار صمود امام ضغط وتهديد "رامبو" السياسة الدولية. فإن كانت اسرائيل رامبو المنطقة عسكريا فإن امريكا هي رامبو العالم والحامي لرامبو المنطقة. هذا ما يجب ان يكون، ولكن لماذا يستمر هذا الانقسام الذي يقترّب من دخول عامه السابع؟ ولماذا تغيب الإرادة السياسية عن تنفيذ اتفاقات إنهائه إلى درجة يصبح معها بوسع ملاسنة بين رئيسي الكتلتين البرلمائيتين تعطيل لقاءات البحث في تنفيذ آخر هذه الاتفاقات إلى أجل غير مسمى؟

السبب كما اراه لان الانقسام الفلسطيني ليس حول الديمقراطية او التعسف الامني او الحريات السياسية، كما يحاول البعض تصويره. فالانقسام الحالي مختلف نوعياً عن ما شهدته الساحة الفلسطينية من انقسامات منذ تأسيس منظمة التحرير الفلسطينية ككيان وطني جامع. فهو أول انقسام يختلط فيه الخلاف الفكري السياسي بالتنازع على التمثيل السياسي للشعب الفلسطيني، ولأنه لم يكن ثمة وحدة بين طرفيه قبل وقوعه. بل لعل التنازع على التفرد بهذا التمثيل هو السبب الفعلي لهذا الانقسام واستمراره بينما الخلاف السياسي مجرد غطاء وذريعة. فقد توافق طرفا الانقسام على "التهدئة" كخيار سياسي لإدارة الصراع مع الاحتلال. كما ان جولات الحوار بين طرفي الانقسام لم تبحث بجدية في البرنامج السياسي الوطني. ولم يكن تعطيل الجولات بسبب الخلاف السياسي، بل، إنهما توافقا على إجراء انتخابات رئاسية وتشريعية للسلطة الوطنية. وهذا تجديد للمرحلة الانتقالية لاتفاق "أوسلو" التي انتهى عمرها الزمني في أيار ١٩٩٩.

إن إنهاء هذا الانقسام يحتاج أول ما يحتاج إلى مصارحة تكشف عن السبب الفعلي لوقوعه وبالتالي عن أسباب استمراره وغياب ارادة تنفيذ اتفاقات انهائه.

إن كانت التعددية السياسية طبيعية في اي مجتمع فهي في المجتمع الفلسطيني اكثر طبيعية، وذلك بفعل شتاتهم في جميع بقاع العالم لاكثر من نصف قرن.

وهذا ما يفسّر لجوء بقية فصائل منظمة التحرير الفلسطينية إلى إدارة خلافها السياسي مع "فتح" كتيار مركزي فيها، وفقاً لقانون الخلاف داخل الوحدة، وبما لا يمس بوحدة التمثيل الفلسطيني، ذلك حتى بعد اتفاق "أوسلو" كمحطة قسمت الحركة الوطنية الفلسطينية إلى اتجاهات. بل، ويسجل لحركة "الجهاد

الإسلامي" عدم التورط في خطيئة الاحتراب الداخلي، رغم أنها من أكثر الفصائل الفلسطينية جدية وانسجاماً في معارضة هذا الاتفاق (٧).

لو كان الصراع بين طرفي الانقسام على البرنامج السياسي لكانت الظروف الحالية هي البيئة الانسب للمصالحة، فلقد ابدت الفصائل، والسلطة، والجماهير في الضفة، تضامناً فعالاً وجيداً مع قطاع غزة خلال مرحلة العدوان الإسرائيلي الأخير، ثم احتفل الجميع في الضفة وغزة، بالإنجازات التي حققتها المقاومة وحققتها الدبلوماسية الفلسطينية في الأمم المتحدة، وتنقلت وفود حركة فتح القادمة من الضفة في أنحاء القطاع، وتلا ذلك السماح لحركة حماس بالاحتفال على نحو واسع في الضفة لمناسبة ذكرى تأسيسها الخامسة والعشرين. وفي المقابل لم تمنح حماس في أن تقيم حركة فتح احتفالات جماهيرية لمناسبة انطلاق الثورة الفلسطينية في القطاع. وسائل الإعلام لدى الطرفين تعمل في مربع كل منهما بقدر من الحرية، باستثناء أن الصحف الصادرة في الضفة لا تزال ممنوعة من الوصول إلى القطاع. يضاف الى ذلك أن برنامج التسوية ثبتت وهميته، وانسداد آفاقه، ولم يعد المحطة انتظار لقطار غير مؤكد مروره. كما ان برنامج المقاومة المسلحة ثبت عدم توقع انجازاته، ولم تعد في احسن حالاتها الا عملية عض متبادل على الاصابع. والحقيقة ان الصراع هو بكل تأكيد على التمثيل. والتمثيل لا اهمية له في برنامج القتال انما تكمن اهميته في برنامج التسوية. اي إن الصراع ليس على من هو صاحب الحق في قتال العدو، بل من هو صاحب الحق بمفاوضته.

وهذا ما جعله يبدو لبعض المراقبين أن موسم التفاؤل بشأن إمكانية تحقيق المصالحة الوطنية، قد انتهى إلى أفق مفتوح على خيبة أمل أخرى، بالنسبة للذين يأملون في أن تؤدي المصالحة إلى تغيير واقع الحال الذي ترسخ على الأرض خلال مرحلة الانقسام. مقابل ذلك ثمة من يقول إن المصالحة جارية، على اعتبار أن المقصود بها، هو التعامل مع الأمر الواقع القائم بما هو عليه، مع تعديلات تتصل بتوفير مناخات إيجابية بين الفصائل، وبما يتيح لكل طرف معاودة نشاطه السياسي والجماهيري والإعلامي في مربع الطرف الآخر (٨).

## المصادر

- ١- Arabic.pnn.ps ظاهر الشمالي
- ٢- عبدالحسين شعبان\_مجلة"الاهرام الديمقراطية"-السنة الثالثة عشرة-يناير٢٠١٣.
- ٣- سيمون مارتن لبيست (أكبر علماء الاجتماع اختصاصا بالديموقراطية)، نقلا عن رضوان زيادة\_المجلة العربية للعلوم السياسية-ربيع ٢٠١١.
- ٤- رضوان زيادة (المصدر السابق).
- ٥- موقع الكتروني www.cihrs.org
- محمد عز "آليات تحقيق المصالحة الوطنية بعد الثورات العربية.
- ٦- عبد الواحد بلقصرى- مجلة المستقبل العربي العدد ٣٦٢ نيسان ٢٠٠٩.
- ٧- علي جرادات "المصالحة تقتضي المصارحة" الايام (٢٠١٣/٣/١٣).
- ٨- طلال عوكل "المصالحة الى اين! " الايام (٢٠١٢/١٢/٢٧).



## أوراق ثقافية







## لا شيء يحدث

مي صايغ

لعلك كنتِ تصطادين النجوم في الليل وتخفينها في أحلامك لتصوفي منها كلمات الصباح، ولكنها كانت تفلت منك، تطير كالفرشات المملوثة وتضيع في ضوء النهار وتترك لك ظلالها التي تستعصي على الصيد، ولا يبقى منها سوى حلاوة تذوب في فمك، وألوانا تسكر نهارك تأتي الظهور على الورق.  
ولا شيء يحدث !

تنهضين باكرا لتحاوي النوم من جديد. الهرب أجدى من هذا الفراغ الشاسع.  
تهربين إلى الشوارع إلى الساحات إلى الغابات، تجلسين على مقاعد الحدائق، ترتادين المتاحف والغاليريها والمقاهي ولا ينفد الوقت.  
جميلة باريس ولكنها منفاك.

في كنيسة التوتردام أضأت شموعا للسيدة العذراء، وصليت لله أن يهدي رفاقك ويغفر لهم لأنهم لا يدركون ماذا يفعلون.. هل كنت تكذابين؟  
لعلك لا تصدقين خيانة الأصدقاء.

قلت يارب أعديني إلى هناك حيث لا يتلكأ الربيع عن مواعده وحيث تأتي الأصباح شفيفة تتراكم مع المرمية والحنون.  
وليس لله ما يمنع من استعادة جواز سفرك ... يقولون لك إنشاء الله ...

غير أنهم يرون أن ماله صار لهم، وأن منفاك يقع خارج حاجز الصوت، ولا صوت لك ... هكذا!  
هم في الأصل لا يرغبون سوى في سماع أصواتهم وأنّ عليك أن تخبّي أحلامك في جيب معطفك  
وتملأي فمك ماءً كالضفدع.

لكنّ السّماء بسحبها ومزنها وضبابها تقترب كثيرا فتضطرّين إلى حملها على كتفيك انقاء سقوطها  
فوق رأسك، تفتح لك شرفة تطلين منها على الوطن، والحلم بأمنية تأتي في موسمها.  
الواقع مساحة انتظار تقطعها في الإصغاء إلى نبض المدينة، تجوسين في الشوارع على غير هدى،  
تسيرين إلى اللامكان، تصادقن الأشجار وضة النّهر ووجوه النّاس الرّاكضين الى مواعيدهم.  
أيتها الجالسة على قارعة الطّريق

الطريق التي لا تمضي

بانظار الحافلة

تحصين ألوان الرّهور

في شرفات المنازل

وتحلمين بفجر معلّق كقنديل

فوق سطح بعيد

كم مضى من وقت وأنت تنتظرين؟

تنتظرين ارتطام الشّمس

وانحلال الجهات

علّك تجدين وميضك منتظراً

فوق سطحٍ ما من هذا الكوكب

كم مضى من زمنٍ

وأنت تُختزلين

منذ سرقوا نجمك

وقرنفل أيامك

وتركوا الفصول تقطر من ذوائب شعرك

قطرة قطرة . . . وأنت تنتظرين الحافلة.

أهذه أنت ! لست سوى دوري  
تاه سرُّه بعيداً عن يقين الحقول

تستقلِّين الحافلة من محطَّتها الأولى، فتحملك عبر المدينة الى محطَّتها الأخيرة في نهاية الحيِّ اللاتيني  
ولا ينفد الوقت، تقطع بك المدينة من أقصاها إلى أقصاها وتعيدك ولا ينفد الوقت. لا ينفد في  
المتاحف، لا ينفد في المقاهي، لا ينفد في لقاء الأصدقاء، ولا ينفد حتّى في الكتابة، ويظلُّ مساحة  
انتظار، شرفة تطلِّين بها على الوطن.

يصحو الكلام، هذا المجهول الذي يقدِّم نفسه بآباً تعبيرينه إلى خضرة الذاكرة، حضور الوطن مجرداً  
من كلِّ عيب، تداخل الوجوه والأزمنة، حلاوة الكلام، جراح الموسيقى، كلمات الشَّعر التي تذبج  
القلب.

بالرغم من الأسئلة التي لا تتوقَّف، وتظلُّ تلحُّ مع كلِّ ما ينبض في الهواء، في الطرقات، في الكتب،  
في الأفلام. تصفَعك الحياة مع كلِّ حوار أو كتاب جديد تسألُك عن الحقوق في الوطن، حقوق الفرد  
وحقوق الجماعة، تسألُك عن حرِّيَّة الرأْي.

ومع الأيام، صار الوطن عالماً موازياً للواقع تعيشينه في الأحلام والهواتف والصَّحف.

فما الذي يمكن أن يصيب امرأة مثلكِ

ما الذي يمكن أن يصيبها

من كان عليها أن تجمع ذاتها من ذرَّات الهواء

وتخفيها عن المحققين

وتصغي إلى رنين دمها في فوهات الأسلحة

وتجمع لحم رفاقها بيديها عن جدران المدن

وتقول للموت لا !

ما الذي يمكن ان يصيب امرأة مثلكِ في هذا الإبعاد القسري، وأنت ترقبين إصرار الطيور التي  
تواصل بناء أعشاشها في أعناق الحور العاري خلف البيت رغم العاصفة التي تصرُّ على اقتلاع كل

شيء، تبقى الأعشاش ثابتة في أماكنها،  
لعلها أشدّ ثباتا من قطرات الروح التي نزفتها قطرة قطرة لتفسحي بها موطننا لقدميك.

ثم تسألين!

كيف تسنى لمقال في مجلة نسائية حول سرطان الثدي إثارة شكوكك فتسارعي إلى تحديد موعد  
مع الأطباء لإجراء الفحص!

نعم

كنتِ على يقين من أن جلوسك كل ليلة أمام التلفاز تتحرقين وتشاهدين كيف يتم لي اللغة التي  
سقطت عنها قداستها في قالبها الجديد، وتطالعين وجوها جديدة ليست من فصيلة دمك، جاءت  
كالكوجبات الجاهزة لتنطق باسمك و باسم الوطن الذي يتم قصه وتشذيه كأشجار الشوارع، لا بد  
وأن تصل بك إلى الجنون أو السرطان.

أنتِ لست بخير.

فهل ستجريين على المواجهة؟

سميرة، صديقتك، لم تصدق إمكانية حدوث ذلك لمن في مثل قوتها وعنقوانها،  
وبين التكذيب والتصديق، مرّ الوقت، سرق السرطان عمرها ومضى.

وآنيا الصحافية الفرنسية التي ذهبت لعيادة صديقتها في مستشفى السرطان، فاكتشف الطبيب  
السرطان في صدرها هي. وكان الوقت متأخرا والعلاج بلا جدوى... غير أنها تمكنت من التّشبّث  
بالعمر برهة... سرقت منه فرصة لكتابة حكايتها مع السرطان، كشهرياد التي أطالت عمرها  
بالقص.

نيسان ينشر صبحه الذهبي على أشجار الشّارع الأنيق، وحديقة كليمنصو تحتفل بالربيع، وتغرق  
بعطورها وألوانها، وتلهيكِ عمّا أنت فيه، تدعوك فتعتردين لضيق الوقت.

تكرهين هذه المهمة الثقيلة.

طبيبك تعتمد هذه العيادة التي لم تزورها من قبل، والتي تفضّلها على المستشفى الشهير المجاور  
لبيتك.

تصلين الى العنوان التأه بين اليافطات، تفرعين الجرس فينفتح الباب عن نجمة داود  
بمختلف الأحجام تتزيّن بها جدران العيادة.

تلنت إليك العيون فتجلسين على أقرب مقعد وتنتظرين.

ويطول انتظارك وأنت تتلهين بالمجلات الصّحية المصفوفة أمامك، تقرئين أن الكركم مهم لصحة  
الدماغ وأنه يحمي من مرض الزهايمر وأن حبة الجوز بفلقاتها الداخلية تحاكي الدماغ، وأن الغذاء  
الفقير بالدهون والغني بالخضار يحمي من السرطان وأمراض الشرايين.  
وتنتظرين.

وأخيرا نودي على اسمك، وانفرج باب جانبي، وسرت في أوصالك تلك الرّعدة التي تعاودك لدى كل  
فحص، إذ يتحول جهاز الفحص إلى آلة تعذيب ترقّق الصدر كالرغيف البلدي.

بين براثن الجهاز لا تفكرين سوى بالخلاص من ألم الجهاز

فكيف بك وأنت تتلقين الأمر بضرورة إعادة الفحص ، ثم المزيد من الفحوص التي طلبت طبيبتك  
إجراءها على الهاتف... تعادين إلى غرفة انتظار كالزّنانة.  
يجف لسانك... وتختنقين بالأسئلة ولا تسألين.

تمتثلين للأوامر، وتجري الفحوص على جسدك وأنت كالمأخوذه.

ينتهي الفحص أخيرا، ويشد الطبيب الكوي الذي يتحدث الفرنسية بالإسبانية على يدك مهنتا  
بالسلامة، ويسلمك التّقرير وصور الأشعة.

أسلمتِ حقاً؟

تهرعين الى طبيبتك في الشارع المقابل فتؤكد سلامتك، وتندفع كعادتها بالنقاش حول مفاوضات  
السّلام، فهي عضو قيادي بارز في الحزب الإشتراكي الفرنسي... ولم يترك الوقت وقتا لمزيد من الحوار  
والعيادة تعجّ بالمنتظرات .

أنجوتِ حقاً؟ تشكّين؟

غريب كيف يتحول الشك إلى مصيدة !

في محطة المترو، هبط الأنيقون بعطورهم وكلابهم واكتنّطت العربية بأصناف البشر، وعلت موسيقى  
المتسولين وأدخلتك في صخب المدينة وحيويتها، وألهتك عن التفتيش عن خيوط جديدة للشك.

تعشقين الصّخب... الصّخب حياة.

في محطة أناتول فرانس هبطت من المترو، وعرجت على بائعة الزهور وانتقيت باقة من زهر المرغريت، ودون وعي منك، استغرقت في تمزيق تويجاتها كالمراهقات بحثا عن اليقين.

تعيدنين الفحص!؟

لن تفعلين... وستظلين مقيمة في القلق.

إذاً، تناسي الموضوع، أطرديه من رأسك،

إستبدليه براءة رواية، بفيلم. ضعيه خلف ظهرك، أو في جيبك، إحكيه لصديقاتك، ولا تسمعي الأخبار التي تغتال أحلامك وأمانيك وكل ما آمنت به.

تدخلين المقهى، تجلسين بانتظار صديقتك القادمة من طرف المدينة الآخر، تتلهين بمتابعة وجوه الرواد القادمين من أصقاع الأرض على رصيف الشارع الفسيح،

فضاء حرّ لا تحكمه قوالب... يسرقك الإتساع منك، يشنت هواجسك، تبتسمين للظروف العرجاء التي ألقت بك هنا من حيث لا تدريين.

تصل صديقتك مشدودة الأعصاب مما تُهلّل له الصحافة الدولية حول "ملهاة السلام" ولا يسمح النقّاش واستعراض سيول التصريحات المجّانية بمناقشة شكوكك.

\* \* \*

حين نام دويّ المدينة، ثقلت عليك الأخبار. مرّقتك القضايا التي سقطت عنها قداستها، وحقوقك الوطنية التي تقدم بلا ثمن على الشاشات... فإذا كان شيء في الأشعة فهو هذا السّم والخذلان والخيّبات.

وبعد الآن لاشيء يهم... لاشيء يهم.

أيهدون؟ بعضُ وطن، فتات وطن، قليل من وطن، شيء من وطن.

وكيف لا يهم! تشبكين مع الفراغ، وهواء البيت... تشتمين نفسك وأهلك وأجدادك وحتى غسان

الأول الذي رسم وجودك ومصيرك على هذه الأرض المقدّسة التي يُفقدونها قدسيّتها الآن وأمام التاريخ .

و التاريخ لا يرحم: صلاح الدين ترك السّاحل للروم في صلح الرّملة.  
سينما... المقابلات المتلفزة، والوجوه التي غيّرت وجوهها، والكلمات التي بدّلت معانيها، والمواقف التي تعرّت ككروم الشتاء... أخذتك منك...  
ألهتك عن ذاتك.

أربعة أشهر كاملة أجلت القلب.  
غير أن يداً لمستك... لعلّها ملاكك الحارس... أيقظتك من سبات ليلك إلى صحو الحقيقة، حتك على ضرورة إعادة الفحص.  
هل كان حلماً!... لم يكن حلماً.  
أيُّ صحو هذا... أيُّ صحو !

فجأة يصرّ العالم على أن يكون أشدّ واقعيّة وقسوة مما عهدته حتى في ليالي الموت من عمرك الفلسطينيّ... وكأن الحقيقة كانت بانتظارك أو كنت بانتظارها. تصطنعين رباطة الجأش... تقرئين عيون الطّبيبة وهي تدبّج التقرير، كمحكوم أغلقوا عليه أبواب السجن، الطّبيبة هادئة وصريحة.  
لاتجدين لغتك المنتقاة ولا صوتك الهاديء في اصطناع الشّجاعة، تُحدّثك بلغة علميّة محايدة تشي بشيء من التّعاطف في أنافة تعبيرها، شأن أصحاب الذوق الرفيع باقتراحاتها حول العلاج وسبل الخلاص.

ولماذا تكثر، غرفة الإنتظار... مر بها كثير من أمثالك، بعد عام أو أقل أو أكثر سوف يذهبون ولا يعودون.

يضيق المساء، وتضيقين به، يستحيل إلى زنازة تخنقك. الآن تُغلق عليك الأبواب ويصبح لعالمك تقويم آخر... ينفصل الزّمن عن الزّمن وتجدينيك وحدك وحولك خواء بلا لون، وكأنك لا ترين ولا تسمعين، وعلى مقربة منك آخرون يتحدّثون عنك.

فهل تخلت عنك الحياة هكذا وبلا مقدّمات! فجيعتك بها لايتّسع لها الكلام، أنت التي عشقتّها بتطرف تترأّ منك، تكتشفين وبجرعة واحدة مدى الخديعة.

السّرطان كامن في صدرك! لعلّه كان يغافلك ويسري حين تخمضين جفنيك، لكنك لست ممن

يغفلون عن دقات قلب الحياة وينامون عن شواردها؟  
فكيف لم يلتقطوه في الفحص الأخير! وقبل أربعة أشهر!

هل آمنت حقاً بقوة الروح وقدرتها على حماية الجسد؟  
فما الذي كسر يقينك؟

ألم تكوني قويّة بما يكفي لحمايتك من هذه البشاعة؟  
فأنت لم تعيشي عمراً يجعلك تقبلين صاغرة بهزيمة الحياة فيك.  
فما الذي رفع إشارة التوقف، وقطع الطريق؟  
ثمة آلاف الأشياء التي لم تفعلها بعد، وملايين الكلمات التي لم تكتبها بعد،  
وفي الشوق شطآن وعوالم لم تريها بعد.  
أتصدقين! جسدك قاتلك! أتصدقين!

لم تقفي مرة واحدة لتطرحي على نفسك السؤال الذي يطرحه العقلاء  
أين أنا؟

كنتِ مندفعة كموجة مجنونة، كعاصفة، فلماذا تضعيني الآن أمام هذا العسف  
أما كنتِ مرآتي؟ فلماذا لا أراي الآن! ولماذا تبدين كاللأشياء أمام سؤال الحياة والموت!  
هل أضعتِ يقينك أمام هذا الرّهب الذي لا يُسمّى؟ ردّي ولا تقفي هكذا فزعة كطفل أضاع أمّه.  
لا أفهمك، وبأيّ المعاني أُصدّقُ خوفك؟ أما كان بوسعك إسناد سماءٍ سقطت أقمارها،  
أما قرأت أنّ كثرات نجونَ، تسلّلن من بين برائثه.  
أما عبرت بحر الموت عمرا، ونجوتِ... فما بالك الآن تخافين خوف المحكوم بالإعدام! لا بأس عليك...  
فسواء كنتِ في ثوب الإعدام الأحمر أو ثوب العمليات الأزرق، فلا أمرٌ مما أنت فيه .

أيهزمك الزائر الثّقيل؟ غافلك وتسلّل الى جسدك كاللص كي يسرقك منك، وضع نقطة في العمر تحدّد  
الماقبل والمابعد.

والإحساس الرّهب بالوقت الذي يركض بك الى نقطة في الزّمن، ولا تستطيعين إيقافه.



أن يصبح الغد تهديداً

في النسيان تنام أوقات أخرى، ويعبر وقت آخر ودم كثير. شيء من هذا حدث من قبل، وجود وعدم، يتقاسمان الزمن الماضي والحاضر.

كان تقدّم الموت على دويّ دقات القلب، ثمّ النّجاة بعد سقوط القذيفة في مكان آخر غير رأسك، يمنحك إحساسا بوفرة الحياة.

كانت هواجسك قصيرة الأجل... فما دامت الحياة ممكنة بين القذيفة والقذيفة، فلا بأس من معايشة الموت الذي يأكل معك من الطّبّق ذاته ، ويحدّق فيك بعينه الساهيتين وأنتما تلعبان لعبة القطّ والفأر .

كان للموت معنى، كنت تدافعين عن الحياة. . . ولم تكوني وحدك، كنت كالأخرين تقتسمون خوفا واحداً، وحلمًا واحدًا. وأملا واحدًا بالنّجاة ، لذلك كنت تُقصين الموت عنك تهشيّه كالدّباب ، وها هي الحياة تخونك !

أتخافين?... لستِ جبانة ، لكنّ هذا موت عبثيّ

في الليلة الأولى بعد اكتشاف الحقيقة، كان الوضع غريباً، قلتُ لك خلية من خلاياك جُنّت وانقضّت تنهش ماحولها، نامي لتنام. لكنكِ سهرتِ تتربّصين بها وتتربّص بك .

نمت، صحت، نمت، حلمت بالسّرطان وقد استحال الى حجر رحي يطبق على صدرك ، تختنقين... تصحين مقطوعة الأنفاس، تعودين للنوم، فيعاقبك النوم على إقلاق راحته بكابوس يستحيل فيه السرطان سرطاناً بحرياً ينشب أنيابه في صدرك، تستغيثين ولا يسمعك إلاي، فهديّ من روعك .

الصباح فاتر ثقيل الخطى، يتركك على باب المستشفى ويختفي... تتلكئين... خائفة أنت... الموت مقيم فيك، وعليك وحدك هزيمته بكلّ ما استطعت من بأس.

يغرسون إبرهم الطويلة عميقا في صدرك للحصول على عينات مما أظهرته صور الأشعّة، تسحب الإبرُ روحك وفتاتا من نسج وجودك. تتصّبين دموعاً ودماً. تستغيثين بنفسك وبهم وبكل الأنبياء بأنين مكتوم ولا يغيثك أحد.

يشيدون بقوة احتمالك وأنت أضعف من نملة.

من قال إن بإمكانك احتمال المزيد.

أما من مخدراً!

حلاوة الرّوح تذهب بروحك فلا تجدنيك .  
تسمعين لهات دمك ونبض قلبك الذي ينخلع ويهوي مفتتاً على بلاط الغرفة... غرفة التعذيب.  
هذا وألم ليس كالألم.

تتناقل عقارب الساعة الكبيرة ، تزحف، والطبيب يتصبّب عرفاً ، وكأنّ صدرك جماد أصم وأنت حجر .

أنت أضعف من غلة أمام هذا الهول... أيتها المناضلة الباسلة.  
يغرورق الألم في عينيك وحلقك وتصبح الحياة أشدّ بؤساً وإيلاماً من كل ما مررت به من قبل...  
استعدي الآن بالرغم من كل شيء، فأنت قوية بما يكفي لخوض التجربة.  
أتركك الآن لتهدئي، فلسّ أملك صبراً ولا حشيشة قلب للردّ على تساؤلاتك  
كأنك فقدت تفاؤلك في رائحة المستشفى وفي كلام الطبيب!  
تتفحصين الإشارات والحركات بأصابعك المرتجفة... ستظل أسئلتك معلقة بلا اجابات.

جميل أن تغيم غرفة العمليّات ووجوه الأطباء وأدواتهم... جميل هذا المخدر، يحملك بعيداً.  
نامي الآن... سأتركك تحلقين على جناح غيمة بيضاء في هذا الفضاء المغسول، لولا الضوء الذي يغرغز  
أشعته في عينيك ويقلق نومك... تطلين إزاحة الشّمس فيذوب الكلام على شفّتك، تسمعين صوت  
الطبيب يهددك، فتستسلمين للصوت.  
تتداخل الأزمنة... كأنك تكملين حلماً لم يكتمل!

الممرضات أوزّات بيضاوات يتهامن من حولك... والطبيب مارداً أزرق  
وأنت على سرير غمامة في فضاءٍ أبيض... ينخفض الهمس، يصبح خطأً واحداً بلا تعاريج، تحاولين  
الكلام فيذوي على شفّتك، تنامين... تنامين...  
تهمس الأوزات بفزع elle est morte. ميّته أنت إذاً.

يحدق الطبيب في وجهك بعينين غاضبتين ويقول شيئاً ولا تفهمين... تعرفين أنه ليس هو، ليس طبيبك... هو آخرٌ لم تشاهديه من قبل.

ميتة أنت إذآ... يلفّ روحك بقمط أبيض، ويهرب بها من بوابة المستشفى، يركض صاعدا طريق الجبل، تركضين خلفه مغلولة القدمين كسلحفاه... يبتعد، يبتعد، لا تستطيعين اللحاق به، تصرخين... تنادينه... يلتفت اليك، فترين فراغا مكان الوجه تحت غطاء الرأس الأزرق، تصرخين فرغاً، تستغيثن، يمر بك السابله ولا يلتفتون وكأنك لا أحد. تتسمّر قدمك ولا تستطيعين مواصلة الرّكض، تتضائلين، تصغرين... يبتعد الشّبح راكضا الى أعلى قمة الجبل، يقف على حافة جرف مسنّن ثمّ يختفي. تتسمّر قدمك ولا تستطيعين مواصلة الرّكض...

مسحوقه مغلولة القدمين حافية عارية الظّهر في ثوب المستشفى.

ثم ترين جسدك ممددا أمامك في غرفة العمليات، ترقبينه كما من خلف ضباب وكأنه ليس لك، ثم يأخذك نعاس آخر فتنامين .

تحلمين : مائدة تتوسط الغرفة في البيت القديم ( فضاء أحلامك) ... وكتاب مفتوح كأنه ألبوم صور وأنت تقفين أمام نافذة تطلّ على أيّامك وتبتسمين لك كما في الصّورة، تتقدّمين نحوك، تقولين هيا ! تفتحين عينيك المستغرقتين في السّبات كما من خلف ضباب...

موثقة أنت إلى السرير.

جسدك أربطة وأنايب تتدلى من خاصرتك من إبطك من صدرك...

يستفيق الألم، تصحوان معاً.

النجاة، خاطرة تعبر لا وعيك، ألا زلتِ تحلمين بالنّجاة !

لعلّ... ليت... ولكن الصّمت من حولك يقول شيئا آخر

تذكرين هذه الأنايب من قبل تتدلى من خاصة آنيا.

زمن جديد... يضعك على حافته، يدفعك، ولا يزودك بحبل نجاة.

زمن بلا لون ولا معنى، يتنقل بك بين سرير المستشفى وسرير البيت ولا يحمل عنك ولو طعنة أم أو رعشة رعب واحدة على عتبة الموت.

تراقبين نفسك بذهول وأنت تدمعين حين تُدخل الممرضة إبرة الأكسير في شريان صدرك وتصغين الى كلماتها التي تربّت على روحك حنانا وأملا، ثم تتركك لسيل الكيمياء، يسري في دمك! يدمّر خلاياك، يُدمّرُك، وماذا كنت تتوقعين من دنيا تهديك مهنة التّصدي لنوازلها ؟

يريحك ما يمنحه العلاج من نسيان، تنسين... تحبّينك صبيّة فتية،

لكنّ الأيام تسقط من ذوائب شعرك كما ماء المطر على طريق البيت، تركض بك ولا تملكين القدرة على إيقافها، لو تقبضين عليها، لو تستبقها.

ترينها الآن تفرُّ من يدك كالعصافير، فعقارب الوقت لا تتوقف عن الدوران، تمرّ على وجهك كما تمرّ الرياح على سفوح السّوافي، حاملة معها ذرّات من ملاحظتك.

لا تحبّين أن يسرقك الزمن هكذا، يسرقك منك... تحبّين أن ينساک، كما غنّت فيروز " ينساني الزّمان على سطح الجيران " .

لماذا هذه المعركة غير المتكافئة، يأتي بك ثم يعيدك للكينونة، أليثبت أنه الأقوى!  
وأبيّ ذنب فعلتِ كي يعبث بك هكذا!

ستتحمّلين خوفك وآلام جسدك ونوبات الدوار والغثيان واحتمال فشل العلاج، أمّا أن تستيقظي هكذا وبعد الجرعة الأولى للعلاج لتجدي وسادتك مغطاة بشعرك!

تبكين وتضحكين، تضحكين من شكلك الجديد بأسى وأنت تصغين الى صوت جارتك السّاحر وهي تغني *la vie en rose* و *non je ne regretted rien*

فأنت أيضاً لا تندمين على شيء، وبالرغم من أنّ حياتك لم تكن وردية اللون كما تصدح الجارة مع إديث بياف فأنت تحبينها... أنت تحبين الحياة.

ولكن

من أنت ؟

لست سوى ذرّة من كون عظيم .

فما يضيره لو يدعك تواصلين حياتك... أنت لم تطفئي نجمة من نجومه

ولا اعترضت كوكبا من كواكبه، ولا سرقت سرّاً من أسرارهِ، من أنت ؟

تأتين هكذا ومضين بلا معنى، بلا وضوح .

أشجار الحور، رفيقتك

التي تحمل لك الشمس على كفيها كلّ صباح /وتفتح نافذتك للصّحو/ وتعدُّ لك قهوتك

شامخة في وجه العاصفة / والريح الوحشية ذات المخالب/ تنقّض على جذوعها بفؤوسها اللّامرئية/

كحطّابي الغابات/ فتسقط منها أعشاش اليمام /ومزق الأوراق/

وتلوي هاماتها الجرداء.

لكنّها لا تلبث أن تعود رافعة الرّؤوس / عارية إلّا من روحها / مطبقة أهدابها على حلم ربيعيّ /

تربّت على خدّك بأصابعها الحانية، وتبتسم /

أشجار الحور رفيقتك عارية إلا من معاطف الثلج /  
كجسدك مجرّدا من عنفوانه في سموم الكيمياء /  
فالأكسير أشدّ من أن يسمح بإراحة الرأس على الوسادة / ومع ذلك  
فأنت تعدّين الأيام على أصابعك / كما في دروس الحساب الأولى /  
منتظرة نهاية الدّرس .  
أشجار الحور نحيلة كروحك / روحك التي تنفلت منك / روحك التي تنفلت منك  
هائمة في دروب المدن /  
تبحث عن خواتمها / عن كحل عيونها / الذي سرقته السّموم /  
وتحلم بالبراعم  
في أطراف الغصون

صارحك طبيبك بما سوف يأتي، ونصحك بالحصول على باروكة وقبّعه. حسبته موضوعا مؤجّلا وأن  
شعرك لن يتساقط هكذا دفعة واحدة، وأطلعك على مختلف مراحل المرض، ولم يعدك بشيء،  
حملك وحدك مسؤوليّة شفائك... لم يكن غامضا، وكان على حلمك المهتدّد إكمال الصّورة.  
أنت في سباق مع المرض وعليك وحدك الدّفاع عن حياتك.  
وماذا في تساقط شعرك؟.. بالأمس لم يبدُ الأمر لك هكذا... أنسخر الحياة بك؟  
بالأمس ابتعت باروكة تناسب قصّة شعرك، وتركت زوجك يجز شعرك بالملقّص كصوف الخراف  
، لكن عندما غافلك الليل وأسقطه من جذوره على الوسادة لم تتمالكي نفسك، صعقتك المفاجأة  
أبكتك، ووقفت أمام الصّباح كشخّاذ يستجدي الرّحمة من حياة لا ترحم.  
في الحقيقة لم يكن الشّعر سوى عنوان الحرب بين خلايا دمك و حرائق الأكسير  
وبعد ليلتين فقط من الوصول بك الى المستشفى حيث تركتك سموم الكيمياء تتجرعين الموت حتى  
الصّباح.

لم يحفل بك عبدالميلاد، مرّ بالباب ولم يسأل، كانت المدينة تحتفل به ويحتفل بها، وكذلك المستشفى  
وسيّارة الإسعاف.

هل متّ في المنام أم خطفك الليل ثم أعادك. لم تكوني هنا، وكنت أدافع عن حياتي فيك ، أستعيدها

من قبضة الغثيان والغياب .

لعلّ المدى السّري المعطى لروحك لم تزل فيه بقيّة حياة، فاستبقاك، أو أنّ إيقاع المطر على النّافذه أوصل رسائلك المبللة برائحة الأمل إلى سماء الرّحمة !

صحوّت من الموت بعد يومين على حافة الحياة.

كانت جرعة السّم التي تلقّاها قلبك مترافقة مع دفقة الأشعة من القسوة حتى أن الفراش لم يتسع لنزق جسدك ودواره وغثيانه فاتخذت الأرض بديلاً لسحق أحشائك ومساواتها بالأرض.

كنت تدفين أنفك في الوسادة حين خطر لك الإستنجاد بطبيب صديق علّه يغيثك بنصيحة أو كلمة مواسية تخفف من روعك، لكنه تطوّع بإطلاعك على سرّ أخفاه عنك ولا بد لك من معرفته: بأن الشّفاء في مثل حالتك مسألة حظّ لا أكثر.

وما جدوى العلاج والمستشفيات والجرعات والأشعّات والأجهزة إذاً؟

إنها مسألة حظّ اذن!

تصغر الحياة، تضيق، تصبح الدّنيا خرم إبرة وخيط روحك ينثني يرفض الدّخول، أتستسلمين؟ في الغياب راحة، والجسد يعاند استسلامك، يتشبّث بتلابيب الحياة.

لروحك قصائد يكتبها الهذيان، تنبت من طفولة الأشياء بلا حساب لنهايات معلومة او مجهولة بعضها تفاصيل لقصص ماضية لم تكتمل، والعاصفة تذرو روحك وترجعها، تراقصها على موسيقى صخب المدينة التي تحتفل باستقبال العام الجديد.

يتعافى جسدك الواهن، كأنه يبتكر نفسه من جديد. أفرحك من عمق ذاتك طيش جميل واجه دهشةً لتألّات في عيني زوجك. الحياة ليست عبثاً، إنّها تستحق أن تعاش. جذوة الحياة فيك أضاءت وقرّدت على الغياب.

العيد لحظة فرح، مساحة لتراقص الروح أملاً منشوداً علّه يأتي... لبست ثوب الفرحة الأرجواني بدهشة طفلة تأتي عملاً مجنوناً غير مبالية بكلّ المحظورات.

واعتمرت الباروكة بفرح يسابق اللحظات المتراكضة المجنونة لاستقبال العام الجديد حتى لا يتركك العيد خلفه ويمضي... نداء الحياة لم يكن مبهما رأيته يضيء في عيني زوجك ودعوة المدينة ليضمكما عالم من عيد يصل الأرض بالسّماء ويغني للفرح بكل لغات الدّنيا...

## خمسة أقاصيص

محمود الريماوي

### (١) سليم الحلبي

خرج المواطن سليم الحلبي في السابعة والنصف صباحاً من بيته متوجساً وناقماً على ما يحدث في البلاد، فإذا برجلين لا يعرفهما وإن كانت سحنة كل منهما تبدو مألوفة له، ينكبان على فك عجلات سيارته الفيات موديل ١٩٨١. توقع سليم أن يبادر الرجلان بالفرار ما أن سمعا وقع خطواته، لكنهما لدهشته واصلا ما كانا منهمكين به، وهو ما أثار حنقه بأكثر من سطوتهما على أجزاء سيارته. وقد تمالك أعصابه وسألهما عما يفعلان. فأجاب أحدهما وهو الأقرب إليه منهما، وكان يفك العجلات الأمامية.

تسألني: ماذا نفعل؟ نفعل ما تراه.

هذه سيارتي. قال له.

فأجابه الرجل بصوت خافت كأنها يحدث نفسه: الناس للناس. لو لم نكن بحاجة للعجلات لما أتينا، ولما تجشمتنا عناء فكها.

سليم الحلبي وقد استبد به الغضب ركل الرجل بين ساقيه، لكن هذا تفادي الركلة التي مسّت مسّاً طفيفاً بقماش بنطلونه، وتمكن من الوقوف ودحرجة العجل الى الوراء، ثم هبّ واقفا يحمل مفكاً كبيراً وجهه كالجرّبة الى صدر سليم، وفيما كان يحدق في عيني سليم فقد سأل رفيقه الذي في الخلف: هل أنهيت عملك؟. أجابه هذا بصوت مسموع بأنه تمكن من فك العجلتين ونزع الأضواء

الخلفية وهي جميعاً بحالة سليمة. فقال الرجل الذي في الأمام: نأتي مرة أخرى، ونكمل عملنا. هذا السيد لا يحتاج الى سيارته.

اندفع سليم نحوه وتمكن من شد وثاقه، لكن هذا بقوته الجسمانية المضاعفة أفلت منه، وصرخ بأعلى صوته في وجه سليم: أغرب عن وجهي. أنت لص. أنت عميل. عد الى بيتك.

وبينما لم يمر أحد في الاثناء عبر الزقاق ، فقد تجمّع على صوت الرجل فجأة بضعة شبان، سرعان ما تزايدوا وأخذوا يهتفون وقد أحاطوا بسليم والشرر يتطاير من أعينهم: يا لص يا عميل. لص وعميل ولا تخجل. ثم هتفوا معا وبحرارة : تسقط أميركا.. تسقط تسقط تسقط، تسقط اسرائيل.. تسقط تسقط تسقط، وخلال إطلاق الهاتف تسلل شبّان الى داخل السيارة، وشرعوا بتفكيك أجزاء منها بسرعة واحتراف، بعدما تمكنوا من فتح أبوابها، ولم يُبقوا منها سوى على هيكلها. ثم انسحبوا جميعاً الى حافلة صغيرة حديثة الموديل، كانت بانتظارهم في مدخل الزقاق.

سليم منذ ذلك اليوم لم يذهب الى عمله في المحددة، ولم يعد الى بيته. وثمة من عرفه في صور وتسجيلات التقطت له وتمّ بثّها، وهو ملثم بكوفية ويمتشق سلاحاً.

## (٢) حياة رخيصة

العبد وقد ضاقت الدائرة على سيده الذي ابتلي بالأمراض والسهاد وانعدام الشهية الى الطعام والشراب بعدما ثار الناس عليه، وأحاطوا بأسوار القصر إحاطة السوار بالمعصم، وقرعوا بوابته قرعاً شديداً.

...العبد وقد حدث ما حدث من حدثٍ جلل، التمس من / إلى سيده أن يفك قيده لبعض الوقت، كي يتسنى له امتشاق السلاح دفاعاً عن سيده الأبدي، وقصره. سيده حاضر البديهة أجاب على التوب بأنه سيفعل ذلك على الرحب والسعة، وأنه سينقل القيد من يدي العبد الى قدميه، مع توسيع دائرة القيد بما يُمكن عبده الحبيب من الزحف المريح. أمام هذه المفاجأة السارة ( التي إن دلت على شيء، فإنما تدل على ..) أمام ذلك انكبّ العبد على قدمي السيد الرئيس يوسعهما تقبيلاً ودموع الفرحة تغسل قدمي سيده، وهو يهتف: لو أصابك ضرٌّ يا سيدي، لو نالت منك العوام والدهماء لا قدّر المولى، فلسوف أحرم وأبنائي من الحرية الى الأبد.

ولم تمض سوى ساعة أو بضع ساعة حتى خرّ العبد صريعاً عند أسوار القصر، ولم يرفع أحدٌ جثته من هناك، لكن صورته تناسلت في هيئة عيدٍ ثانٍ سارع للامتثال بين يدي السيد الرئيس، ملتمساً الإذن له بأن يفتدي سيده بحياته الرخيصة، وشفاعته في ذلك أنه لا يملك من متاع الدنيا شيئاً سواها..



### (٣) السيد والعبد

وقف العبد فوق جثة أمه الساخنة التي قتلها سيده هذا الصباح بمسدس كاتم للصوت، وأنبأ العبد سيده بنبرة مفعمة بالتأثر الشديد، أنه شديد القلق على صحة الطفل المُكْرَم ابن سيده، بعد ما تناهى الى علمه أن سيده الصغير مُصابٌ بزكام. فطمأنه السيد الكبير أن صحة السيد الصغير في تحسن، وأن الرجل الصغير يشكو فقط من انحراف في مزاجه ، وسوف يتحسن مزاجه بعد قليل حين يتمكن من اصطياذ ققط وكلاب صغيرة في الحديقة بمسدسه الذهبي. فتبسم العبد مثبياً على الروح المرحة لسيدة الصغير، وعلى ذكائه الموروث.. ثم طلب السيد من العبد أن يسارع لتنظيف المكان من الدم، والتخلص من أشياء زائدة في المكان، فهز العبد رأسه قائلاً: هذا هو ما انتوي فعله الآن سيدي. فُسّر السيد لذلك سرورا غامراً، وحَدَّث نفسه بأن الحياة في القرن الحادي والعشرين وبدون وجود عبيد شديدة الصعوبة، وحمد المولى أنه يتوافر على عبدٍ ممتاز، نَشِط، متوقد الذهن، ذرب اللسان، مرفوع الرأس، مهيب الجانب وموفور الكرامة.

### (٤) طعم طفولتها

في طريقها للعودة الى البيت من مشوار تسوق قصير، تستوقف الأم الشابة البائع، وتشتري منه عود حلوى "شعر بنات" زهري اللون لطفلتها ذات الأعوام الأربعة.

تنفد البائع المصري الذي يتوقف عن العزف على الأداة الموسيقية الصغيرة في يده ، خلال عملية البيع والشراء. وسرعان ما تطلب واحدة أخرى، عوداً آخر. الصغيرة تهتف مُتهللة بكرم أمها الفائض.

الأم اشترت العود الثاني لها وليس لطفلتها، لكن هذه سارعت لاختطاف الحلوى السّكرية الهشّة.

تطلب الأم عوداً ثالثاً لا تُمدّ الصغيرة ذراعها نحوه.

البائع أسعده بيع ثلاثة أعواد لا واحداً، وما إن تقاضى الثمن حتى عاد يضع المولوديكاً أداته الموسيقية الصغيرة التي تشبه قالب شكلاتة مستطيلاً في فمه، ويصدق بها.

الأم تحمل العود وتفاجأ بمدى خفته حتى يكاد يكون بلا وزن، تلتفتت حولها ولا تصادف أحداً قريباً منها، فتسارع لالتهام شعر البنات. وسرعان ما يذوب السكر المنفوش الملون في فمها. قضمه قضمات ثلاث قضمات.. يذوب وتفرغ منه . تتنبه الى اصطباغ فم طفلتها بلون مزيج من البني والأصفر، فتتحني عليها وتمسح فمها بمنديل ورقي أبيض لكن بعض اللون قد زال وليس كله. تمسح

فمها هي بقلق وعصبية. أما طعم شعر البنات في فمها فهو حلو شديد الحلاوة، وبنكهة لا تتوافر في سواه، لكنه يُخَلَّف في الفم.. في فمها طعماً أقرب للمرارة.  
.. طعم طفولتها التي ذابت، وكأنها لم تكن.

### ( ٥ ) ثلاثة دنانير

الشاب العشريني ذو السمات "العادي" والهيئة الطبيعية، والذي تنبىء هيئته بانتسابه الى شريحة تقع بين محدودي الدخل ومتوسطه، دخل الى الحانوت في ساعة الظهر بخطى واثقة، ولم يكن هناك زبائن في المكان، وتوجّه من فوره الى التاجر طالباً برأس مرفوعة وصوت ثابت ومسموع: أعطني ثلاثة دنانير.

صاحب الحانوت، وقد تملكته المفاجأة سأل الشاب: لماذا تريد الدنانير الثلاثة مني؟.

الشاب: أريد أن آخذ إبرة (حقنة).

التاجر: الله يبعثلك.

الشاب : ماذا قلت؟.

التاجر: الله يعطيك.

الشاب، وقد ارتجّ عليه ردّ غاضباً: هل تراني أشحد منك حتى تجيبني بهذا الجواب؟.

التاجر لم يفهم شيئاً ولم يجب، فيما اكتفى الشاب باحتجاجه وقد اشتد عليه غضب مكتوم، وغادر منتصب القامة. لم تضرب خطواته ولم يلتفت الى الوراء، أو يخطىء طريقه الى الخارج.

## يوميات الحرب: كم حرباً نحتاج حتى نحفظ «معجم البلدان»!!

رائد وحش

تم إسقاط أرقام اليوم والشهر والسنة بشكل مقصود،  
فكلما عددناها أخطأنا من فرط التشابه.

... /... /...

والحرب، مثلاً، مواعدهُ الأمِّ في منطقةٍ محايدة.  
والحرب، مثلاً، أن تكون هناك "هيلين"، وإلا ما الفائدة؟  
والحرب، مثلاً، أن تحبل البنت من الأعداء.  
والحرب، مثلاً، انتهازُ الأختِ فرصةَ القصف لعناق أخيها القاسي.  
والحرب، مثلاً، أن نُعلِّل البكاءً بأغنية.

... /... /...

الشُّعر أن تكون في «طروادة»، وليس جلوسك على الشواطئ تتسقط أخبار المحاربين.  
الشَّاعر من وقف بوجه فيكتور راكباً أو راجلاً، أو هو فيكتور نفسه. الشاعر صاحب السهم الذي  
أصاب عقب آخيل، أو هو آخيل نفسه.

القصيدة حياة من هزم الموت، ثم سخر من السيرينيات، ثم فقأ عين السيكلوب الأعور، لا من عاش  
ليستبدل عماءه بشلل ألسنة الأبطال العائدين لكي لا يجدوا ما يروونه، فقد سُرقت منهم الحكاية.

لكنْ حقاً ماذا لو لم تكن هناك «طروادة» أو «إيثاكا»، فيكتور أو أخيل أو أوديسيوس؟؟ ماذا لو أن هوميروس هو من فعل كل ذلك، ولأننا لم نجد له اسماً سمّيناه قصيدة؟

... /... /...

الحروب تزلزل الجغرافيا حين تنقل أنأى الدساكر والقرى من هامشها لتنازع كبرى العواصم السياسية والاقتصادية..

في ٢٠٠٣ حفظنا قرى الجنوب العراقي: أم القصر، الفاو..

الأمر نفسه حدث في ٢٠٠٦ مع قرى الجنوب اللبناني: عيترون، مارون الراس، عيتا الشعب، بنت جبيل..

أما فلسطين التي لا تستريح فباتت شبه محفوظة، غزة، كنموذج، حُفظت حتى حاراتها..

ثم عرفنا ليبيا، قرية قرية، بلدة بلدة، مدينة مدينة.

بالنسبة لي أعدتُ اكتشاف سوريا من جديد، فعرفتُ أسماء بلدات وقرى للمرة الأولى، مع أني لم أغادر البلد إلى أمكنة أخرى تعيق اكتشاف المكان الأول: تلبيسة، البيضاء، كفر نبل، الحولة، بنش، تفتناز..

كم حرباً نحتاج حتى نحفظ «معجم البلدان» يا يا قوت الحموي..؟؟

... /... /...

مطرٌ أَيْتَهَا السَّمَاء

لِلوَجْهِ الصَّغِيرِ.

مَطْرٌ.. مَطْرٌ

وإلّا ضاع بين الأنقاض.

... /... /...

الإسلاميون ينقبونها.. وربما "يثقّبون الوصاوص للعيون"..

الشعبويون يُلبسونها الجلباب طويلاً وفضفاضاً..

العلمانيون يريدونها بالتنورة القصيرة..

لكن الحرية تأتي إلا أن تكون عارية..

... /... /...

يقولون إن الغراب يغيب منتصف السنة لأنه يذهب إلى الجحيم كي يدفع نصف ريشه راتباً

للسيطان. يقولون ذلك وليس فيهم من يبالي بالريش الأسود الذي يكسو ظهورنا!!

... /... /...

إذا كان الذهب سرّ «أولدورادو»، والفضة اسم «بوتوسي» عند الهنود الحمر. وإذا كانت آلهة الحكمة متجسّدة في أثينا، بحيث أصبحت المدينة معادلاً ثقافياً للفلسفة وإبداعات العقل.

وإذا كانت بغداد مولوداً من حريق، لأن أبا جعفر المنصور لم يفهم تصميمها إلا حين أحرق مهندسوها ارتساماتها ليلاً بينما هو على التل يقرأ خريطة النار، وبسبب حريقها الأول لم تتوقف عن الاحتراق في تاريخها اللاحق.

وإذا كانت القدس قد احتاجت أن تكون في قلب كبرى صراعات التاريخ حتى استطاعت، من أرضها ومكانها، منافسة السماء رفعةً وسمواً.

وإذا كانت بيروت معقلاً للحالمين بتغيير العالم وصنع الفجر العربي الجديد.

إذا كان كل ذلك لكل المدن كي تكون، فإن قابلية حمص للأسطورة كبيرة، بل لعلها من أكثر مدن عصرنا التي ترشّح نفسها درة للمدن الأسطورية، وإذا كان كثيرون يرون أن المدينة تأخرت في صناعة أسطورتها أسوأً بالمدن الأسطورية فهذا يعني أن حمص لم تقنعهم بوصفها عاصمة النكتة العالمية، أو بوصفها معقل النساء الجميلات.. أسطورة حمص البسيطة أنها لا تريد أن تكون أسطورة.

... /... /...

مع هذه اللحية هو واثق أنه سيفوز بالانتخابات..

لحيته مشروعه السياسي، لحيته بيانه.

... /... /...

أجلس إلى الطاولة التي نجلس إليها عادةً وأكتب..

طريق المدينة مقطوعة. «انقربتُ في البيت» كما يقول جاري. آخر مرة كنتُ فيها بدمشق انتبهتُ إلى حزن الأرصفة، وأخذتني سيالة الهواجس إلى الإقرار بأن هذه الأرصفة لن تعرف فرحاً إلا إذا مَشَّيتها. ضعي بين أسباب مجيئك فكرة تأهيل أرصفة دمشق. عادةً نرى ورشات البلدية تبلط وتزفت تحت عبارة «إعادة تأهيل». الآن الشوارع خالية إلا من ناقلات الجنود، والإسفلت تالف بسبب جنازير الدبابات.. تعالي مشوراً واحداً فقط، مشوراً من أجل إعادة تأهيل الأرصفة بالخطأ.

... /... /...

لحظة كتابتي تُزامنُ موتَ آخرين. عما قليلٍ نرى ذلك الموت في مقاطع فيديو على الإنترنت. عما قليلٍ نشم في الهواء روائح القبور الجماعية. حبي فائضٌ عن حاجة هذا الأسي. حياتي فائضةٌ عن حاجة هذا الموت. لماذا لا يجد الحب من يصوره..؟ لماذا لا تجد الحياة من ينشر أخبارها..؟ عالمٌ زائلٌ إذا، هذا الذي يعاف أخبار الحياة.

... /... /...

يصبح الديك. لا يزال بمقدور الديكة إعلان النهار..!!  
كلّما خيم الليل علينا وبدأ بفرد تشكيلته الواسعة من القذائف والقنابل والحمم قُلْنَا لعلّه يومنا الأخير..!! فجأةً تُعلنُ الديكة الحياة، فجأةً تعلنُنّا..!  
أكرهها؛ وظيفة الديك الذكورية، لكنّ شهامته في إيقاظ الشّمس تجعله ضرورةً. في الحرب نحتاج إلى الديك البلديّ احتياجنا إلى الخبز والماء والكهرباء والدواء.  
وحدهُ يعلن توقّف القصف. وحدهُ الرّبُّ مقيم العدل، لو مدّة شروق شمس.

... /... /...

بين أخطر ما حدث في هذا العصف أن علاقتي بـ"لولو الصغيرة" صارت هاتفية.

... /... /...

أمام ما نراه من تبرير المثقفين لتوجهات وأفكار الإسلاميين والسلفيين والتكفيريين... أتخيّل وزارة الثقافة المستقبلية مجرد مكتب ملحق بوزارة الأوقاف المستقبلية.

... /... /...

هناك رواية لكاتب فلسطيني تحكي عن مخيم "خان الشيخ" في بداياته، لاسيما حينما طيّرت عاصفة عاتية خيام اللاجئين إلى الهباء.

أكثر ما أعجبني في هذه الرواية عنوانها: "مخيم في الريح"، لأنه ليس مجرد عنوان بل تميمة...!!

... /... /...

غريبٌ كمدينة مدمّرة، وحيدٌ مثل ليلٍ.

وحزين كالليل في تلك المدينة..

... /... /...

رجلٌ تفوح منه رائحة فراق. رجل آخر يعطّر الشارع بعبق الوحدة. طفل يركض وتهبُّ منه عاصفة يثّم. وفي الأعلى، في فضاء الروائح، يستعد المكان للتسمّم.

... /... /...

لا أحسد أحداً إلا الشخصية الرئيسية في فيلم "لائحة شندلر". أنقذ المئات من المحرقة، بينما نقود المئات إلى المحارق.

... /... /...

الصغيرة التي نامت على نشرة الأخبار، وجدوها مدفونة في ضريح من المكعبات الملونة.

... /... /...

منذ «جلجامش» و«كتاب الموتى الفرعوني» و«تموز»... والموت فكرة عظيمة، فكرة تعاضت إلى هذا الحد حتى تكون الحياة عظيمة إلى هذا الحد وأكثر.

الموت أضحى الحياة الشقيقتي، لا عدوها..

الموت معنى يتممها ويوازئها، لا نقيض يزيج أساسات أساساتها.

هذا الموت طبيعي كالحياة، حقيقي مثلها، ويقف معها الآن ضد ذلك الموت المؤبلس بالاستبداد..

... /... /...

الصباح: حمّام كثير، وسلام قليل.

... /... /...

ولأنه لا بد من حب لإيقاف خلل المعنى الذي تواصل الحرب تأجيجه، ابحت عمّن وجدوا حباً لا تجده، اذهب إلى بيت العاشقين الصغير، وحين تراه ثالث الاثنين فكّر كم أنت غريب في هذا العالم وفيك...!!

قد يبدو بيتهما فكرة هامشية أمام سباق الموت المفتوح، وحث الخطى والمصائر إلى الهاوية، لكن قدرة قلبيهما على إبداع غدٍ أبيض، في طبخة بسيطة أو مشوار فقير، تربك كم أنت والعالم غريبان في العالم وفيكما...!!

ليس العاشقان في بيتهما، فالعاشقان هما البيت، ولن يباليا بالنزوح أو الحصار ما دام الحب قابلاً للترحيل. ولن يفكرا بالنجاة إلا لبقيا معاً، كما لن يفكرا بالموت إلا ليمضيا معاً.

لا أفكر بشيء سوى دعوة العالم للسكنى في بيت العاشقين الصغير. نعم سأفعلها بكل تأكيد، لكن عندما أجد بيت العاشقين الصغير..!

... /... /...

أنا مخيم. أبدأ بمقبرة وأنتهي بمقبرة.

في ست مدارس رغم ذلك الأميون أكثر من المتعلمين.  
في مستوصفان يوزعان الدواء مجاناً لذا جميع سكاني مرضى.  
وجهي بلوك، بشرتي بقايا إسفلت ورمل وتراب، فالإقامة في الحارات كعرف معيشة، والخطوات  
الحثيثة تمحو طموح طريقي في العمر الطويل.  
أنا مخيم أبداً بمقبرة وأنتهي بمقبرة وعمّا قليل سأملأ الفراغ بينهما، لأكون مخيم نفسي، لا مخيم  
سواي.

... /... /...

هذا هو النهار الموصوف في مواضيع الإنشاء المدرسية: شمس قوية تمزق الغيم، ودفء يعيد نضارة البيوت.  
هذا هو النهار الذي يحبه الأطفال لأنه يمكنهم من أولى مهارات العروض فينشدونه على هذا المنوال:  
"صباح جميل  
نسيم عليل.."

هذا هو النهار الذي يعيد شهامة الطبيعة في عطفها على ابنها الإنسان، ليعيد ترتيب علاقته المختلة  
مع الكون بالبر والإحسان.  
هذا هو النهار المنتظر لولا النيران التي هي نيران كل نهار.

... /... /...

ما كنت لأتوانى عن إبادة الهنود الحمر، أو استعباد الأفارقة. ولا كنت لأتردد عن ارتكاب مجزرة  
حلبجة أو صبرا وشاتيلا، أو أي من الجرائم التاريخية ضد الإنسانية في دارفور والصومال وغزة..  
وسوريا بلا شك.

جاهزٌ ومستعدٌ لإعلان حرب المئة عام، والحربين العالميتين، وحرب الخليج، وحروب لبنان..  
والحرب الباردة أيضاً..

جاهزٌ لفعل الخراب، كل الخراب، مقابل أضال احتمال لوجود هيلين واحدة...

... /... /...

لا يسمح غياب الغاز بفنجان قهوة يجعلك تعيد لحظة محمود درويش. ولا يسمح غياب الكهرباء  
بابتكار بديل غير السحان.

لا بد من قهوة ليتوقف غرور الطائفة، لا بد من قهوة ليتوقف خوف البيت..!  
القهوة خلاص في الوصفة الدرويشية. وضع حد لخطرسة الموت التي لا تعترف بحد. والقهوة لغة



واضحاً في برج بابل الذي يخلقه القصف، وتفكيرٍ سديدٍ في المهاتمة التي يشيدها الرب. بعيونِ البال تضع ركوةً على نارٍ في البال، وتركها تندلقُ وتندلقُ كما يشاء غليانها، وحين يمتلئ البال برائحةِ البنِّ المحروق تشربها شمماً ليرتاح البال.

... /... /...

لا يجب أن تبقى وحيداً. في الحرب تحتاج إلى مجالسة الآخرين طوال أربع وعشرين ساعة. لا مجال للعزلة. المعزول محكومٌ بالإعدام الميدياني نحرأً بالهواجس.

في اللحظة التي تجد نفسك فيها وحيداً ستظنُّ أصوات الصَّبِيَّةِ في الحارةِ ثرثراتِ عساكرِ قادمين لاقتحام البيت. ستصبح حشرة الجار، أو شخير الجار الآخر، مكبرات صوت لإخلاء المنطقة. ستظنُّ انفتاح الأبواب رصاصاً، والخطوات العابرة، بينما تتناهى بشكلها العادي من الشارع، أناساً يهربون. لا تبق وحيداً، الوحدة هزيمة.

في الوحدة ستجد أنك تعدّ القذائف، وأنت تعرف جيداً بأن أول خطأ في العد هو انتهاء حياتك.

... /... /...

محاولات المصور لأخذ صورة لجواز سفري باءت بالفشل.

كل مرة يخرجُ الوجه بلا عينين، وكلما شاهدتُ وجهي هلعتُ أكثرَ ففشلتِ الصورُ أكثر. صرتُ رهينةً لدى كاميرا لا تفهم استحالة تصوير عينين خائفتين.

... /... /...

"يحيى سيسافر" قالوا.

"فلنذهب لتوديعه"، قلتُ لهم. "فرصة لسهرة تستريح فيها الهواجسُ في الحشد الكبير، الجماعة حاجة ذاتية الآن"، قلتُ لي.

في اليوم التالي رأيتُ بعض السُّمَّارِ المودعين فسألتُ إن كان صاحبنا وصل مبتغاه. ضحكوا وقالوا إنهم منذ سنة يواظبون على حضور سهرة الوداع هذه كل خميس، ويحيى لا يسافر.

يحيى مثلنا يريد حشداً ينسى فيه يحيى.

... /... /...

فرضت الوقائع على السوريين اجتراح إعلامهم الخاص، فأطلق كل حيِّ صفحة باسمه، ثم صارت، خلال مدة وجيزة، صفحاتٍ حسب الهوية السياسي للمشرفين عليها. وخلال سنتين من العمر الدامي لسورية استطاعت هذه الصفحات أن تتحوّل إلى منابر محلية تنقل مجريات الأحداث، وتوثق

يوميات سگانه، وتقدم الإرشادات والنصائح والتوجيهات الأمنية. ولعل الاختلاف كان في انقسام هذه الصفحات بين عنوانين عريضين: «تسقيية» و«شبكة». بحيث لا يخفى التّضارب والتناقض في رؤية الخبر، كما لا تخفى النبرة العدائية بينهما، وهو انقسام ينتمي إلى الانقسام الأساسي الحاصل على الأرض وفي الواقع. فكما ساهمت هذه الصفحات في توضيح الوقائع واستجلائها ساهمت بالقدر ذاته في التشويش والإربكاك. لكنها، وخلال هذا كله، كانت تقول لنا، هكذا كان المشهد.

التاريخ السوري موجود في كلّ هذه الفوضى، في كلّ هذا الضباب، في صدقه أو كذبه، في جودته أو ركاكته. وهذه الصفحات، أياً كان الرأي الراهن بها، هي سردية محلية واكبت الأمل والتّزييف ولن يكون بمقدار مؤرخ المستقبل أن يتجاهلها.

... /... /...

أعرف "نهر عيشة" قبل أن يزيل "أتوتسترد درعا" أكثر من نصفها. أعرفها بما أزيل منها وبما بقي. مشهدها العاديّ الذي يراه الآخرون لم يكن يوماً المشهد نفسه فيّ، فلطالما كانت عيوني تصر على مشاهدة الغائب في الحاضر، الزائل في الباقي، منذ كانت بساتين لا أعرفها إلا من خلال أشجار يتيمة، إلى أن صارت خياماً طابقيّة من الإسمنت أعرفها جيداً جيداً.

لا أدري إن كنتُ سأعرفها بعد ما يزال الآن منها، ذلك أنه يزيل فوق ما يزيل من الحاضر كثيراً من ماضٍ سريّ لا يعرفه إلا من خبروا وجع العشوائيات.

... /... /...

شاقّة هي الطريق إلى مدينة «واو»، «وطن الرؤى السماوية» لدى طوارق الصّحراء الكبرى. وعلى ذمة إبراهيم الكوني تتدخّل الأسطورة لتسيير رحلة الأب والابن إلى وطن الحقيقة والطهارة حسب أصول ناموس أهل البادية. فلا يتمّ السّفَر دون التهام ثمرة الترفاس (الكماة)، ولكن ليس أي ترفاسة نابتة في الرمال، لأن هذه الفاكهة لن تصلح باصاً إلى الوطن إلا إذا كانت معضوطة بنبيّ أفعى قاتلة.. في قصّة الكوني عيون الأب المنطفئة بعد القضمة الأولى خاطبت عيون الابن الذي يأخذ حصته: الآن بدأت الرحلة إلى «واو».. توضيح لكلمة الترفاس

في رواية «باب الشمس» يجلب يونس الأسدي، خلال تسلله من لبنان إلى فلسطين، كيساً من برتقال البلاد.. وفي الفيلم المأخوذ عن الرواية يفتتح المخرج العمل بمشهد وليمة البرتقال، حيث يأكل يونس والدكتور خليل وأم حسن بنهم حيواني، حتى أنهم يكومون تلة من القشور، بينما يونس يقول: بدنا نوكل فلسطين كلها..

كلا المشهدين اللذين ينطلقان من الأكل يحيلان إلى الموت.. الموت كطريق إلى الوطن الأسطوري بنبتة مسمومة جرياً على ناموس قبليّ، والموت تخمّة بثمرات أرض الوطن الضائع..

بالنسبة للموت العاصف بشوارعنا اليوم إلى أي نوع من أنواع الأكل يحيل؟؟

... /... /...

لم تلد سوريا أطفالاً،

الأطفال ولدوها.

... /... /...

الحمامة السيتية الواقعة باطمئنان فوق قبة مقام "ابن عربي" هي التَّظَام، حبيبةُ الشيخ الأكبر.

الحبيباتُ، فقط في دمشق، يصرن حماماً على المآذن والقباب.

... /... /...

لتعرف كيف يفكر النظام السوري ترقّب مناسبة وطنية، كيوم الأرض مثلاً، وسترى كيف أن كل ما

يذهب إلى الجبهة ليس سوى سيارات الإسعاف.

... /... /...

ولكم قصدنا «دوما» لأكل لحم الجمل! ولكم سعينا إلى «الميدان» لنستدفئ في الشتويات بأكلة

«مقادم»! ولكم ذهبنا إلى «المزة» لنعود بسحاحير الصبارة، كل «كوز» يُنبث في القلب «مزة»، وكلّ

«مزة» تُنبث في القلب شاماً!

ولكم التهمنا النسائم في «الزبداني»، لتتبدل الروح القديمة عقب ولائم الهواء روحاً جديدة! ولكم

ابتلعت بيوتنا من حجارة «رنكوس» رخاماً تطيب به السكنى، ويطمئن به الساكنون!

لكم أكلنا البلاد...! فما الضير إن أكلت منا البلاد يوماً..؟

... /... /...

أعدت "كفرنبل" الوهج إلى فكرة الجماهير حين رفع أهلها خلاصاتِ الخلاصاتِ على ورقٍ في

وجه العاصفة.

سخرنا من العالم كأطفال مشاغبين. رفضوا بروح الشباب الذي يعرف ماذا يريد. لعنوا بلغة تليق

باللغات.

لم يلتفتوا إلى معنى ناجز بل أنجزوا معنى طازجاً، معناهم ومعنانا. ولم يركنوا إلى وصفة جاهزة بل

اخترعوها وكأنهم عيادة هذا البلد المريض.

فعلوا المعجزة التي لا يفعلها إلا الناس العاديون، لكي لا يبقى هناك أكاديميون يلحقون قدم السلطان،

ولكي لا تنجح الفضائيات الأكبر من مساحة دولها على جعل دولة أحلامهم تصغر كتلك الدول.

فعلوا ما فعلوه لأنهم يعرفون أن الحقيقة هي الواقع، لا الواقع كما هو.. فما جدوى الثورة إذا؟ بل الواقع كما يجب أن يكون.

كان لا بد من "كفرنبل" لأنه لا بد من حوذبي لعربة سوريا العابرة كالريح فوق هذه البرازخ. /... /... /...

هل المخيم مكان فضولي؟ أتساءل لأن الاشتباك الذي يدور منذ الصباح على الشارع العام، أول المخيم، لم يمنع الأهالي من التجمهر على طول الطريق، وعلى سطوح المنازل، ليراقبوا النار ويعدوا صليات الرصاص ويتباروا في تسمية الآليات العسكرية.

أهو فضول أم طيش؟

العساكر أطلقوا أكثر من مرة باتجاه الناس لتفريقهم، فالبعض لم يبق أمامهم إلا أن يقعدوا فوق الدبابة. علمتنا صفحات الإنترنت طرق السلامة، التلفزيونات لم تتوقف عن بث الإرشادات، القادمون من المناطق المنكوبة حملوا خبراتهم في الوقاية إلينا، لكن أهل المخيم بدوا غير مباليين بشيء من هذا، فالكبار والصغار، الرجال والنساء، كلهم في الخارج على مقربة من المعركة، لا يفعلون شيئاً سوى النظر بكرهية إلى الجنود والضباط، بطريقة لا تحتاج إلى ترجمة.

حاولت أن أسأل أكثر من شخص وشخص عما يفعلون هنا؟ الكل أجابوا إنهم هنا لأن الآخرين هنا، مع ذلك حين عاد بعض الآخرين لم يعد بعض آخر الآخرين، ليستقيم التعليل بأنها مجرد عدوى. يقال إنهم في غزة على هذا الحال. ربما كان الفضول مرضاً فلسطينياً، أعراضه الواضحة الذهاب إلى الموت قبل أن يأتي..!

المخيم مكان فضولي؛ لأن العيون مادة صناعته الأولى.

... /... /...

هل أنا مختبئ في بيت صديقي؟

لماذا أسمع صوت أمي تناديني إلى الفطور؟ لماذا يصلني سعال أبي خارجاً إلى الوظيفة؟

لماذا أسمع الانفجارات ذاتها، من المدافع ذاتها؟

يقولون: كلنا تحت سماء واحدة، وأقول: السماوات كثيرة جداً، الموت فقط واحد..!

هل أنا مختبئ في بيت صديقي البعيد؟ ولكن أين صديقي.. أين؟

البيت يتراءى بيوت آخرين حين لا تجد مخبأ..!

## حصاة مهملة

شعر: مريم الحيدري

إن كنت في وضع سيء  
ولا يروك أن تداعب الطفل الذي يولد من بين شفتي  
ويقف حائرا في الفضاء ينظر إليك كأنك غراب صغير  
ولا يجروُ على الاقتراب منه..  
ساعة ترغب في الطيران نحوك عاصفيري اليتيمة  
وأنت على بعد خطوة  
فاجثني بإيماءة  
وارم نحوي حصاة مهملة لأيام أمام العتبة  
هي التي تشبهك حين تكون كئيبا ويُشفق عليك  
تتجمد فوق كنبه شاحبة  
تتمنى أن تكون ورقة خاوية فوق الرفوف التي تراها، هنا، كل يوم  
رغم ذلك سيخطر ببالي، مرة، أن أكتب شيئا ما  
وبتعجل غيرمكترث أجذك  
ويخطر ببالي أن أسلم أهدابك التي تخفق بجنون  
إلى الهواء البارد الذي لا ذاكرة له

يهب من فتحة في أعلى الجدار رافعا سياطه أمام ظهري  
وأنت فوق تلك الكنبه الشاحبه  
لست دافئا حتى بحجم محارة صغيرة  
لتشتهيك إناث يختبئن تحت سرتي  
يرغبن في فتح ستارة من الستائر الثلاث في الغرفة المجاورة  
أو السير على طرق زلقت من بين راحتهن  
وأرجأن أمرها إلى وقت آخر  
نافذة واحدة - وليس في كل وقت - تكفي لأتلهى عنك بالأغصان اليابسة  
ومن شدة كسل يعتري الإناث أحيانا  
لن يفتحها أحد سواك.

### ظهيرة خاوية

بلا غيمة تجرني إليك  
بلا زلزلة تجمعنا  
ويد تجلسنا معا خلف طاولة طويلة بلا أي غطاء  
بلا نجوم "يزد" لأشعر في البعيد بأمان لا تشبه أمانني في الأهواز،  
الآن ويدي تفتقد زغبا في الساعدين مخضبا برائحة النخيل  
العتبات تطير بي إلى جهة غريبة  
وأنا كالمعتاد دائخة أدور في البيت ناسية نصف ما أريد  
أقضي الظهيرة خاوية إلا من بعض ما قال حافظ الشيرازي  
والتنبه إلى قليل من دمه يدور فيك أحيانا.  
تلك الخاوية هي الظهيرة  
ومن تسير بظلال كثيفة في شوارع هذه المدينة  
وبطنون تتكاثف  
وغيوم من الغيب فوق رأسها لا تبوح بشيء

أنا

أسير قرب حديقة لم تعد تذكرنا  
وأتسرب إلى أعناق رجال  
أحبهم من أول نظرة  
وأنساهم خلال دقائق في برد طهران  
وفي ما يخزني كل لحظة عندما أتمشى على الأرصفة ولا أراك.  
من تنسى في كل الأحوال

أنا

أما أنت.. فتذكّر  
ولا تنس أن تدرج نجمة من ذلك البعيد إلى جوفي  
أوغيمة  
إلى  
الغرفة  
تجرني إليك.

### لامبالاة

بنظرتي التي انتشرت في ساعات الصيف  
ثم غابت بين خطى النساء في هذه الحفرة الشاسعة العميقة أمام المحطة،  
ولم تعد لي،  
بجفني المتعرقين  
كنت أراك تحب فتيات لا يشبهنني في أي شيء.

شفتان غليظتان

شعر منفوش

سريعة البكاء

والضحك  
أستمع لأغان لا تعنيك  
وأتمتها  
تحب ذلك ولا تحب...  
وما الحل؟  
ما الحل؟  
ما يهم الآن هو أنك بعيد  
وفي مثل هذا المساء  
يروق لي أن ألتقي بكل الرجال الذين أحب  
وبك.  
اقرأ  
اقرأ هذا الغزل الفارسي الذي لا تحبه  
سوف يبقى يتدلى إلى حلمي  
إن لم تقرأ.

أما أنت  
فتدخن مثل غول غليظ  
فقط...  
إذن  
لّف وواصل التدخين  
واتركني أفتح أبواباً لم تفتحها هؤلاء الفتيات  
وأدخل

## روتين

تخرج ليلاً من مغارة كنت خبأتها في ركن بعيد في داخلي



تفزع القطط التي تموء في أذني ليل نهار  
أغمض عيني في شهوة جاشت قبل وقتها  
ويبتدأ يومٌ آخر  
في الصباح  
تخطر القصيدة التي أنتظر  
تقول إنك تبقى تحرق بي حتى تمام الساعة الرابعة مساءً  
مساءً  
تمرّ المواكب في الشارع  
أنظر نحو المعزّين  
لا تلوّح لي، من بينهم، بملابس سوداء  
جالسٌ في شقوق رأسي  
ترمم شيئاً في المخيلة.

### شوائب ناعمة

كامرأة تكلّي  
أريد أن يمتزج جسدي بمساء رجل يضحك  
طوال الوقت  
ويهيء يداً ليملدها نحو خاصرة  
ستشتعل المصابيح فيها بعد حين  
اصبعا تلو اصبع  
ذات غروب  
في مدينة نائية  
على سلام  
هي الوحيدة كشفت شوائب ناعمة  
على مهل تسير

في دم فتاة لا تفي وعدا إلا في المدن النائبة  
لربما عرفتم أن الفتاة،  
الآن،  
كبرت قليلا  
وانتشرت غواياتها في أزقة ملتوية  
أما الضلالة الصفراء الباهتة اللون فما زالت تقطر من ثياب  
تنتظر في الخزانة  
جسدا ضامرا لا يكتثر بماوى  
ولا بمأس

ثمّة رائحة مثيرة للريبة فقط  
تفوح مني  
وأنا أسلك طرقا لن تمر منها  
يادي حبلان ناعمان  
أمدهما نحو صدرك الذي يكاد أن يكون تابوتا مسيجا  
يسكنه الجنّ  
وكثير من الدود  
ونساء يتقنّ السحرَ

تعرفون، أيضا، كم أخاف الجنّ  
والسحر  
والضيّق  
والظلام

...

أكلّ هذا من أجل رائحة مثيرة للريبة فقط؟

## شجرة كقلب مفتوح لا يعمل

أنس أبو رحمة

جديلة

اسمان لي:

في الليل واحد

وفي الصبح واحد

وأنا بين الإسمين

أركضُ منذ ولدت

وأبكي

على قطتي الميثة

\*

كي لا تعرفني الغيمة

أغيّرُ اسمي

كي يضلّ الجنودُ الطريقَ

إلى غرفتي

\*

واسمي

غناء القبرات على الرصيف

أو

الرصيف

\*

واسمي

سيارة مسرعة

تعبرُ المجراتِ إلى جحر فأر

\*

ثلاثة فتران أربي

على سطح منزلنا في المخيم

وأنتِ

أربيك في جسدي

وفي جبتي

خوف الجنود الذين على التل

"قبعاتهم لا تعيش الغزالاتُ فيها"

وخوف أبيك

ينعتني بالصغير

"الذي لم يفس من البيضة بعد"

وأنا

فقسست من البيضة يوم رأيتك

"بجديلتين"

كنت

تعبرين

الشارع

.....

يومها تمنيت لو أكون جديلة"

## ولادة

تُشعلُ الجداتُ الشمع

للولي "ياسين"

\*

الفتى يتسلق الشجرة ليرى الولي في مضجعه

فالجدا ت لا يسمحن للصغار بالدخول إلى

حضرة الشيخ

\*

لا يسمع الولي

شهقات الفتى على الشجرة

ولا غليان الدم في عروق الصغير

من حكايا الجدات - عن الغريب- تخرج من النافذة مع صرير الضوء:

"يحمل قمحا في الجوع ويرش على بكج الفقراء,

يمشي في الليل إلى الإسطبل ويغني للفرس الجرباء,

فتطيب,

ويلقف من يسقط عن جحشته في الوعة

فلا تتفتفت جمجمته"

\*

ترك الفتى يديه وطار عن الغصن

غاب الشيخُ عن الحضرة وتلقفه

لكن الدمَ على جبهته

كان كثيفا

جدتي:

غناؤك  
حطم  
جبهتي  
جدي:  
لكنه أذكى من حلوى الأمهات

### شجرة

لو أنني شجرة  
أو  
قبرة على شجرة  
\*

لو أنني شجرة  
يلونها البول من أسفلها إلى رأسها  
إثر طيور عابرة  
ومجرات  
أو غابة سرو على المنحدر  
تحلم بالمطر  
وتحلم الجنادب بها  
\*

لو أنني شجرة  
يرميها الفتیان بالحصى والعصي  
كي يذوقوا لحمها  
والحليب الذي ينزُّ من قلبها  
ساخنا وطريا  
\*

لا ظل لي  
ولا ثمر  
ولا دموع  
سيقشروني الجنودُ الذين ضلُّوا الطريق إلى الحرب  
فجأعوا  
أنا صرختهم الأخيرة  
وحبلُ نجاتهم  
شجرةٌ  
كقلب مفتوح لا يعمل  
شجرةٌ في لوحة موسيقى  
شجرةٌ فاجرة  
\*

لو أنني شجرة  
لا تعرف وظيفتها  
أو  
قبرةٌ على شجرة

### مناديل

أمامَ سريسة البلدة  
غنتَ الجداتُ قبلَ الحربِ العالميَّةِ الثانيةِ  
" عَ السرييس  
عَ السرييس  
يا شجرة ابعثيلي عريس "  
وربطنَ مناديلهنَّ بفروع الشجرة  
أمي

ربطت مندليها وغنت كي أكبر وأصير سوسنة الليل  
البارحة كنت هناك  
أغني:

"ربي إني وهن القلب مني وسكنته غزالة  
ربي أشكتي عينيها"  
لم أربط مندلا يا أمي

### أغنية البلدة العطشى

"مطر

مطر

مطر

الله"

عشبا نريد لأغنامنا

وسنام.

"مطر

مطر

مطر

الله"

حليبا يريد الطبي

بحيرة يريد الصبي

وعلى التل

شجرة حور

تريد أن تغتسل

بعد ليلة حب مع الكلب.



في ليلة شتاء

مطرٌ.مطرٌ.مطرٌ

\*

أينَ تختبئُ العصافيرُ؟

هذا سؤالٌ يرهقني

وأنا خلفَ الزجاج

\*

أيُّهما يدفئُ أكثرَ:

أن تشرَبَ قدحًا من نبيذ

أو

أن تفكَّرَ بالدفءِ؟

- كلاهُما غيرُ مجدٍ

\*

هل سيسقطُ الثلجُ؟

\*

من غرفتي أراه

ابن جارتنا

يرسم فتاةً على الحائط

ويتركها بلا ألوان

\*

قليلاً من الأزرقِ والرماديِّ

كي لا يصيبَ البردُ

عنقَ الفتاة

قليلاً من الأزرقِ

\*

"أينَ ترحلُ الفراشات؟"

أغنية أرددها

وأنا أمسك العود

\*

لن تأتيَ الليلة

مدرّبةُ العود

تلكَ التي تعلّمني:

كيفَ تولدُ الموسيقى من الخشب

وكيفَ يصيرُ الزجاجُ ملهارةَ العارفين

وكيفَ أصنعُ البيتزا

\*

من أين تأتيَ الموسيقى:

الخشب؟

القلب؟

البيتزا؟

\*

لن تأتيَ الليلةَ مدرّبةُ العود

لا رقصَ بعدَ التاسعة

لا بيتزا

ولا نزهةً مجنونةً تحتَ المطر

\*

الجنودُ يدخلونَ المدينة،

أراهمُ من النافذة

يسرونَ صوبَ بيتِ جارتنا

دَقُّوا الباب

خرجَ الفتى الرسَّام

- ماذا تريدون

- نريدك

- أمهلوني قليلا

ودخلَ يلوُنُ الفتاةَ التي رسمَها على الحائط

### مخاض الزجاج

غزالي

بعيدة

ولغتي

أقصرُ من أن تطولَها

\*

حصيرتي

من قشِّ البصيرةِ نسجتُها

ومن دمِ أُمِّي

على كرسيِّ المرحاض

\*

لوُنُ على لونِ

أغنيتي

مدينتي

ثلاثُ نوافدَ

وشجرة

البارحة

رأيتُكِ على عمودِ الكهرباء  
كنتِ تمصين الضوءَ  
من أجلِ ليلِ إخوتك  
كنتِ تختبئينَ في اللمبة  
كي تذوقِي مخاضَ الزجاج

### عرس

يا فراشة

صدري أُولى بدمِكِ

من ثورِ القنديل

\*

يا فراشة

دمُكِ بضَعُ دمي

احتياطُ أختي من الجلوكوز

لحروبي التي تعوي فجأة:

مشاجرةٌ مع الكلب،

عراكُ بالأيدي مع فتیانِ الحارة على مسدسِ الماء،

وحربٌ مع جنديّ

على كعكةِ بسمسم،

تسمّى وطننا

\*

يا فراشة

دمُكِ يُرضعُ جرحي دمي

ويؤجّلُ موتي

\*

"كانت الحروبُ على بابِ بيتِ الفتى تدقُّ، وعلى البابِ كان كتب:  
من يرُقُّ له بيتنا فليدخلْ آمناً، متى شاء، من البابِ فليدخلْ، أو من النافذة، لكن لا بدَّ من أن تشرحَ  
"أيها الزائر" حذاءك وتتركهُ في الخارج، وما عدا ذلك فليدخلْ معك.  
كلُّ الحروبِ أحبَّتْ بيتَ الفتى، أو دمَه.

أخُتُه الكبرى فكَّرتْ كيفَ تحمي الصغيرَ من السيفِ والقنبلة، لم يكُ في اليدِ غيرُ الزنابق، والبابُ  
متواطئٌ مع زائريه، لم يكُ في اليدِ غيرُ اللونِ وملعقة من حديد. سكبَتِ الفتاةُ اللونَ في ملعقة  
الحديد، وضعتِ الأحمرَ أولاً، وغلتِ اللونَ على المشعل، ثم جرحتُ يدها وسكبتُ من الدمِ على  
الأحمرِ الساخن، وكان عرسٌ، بينَ نارٍ ولونٍ ودم، وخرجتُ فراشةً من رأسِ الفتاة، ومن خشبِ  
الباب، ومن يومها والفراشةُ دمُ الفتى المحفوظُ لجراحه القادمة".

\*

يا فراشة

من يعبر بيتي

يحترق برؤاك



## (تزامن ما لا يتزامن) "ابنة خالتي كونداليزا" لمحمود شقير

د. ابراهيم أبو هشهش\*

١- إذا كانت القصة القصيرة هي الصوت المنفرد ، حسب تعبير كونور؛ أي أنها تعبّر عن حالة العزلة والفردية في المجتمعات الغربية المعاصرة، فإنّ قصص محمود شقير هي صوت مفرد منضفر في صوت الجماعة ووجدانها العام، فوجهة النظر أو زاوية الرؤية قد تبدو فردية إلا أنها ليست أحادية، بمعنى أنها ذات بعد جدلي ينطلق من حضور كثيف للشأن العام منظورا إليه بعين الفرد الذكية المتنبهة المتعاطفة. وهذا أمر له علاقة أساسا بالكاتب نفسه، أي محمود شقير، مثلما أيضًا بالحالة الفلسطينية الاستثنائية من حيث إنها تمثل مجتمعا في حالة سيرورة مستمرة يعيش ظرفا تاريخيا خاصا، ويعاني من وضع شائه فرضته شروط الاحتلال وإكراهاته، بالإضافة إلى ما يمرّ به هذا المجتمع كغيره من المجتمعات البشرية من شروط العولمة وإملاءاتها ودينامياتها الخاصة، حتى ليصحّ القول إنّ قصص محمود شقير تكاد تكون حالة استثنائية فريدة في الأدب الفلسطيني المعاصر في زمن تتسبّد فيه الرواية، بوصفها جنسا أدبيا لا شكل له، أجناس القول الأدبية الأخرى، ممّا يدعم النظرية القائلة بأنّ القصّة القصيرة تزدهر في المجتمعات التي تمرّ في مرحلة من مراحل التحولات العميقة، مثلما ازدهرت القصّة القصيرة في ألمانيا بعد الحرب العالمية الثانية على سبيل المثال، حتى لو كان هذا الازدهار والتميّز على مستوى النوع وليس على مستوى الكم والانتشار، وهو أمر يعطي قصص شقير أهمية خاصة ، فالعبرة ليست في عدد من يمارسون كتابة هذا الجنس الأدبي بل في الفريدة والتميّز والقدرة على لمس نقاط حساسة في وجدان جمعي .

---

\* كاتب وناقد فلسطيني

تتيح قصص مجموعة "ابنة خالتي كونداليزا" طرائق متعددة لمقاربتها، مثلها في ذلك مثل سابقتها أي مجموعة "صورة شاكيرا"، فهما تشتركان في سمات كثيرة، ويمكن النظر إلى بعض قصصهما على أنها متواليات سردية، بل وتكادان معا تقيمان شكلا من أشكال الرواية التجريبية الحداثية، فمجموع قصص المجموعتين يهيمن عليه مناخ سردي متجانس، بالرغم من فريدة كل قصة وتمييزها وإمكان قراءتها باستقلال تام عن أية قصة أخرى، وبالرغم أيضا من اختلاف كل قصة في شخصيتها وأحداثها، إلا أن هناك مصيرا جماعيا مشتركا يسلك جميع هذه القصص في نظام واحد، ويسخ عليها مناخا نفسيا موحد، فهي تجري في فضاء اجتماعي إنساني واحد، وتتضافر جميعها معا في إحداث أثر ذهني وجداني شبيه بالأثر الذي تتركه الرواية في القارئ على وجه العموم.

يسود غالبية قصص هذه المجموعة عالم سردي فانتازي يصور واقعا سورباليا مغربا عن الواقع بدون أن يشعر القارئ أن هذين العالمين شديدا الانفصال، بل إن أحدهما يحيل إلى الآخر، وهذا الانفصال الظاهري بين الفن والواقع هو ما يكسب الفن قوته ودلالته الخاصة في نقد الواقع في رأي أدورنو الذي يرى "أن الأعمال الأدبية الطبيعية تمتاز بقدرتها على نفي الواقع الذي تشير إليه لأنها ليست انعكاسا مباشرا عن النسق الاجتماعي بل إن الفن يؤدي دوره داخل هذا النسق بوصفه مثيرا ينتج نوعا غير مباشر من المعرفة. فدور الأدب يتحقق عن طريق كتابة نصوص تجريبية صعبة وليس بكتابة أعمال نقدية أخلاقية". وقد لا تكون قصص محمود شقير أعمالا صعبة إلا أنها جريئة مجددة خارجة على المألوف في اقتحامها عالم الفانتازيا، والانتقال بين عالم الواقع وعالم الخيال انتقالا سلسا بدون أية غرابة، تماما مثلما يفعل أبطال الحكايات الشعبية الخرافية في انتقالهم السلس بين عالمي الواقع والخيال، وإذا كانت الأغوال والكائنات الخرافية هي الجزء الذي يمثل عالم الخيال في الخرافة الشعبية، فإن رامسفيلد وكونداليزا رايس ونعومي كامبل ورامبو وجورج بوش... إلخ هي العناصر الموازية لها في قصص محمود شقير. صحيح أن هذه شخصيات واقعية تاريخية، ولكنها بعيدة بعدا أسطوريا بمقدار ما كانت حاضرة في كل لحظة في السياسة والإعلام والأخبار، تماما مثل عالم الجن والغيلان والكائنات الخيالية التي كانت حاضرة حضورا قويا في الوجدان الشعبي بالرغم من غيابها المادي عن الواقع. ومن هنا فإن أكبر سمة سردية تميز قصص مجموعة شقير هذه هي سحرها الشبيه بسحر الخرافة الشعبية، فالقارئ يدلف إليها مسحورا دون استغراب مثلما يدلف إلى عالم الخرافة الشعبية حاصلا في نهاية الأمر على نشوة أخاذة لا يحققها سوى المخيال البشري الخلاق، وعلى الرغم من ثقل الواقع الذي تصوره وكأبته إلا أن شعورا بالخفة الجمالية يستولي على القارئ يجعله غارقا في عوالمها مثلما كانت عوالم الخرافات الشعبية تأخذ بألباب الأطفال الذين كانوا يستمعون إليها مروية من الجدات والعمات. فقصص هذه المجموعة تنجو من الوقوع قي



هوة أشكال التعبير والتخييل النمطية بقدر ما تنبثق في الوقت نفسه من عوالم سردية حميمة موروثة سرعان ما تأخذ طريقها إلى إحداث الأثر المقصود ذهنيا ووجدانيا في نفس المتلقي من خلال تأزر عناصرها معا في إحداث هذا الأثر الكلي .

في القصة الأولى المسماة " مشية نعومي كامبل " تتأزر مجموعة من العناصر البنائية كثيفة الدلالة مشكلة معا مناخا سرديا ساخرا يقوم على التورية على المستويين الجزئي والكلي. وربما يفيد هنا التوقف مع هذه القصة بشيء من التفصيل لما فيها من براعة سردية مميّزة ، ولما تحويه من مفاتيح بنائية وثقافية تصلح لقراءة بقية قصص المجموعة في ضوء منها. وقد يكون هذا السبب الذي جعل هذه القصة تصدر بقية القصص، طباعياً على الأقل

جاء في الفقرة الأولى ما نصه :

" رآها أبوها وهي تجتاز البوابة الكبيرة عائدة من الجامعة إلى البيت ، جسدها محشور في بنطال أزرق ، والهاتف النقال على أذنها تتلقى مكاملة جاءتها للتو كما يبدو، وشعرها الطويل الناعم يرف على جبينها وكتفيها . لم يعرف إلا بعد وقت قصير أن بنطالها خلق مشكلة في الحي ، نهلة عرفت أن ثمة مشكلة وقعت من دون قصد مسبق ، كم تكره هذا الحي ! تكرهه لواحد وأربعين سببا ، ( ليس لديها وقت لتوضيح هذه الأسباب ! ) تذهب إلى الجامعة في الصباح ، تجتاز ثلاثة حواجز عسكرية وأحيانا أربعة للوصول إليها ، وبعد الظهر بقليل تغادرها عبر الطريق نفسها التي سلكتها في الصباح ، تتكدس على الحواجز نفسها مع أصناف عديدة من البشر ، تدخل القدس بعد مكابدة مرهقة ، وتتجه مباشرة إلى بيتها الواقع في إحدى ضواحي المدينة ، تشعر أنها تدخل منطقة يتجاور فيها المعقول واللامعقول . " (ص ٥) فعبارة " تشعر أنها تدخل منطقة يتجاور فيها المعقول واللامعقول " من أهم مفاتيح قراءة هذه المجموعة، أما هذه المنطقة التي هذه صفتها فليست سوى مكان مصغر ( مايكروكوزوم ) يختصر دلاليا المجتمع الفلسطيني برمته. وهكذا فإن تجاور الواقع والخيال، أو المعقول واللامعقول يواجه القارئ منذ الصفحة الأولى في المجموعة ليمهد له أجواء بقية القصص ويقوده في تلقيها وقراءتها. فهي قصص تصور مجتمعا يعاني ظرفا استثنائيا خاصا، ولكنه يشترك مع بقية المجتمعات البشرية في كونه يمرّ بحالة عنيفة من مراحل العولمة. وأهم سمة من سمات هذه العولمة التي لم تترك بقعة في الكرة الأرضية دون أن تمسّها هو تزامن اللامتزامن \_ حسب تعبير هارالد مولر \_ صاحب كتاب " تعايش الثقافات " ، فقد وضعت مجريات العولمة ودينامياتها الخاصة التطور الاجتماعي في حالة تسارع مذهلة بحيث نشأت ظروف تزامنت فيها ظواهر وقيم تنتمي إلى حقب اجتماعية تاريخية متباعدة ومتباينة .

تصور القصة أزمة وقعت في ذلك الحي من المدينة الذي يتجاور فيه المعقول واللامعقول أو يتزامن فيه ما ليس متزامنا - كما سنرى - . كادت تتطور إلى مشاجرة قبلية عنيفة تسيل فيها دماء أبناء الحي الواحد . يتصاعد الحدث بعد أن يعلق أزرع الحارة على نهلة الفتاة الجامعية ابنة تاجر الأعلاف الميسور أثناء عودتها من الجامعة وهي ترتدي بنطالها الأزرق وتتحدث في هاتفها الخليوي بأنها تمشي مثل نعومي كامبل، وهنا يتصدى له مهبول الحارة الذي يتوهم أن نهلة تحبّه مثلما يحبها هو فيندلع شجار يتناهى إلى مسامع الأب الذي يرى أنّ في ذلك إهانة لشرف العائلة، فيعقد مجلسا عشائريا يشارك فيه طبيب شاب من العائلة تخرّج حديثا من تركيا، ويقرر الهجوم على عائلة الأزرع. في بداية الأمر يقرر الأب الخروج إليهم راكبًا سيارته المرسيديس الجديدة، إلا أنّه سرعان ما يصرف النظر عن هذه الفكرة خشية أن تتعرض السيارة للضرر جراء الحجارة فيخسر الجولة، فيقرر أن يخرج إليهم راكبًا فرسه وشاهراً سيف الأجداد الذي ظلّ سنوات طويلة معلقاً على جدار المضافة . وهكذا يخرج على رأس قومه - ومن ضمنهم الطبيب - إلا أنّه ينصر بالرعب لأن الشارع كان خالياً من خصومه الذين تحصنوا فوق سطوح منازلهم حاملين الحجارة الثقيلة، فيعدّ الأب ذلك نصراً ويقرر العودة، وهنا تصادفه دورية للجيش (الإسرائيلي) فتوقفه لتوجه إليه بعض الأسئلة، فيضطر لإخفاء السيف تحت ثيابه، غير أن الفرس تواظب على رفع قائمتها وتحريكها مما يجعل السيف يحز في لحم فخذه ذهاباً وإياباً مدمياً إياه ومسبباً له ألماً شديداً، ولكنه لا يجد بداً من السكوت خوفاً من انكشاف أمره، في مشهد تبلغ فيه المفارقة أعلى درجات السخرية ، فيعود إلى بيته دامي الساق في حين يظلّ موضوع نهلة بلباسها ومشيتها وهاتفها معلقاً، بل إنّها أصلاً تواصل حياتها اليومية دون تغيير فتظلّ ملازمة غرفتها وهاتفها الخليوي لا يفارق أذنها غير شاعرة بما يجري بسببها.

كل ما احتوته هذه القصة من عناصر سردية بنائية يجعل من هذه القصة قطعة متفوقة من السرد الساخر بليغ الدلالة على تعرية واقع كاريكاتيري متناقض زائف ، تتزامن فيه قيم ما قبل الحداثة وما بعدها ، فالحي يقع في مدينة إلا أنه محكوم بالقيم والأعراف القبلية ، فهو ليس أكثر من تجمع قبلي في المدينة في حين تغيب المدينة بقوانينها ومؤسساتها وقيمها، والتاجر يقتني فرسا وسيفا ويمتلك سيارة مرسيديس في الوقت نفسه، وابنته تذهب إلى الجامعة على بعد ثلاثة حواجز عسكرية في الذهاب ومثلها في الإياب. وترتدي ملابس حديثة ولا تفارق هاتفها الخليوي. وسيارة المرسيديس تتراجع لتتقدم الفرس والسيف رمزا للمجد والسؤدد والذود عن الحمى إلا أنّهما يغدوان عناصر دونكيشوتية في مواجهة حداثة المحتل وعصريته، بل إن هذا السيف الذي رفع ضدّ أبناء الجلدة الواحدة توجب إخفاؤه وبدلاً من رفعه في وجه المحتل أو العدو المشترك ،

صار يحزّ في اللحم الخاص ويديمه ، ناهيك عن عدم قدرته على حسم الأمر، بل إن نهلة واصلت حياتها ومشيئها ملازمة هاتفها الخلوي، واستطاعت أن تفرّص نفسها وتقتحم اجتماع العشيرة في المضافة بهيئتها الحداثية تاركة الجميع في ذهول وعجز علما أن الاجتماع الذي يشارك فيه الطبيب ظلّ منعقدًا تاريخًا القصة تنفتح على نهاية مشرعة عن انتصار غير معلن للفتاة ذات الجينز الضيق والهاتف النقال على مجتمع ذكوري شائه مزيف جبان، يصدع فيه المثقف الشاب المتعلم بأمر الجاهل العاجز .

وأغلب قصص المجموعة تستدعي في عنواناتها وفي متونها شخصيات عالمية مشهورة ، جعلها السارد جزءًا عاديًا مألوفًا من المشهد الفلسطيني المعوم الذي يختلط فيه الحابل بالنابل ، وتتجاوز فيه قيم العشيرة مع ممارسات ما بعد الحداثية ، بل إنّ السرد نجح في إلغاء المسافة بين هذه الشخصيات العالمية المؤسّرة والواقع . مثلما يلغي السرد في الحكاية الشعبية المسافة بين عالم الواقع وعالم الخيال ، بحيث ينتقل البطل بين العالمين دون دهشة أو استغراب ، فهكذا يصبح رامبو مشهدا خلفيا مألوفًا عاديًا في الحيّ وهو يمتطي حماره القصير في ذهابه وإيابه من بيت الشعر الذي نصبه في طرف الحيّ ليعيش فيه مع زوجته، أو وهو يدور على بيوت الحارة بيتًا بيتًا ويجمع القمامة منها . ومثلما ظهر فجأة يغادر فجأة ولم يترك له من أثر سوى طفل بستة أصابع ولد له من زوجته التي تزوجها سرًا .

أو كما يحضر رامسفيلد وليمة تقليدية في بيت شعر ضرب خصيصا لاستقباله بعد أن لُبي دعوة عم السارد، تقدّم فيه المناسف بينما تغني النسوة في الخلفية في مشهد يجعل جميع العناصر السردية، ومن ضمنها رامسفيلد جزءا من جو شعبي اعتيادي:

ركب رامسفيلد وسافر ع حلب

قدموا له البقلاوة في صحون ذهب

ركب رامسفيلد وسافر ع طوباس

قدموا له البقلاوة في صحون نحاس

ومثلما أصبحت شاكيرا في المجموعة السابقة ( صورة شاكيرا ) فردا من عشيرة كبيرة لمجرد مجانسة لفظية نجمت عن عجمة جندي طارئ، يغدو بابلو عبد الله أيضا بديلا فلسطينيا قوميا لرونالدو المتعجرف الذي رفض تلبية دعوة سائق سيارة الأجرة كاظم علي -بطل قصة " مقعد بابلو عبد الله " التي تمتاز برشاقة سردية خاصة، فكاظم يصر على أن بابلو عبد الله فلسطيني ، ويواجه من يعترض على ذلك بأن لا غرابة في اسم بابلو فهناك نهرو إبراهيم وجيفارا البديري مثلًا. في أحد الأيام

يعود كاظم ليجد زوجته مرتدية شورتا أسود وحذاءً رياضياً وهي تضرب الكرة في مواجهة جدار المنزل، وسرعان ما تنضم إليها ثلاث جارات أخريات ، وهكذا يبدأ اللعب بين رجل واحد وأربع نساء. وعندما تندفع الكرة خارجاً يرفض كاظم أن تخرج زوجته لإحضارها، ويندفع وراءها عائداً بها بينما تبقى النساء الأربع في انتظاره خلف السور. وهي نهاية مفتوحة ولكنها واضحة الدلالة في حين يظل صدى القصة بأحداثها العادية وشخصياتها من بسطاء الناس يتردد في الوجدان مانحاً المتلقي نشوة أو شعوراً بالخفة شبيهاً بالذي تمنحه الحكاية الشعبية الخرافية ، ويجعله يتخفف من ثقل الواقع وكآبته ، وهو دورٌ نقدي للأدب والفن غاية في الأهمية ، فالواقع المتحقق سردياً بما يحدثه من أثرٍ ذهني ووجداني هو واقع آخر مختلف ، مما يدفع المتلقي إلى إعادة التأمل في واقعه الحقيقي من جديد في ضوء وعي تحصل بفعل قوة الفن . أما هذا الانفصال الذي يشعر به القارئ لهذه القصة بين نشوة الأثر الفني وما يحدثه من خفة من جهة ، وثقل الواقع وكآبته من جهة أخرى فهو مثل ذلك الجمال الذي يستشعره القارئ لقصيدة غنائية جميلة حتى لو كان موضوعها مأساوياً ، فالتناسب طردي بين قوة القيم الحياتية والقيم الجمالية التي تولدها ، مثلما أن العلاقة جدلية بين هاتين القيمتين ، فقيم فنية رفيعة من شأنها أن تولد قيماً إنسانية رفيعة أيضاً ، وهذا ما نجحت فيه قصص هذه المجموعة بطريقة بارعة غير مباشرة في إيداعها لهذه العوامل الفانتازية الشعبية الممتعة التي تجعلنا ننقل عن الواقع لكي يتسنى لنا إعادة تأمله وتفحصه والتعرف عليه .

٢- أما الاحتلال الذي كان الخلفية الحاضرة أبداً في كل قصةٍ من قصص هذه المجموعة ، فإنه مع ذلك لم يستطع منع حياة هذه الكائنات السردية مفردة أو بصفتها جزءاً من نسج مجتمعي تاريخي من التدفق والنماء وممارسة مختلف أشكال الحياة البشرية ، إلا أنه مع ذلك لم يكن بدون تأثير ، بل إن تأثيره كان في كثير من الأحيان مدمراً على مستوى المجتمع والأفراد ، لأن واقعاً بهذا التشوه والشذوذ لا بد أن يترك أثره في سلوك الأفراد والجماعة ، بل وفي بناهم السيكولوجية أيضاً ؛ فكثير من الشخصيات القصصية مصابة بهذه الدرجة أو تلك من البارانونيا متمثلة في تضخم الشخصية وشعورها بالعظمة ، أو في شعورها بالملاحقة والاضطهاد والمؤامرة . ومع ذلك فالقارئ لا ينفر من هذه الشخصيات ، لأن السرد قدمها من جانبها الإنساني تقدماً رقيقاً يتضمن تعاطفاً وقبولاً باعتبارها جزءاً من واقعنا الخاص ، فصورة الفلسطيني المنمطة أي كونه إما بطلاً أو ضحية ، التي صارت صورته أيضاً في نظر نفسه، وجدت لها موازاة فنية ساخرة في بعض قصص هذه المجموعة ، وخاصة قصة "الأستاذ مهيوب يتطلع إلى جائزة نوبل" التي تتحدث عن مدرس متقاعد يعد العدة للفوز بجائزة نوبل للسلام، ورصيده في ذلك عدد هائل جداً من التلاميذ يحفظ أسماءهم جميعاً عن ظهر قلب ، ثم ورود اسمه دائماً على صفحات الجرائد المحلية في صكوك الصلح العشائرية ، أما

الملف الذي يحتوي على كل ذلك فيتطاير في الريح جراء تفتيش الجنود له وهكذا تذهب أحلامه أدراج الرياح مع أوراق الملف المبعثرة .

فالأستاذ مهبوب هذا هو الوجه الآخر لعبد السميع بطل قصة " هاجس الفانتوم أيضًا " الذي أصابه وسواس قاهر مدمر بأن طائرات الفانتوم لا بدّ أنها ستقصف بنيته لأن أحد المستأجرين قد أطال لحيته ويمكن أن يستشر اشتباه الاحتلال في أنه أحد الاستشهاديين. وهذان النمطان من البارانويا يمتزجان معًا في شخصية مغني الحي في قصة " ما بعد صورة شاكيراً "، ففي حين أنه متردد من الظهور مع نانسي عجرم في ألبوم غنائيّ مشترك \_ فإنه يحتمل صحفي الحي مسؤولية انطماش شهرته وركودها لأنه يتجاهله في مقالاته ولا يكتب عنه، وينتظر أن تسند إليه وزارة الداخلية التي طال الجدل حولها في التشكيل الوزاري القادم. فهذا المغني يضخ في ذاته الجوفاء انتفاخاً كاذباً تعويضاً عن قزمية إنسانية وإبداعية يبرها هو بنظرية المؤامرة. وفي النهاية تحسم الأمور عائلياً حين يكمن أقاربه للصحفي ويوسعونه ضرباً ثم يعقب ذلك صلح عشائري يكمن بعده أقارب الصحفي للمغني ويطعمونه بدءاً أجبره على التوقف عن الغناء عدة أشهر، فشخص في مستوى نانسي عجرم وعمرو دياب فنيا يتوسل في النهاية أكثر الطرق بدائية لحل مشكلاته، وهي سمة مشتركة في كثير من القصص التي تضع يدها على ضعف مؤسسات المجتمع المدني وغياها في فترة الانتفاضة الثانية التي هي مسرح غالبية هذه القصص. فهو واقع شاذ تغدو فيه السياسة الأمريكية كابوساً فلسطينياً خاصاً، فبطل إحدى هذه القصص يظل متوجساً من جورج بوش لأنه زار العراق في يوم من الأيام ضمن وفد قابل صدام حسين، وهو تشوّه سيكولوجي يقع أثره في القصص على الرجال غالباً في حين تحاول الزوجات \_ بدون جدوى \_ التخفيف من حدته في أزواجهن بدون جدوى \_ كما في \_ هاجس الفانتوم " أو كما في " خلاف على ملح الطعام ". بالذات التي تصل فيها السخرية حدّاً مأساوياً حين يخلي الزوج عبدالودود مطبخه من كل ما من شأنه إثارة شكوك أمريكا بما في ذلك مسحوق الغسيل وملح الطعام ، لأنها قد تعتبر أسلحة كيميائية محتملة.

٣- ومن جهة ثالثة يمكن مقارنة هذه القصص من جهة معمارها الفني، ومكوناتها السردية الخاصة وخاصة لغتها المتقشفة التي تتنازل عن كل درجة من درجات الشعرية لصالح إقامة عالم سردي تقوم الدهشة فيه على البناء والتراكيب وتفاعل العناصر وقوة التخيل ، في حين أن كثيراً من كتاب السرد العرب يقعون في فخ البذخ اللغوي لسدّ ثغرات في أبنيتهم السردية. وهو، أي هذا التقشف، أمر ينطبق أيضاً على مستوى هذه اللغة القريبة من اللغة الشعبية الملائمة لمستوى شخصيات بسيطة ولكنها تغدو أجزاء تركيبية في عالم سردي جذاب ، صحيح إنها شخصيات ذات تكوين بسيط إلا أنها فاعلة في استبطان واقع برتمته وإعادة إدراكه .



## أوراق من الذاكرة







حول السيرة الذاتية لشفيق الحوت (١٩٣٢ - ٢٠٠٧)

## مسار إنسان وأقدار قضية

د. فيصل درّاج

نشر الراحل شفيق الحوت سيرة ذاتية عنوانها : "بين الوطن والمنفى"، في كتاب ضخّم يقع في خمس مئة وخمسين صفحة. والكتاب جدير بالقراءة لسببين: أولهما أنه يدور حول حياة إنسان غير عادي، أعطى حياته للقضية الفلسطينية وحظي باحترام جماعي قصّر عنه كثيرون، وثانيهما أسلوب الكتاب، الذي يتسم بالنزاهة والتواضع وتجنّب الإساءة إلى الآخرين. فلا موضع، في هذه السيرة الذاتية الغنيّة، للزجسية والاحتفاء المريض بالذات، ولا موقع فيها لما يهوّن من شأن الآخرين ويبخسهم حقهم. مارس الراحل، في الحالين، ما يمكن أن يدعى بـ: أخلاق التذكّر، التي توحد بين الحديث عن الذات والالتزام بالقيم الأخلاقية الموضوعية.

حملت السيرة عنواناً فرعياً: "من يافا بدأ المشوار"، الذي يقتفي آثار فرد وأقدار قضية، ويوازي بينهما إلى حدود التطابق والتماهي. وما كلمة "المشوار" إلا إشارة إلى رحلة لازمها التعب، أو إلى تعب مديد جاء به المنفى ورفضه المنفي الذي تمسك بحقه وقاتل من أجله. ينهي شفيق الحوت الفصل الأول من سيرته بالكلمات التالية: "أنا لست عائداً فحسب، بل فلسطين عائدة إليّ أيضاً" ، مذكراً برومانسية محمود درويش الشاب، الذي ألغى المسافة بين الأرض والشاعر. ولعل هذه الإيمانية العالية والنبيلة معاً هي التي تفسّر الذاكرة الخصيبة، التي أخذت بيد الكاتب إلى تفاصيل مدينته وحياته ومنعطفات قضيته، ذلك أن في أخلاق الذاكرة، التي تجمع وتراكم وتربط، صورة عن سلوك إنسان لا يفرط بحقه، على مبعده عن آخرين، يوغلون في "البلاغة الوطنية" ولا يعرفون

عن تاريخ وطنهم شيئاً كثيراً. يقول الراحل في مستهل كتابه: "لو سألتني، قبل اغتصاب "الأرض" عن ذلك الشارع في يافا، الموصل بين بيتي ومدرستي، ....، لوجدتني أوجز إيماء أيجاز، غافلاً عن الكثير من التفاصيل. لكن حاول أن تجربني الآن، لتسمع مني عجباً".

ليس في الذاكرة اليقظة إعلان عن كتاب كثير التفاصيل جدير بالقراءة، بقدر ما هو آية عن وعي وطني مسؤول، فلا هوية بلا ذاكرة، ولا ذاكرة - هوية إلا بمشروع سياسي، يعرف قيمة ما كان والجهد الواجب بذله في سبيله. وهذه العلاقة بين الذاكرة والتمسك بالمقاتل بمواضيعها هي التي قادت شفيق الحوت إلى العمل الوطني الفلسطيني، وأدرجت حياته في مشروع جماعي يحوّل "الحيوات المقاتلة" إلى حياة واحدة. لذا تبدو الذاكرة، في شروط القهر، بديلاً عن الوطن، ويلتبس الحديث عمّا كان بحنين موجع آسر، يعطف تفصيلاً على آخر، ويحاذر ألا ينسى شيئاً، إن استطاع. وهو ما حاول الراحل أن يفعله وهو يصف يافا، التي ولد فيها، بعائلاتها وشوارعها ومدارسها ومعالمها، ومذاق هوائها في جميع الفصول. تكشف محاولة القبض على التفاصيل عن حضور المكان في روح الفلسطيني الذي ولد فيه، وعن جهد في محاربة النسيان والحفاظ على فاعلية الذاكرة.

يتلو الحديث عن مدينة الطفولة حديث عن الرحيل إلى المنفى. ومع أن استرجاع أطراف المكان الراحل يغوي برومانسية واسعة، فإن حس شفيق الحوت النقدي لم يمنعه عن القول: "المؤسف أننا لم نكن ندرك حينئذ أن شعبنا كان من دون قيادة. ولذلك شاعت وراجت قصة الشهيد البطل عبد القادر الحسيني، ... الذي سقط شهيداً". إن التأسف المتأخر على قضية وطنية ليس لها قيادة، هو الذي دفع بالشاب شفيق الحوت، الذي انتقل من يافا إلى بيروت، إلى الالتحاق بعمل وطني منظم يتمتع بـ "قيادة"، وهو الذي جعله يربط، بشكل مضمّر، بين القيادة والاستعداد للتضحية، بعيداً عن رخاوة باهظة ترى في استشهاد قائد وطني "حدثاً مفاجئاً". ولعل إدراك شفيق الحوت لدور القيادة في حركة تحرر وطني، مثل الحركة الفلسطينية، هو الذي أملى عليه، أكثر من مرة، أن ينقد "مظاهر قيادية" في منظمة التحرير لا تأتلف مع الحس السليم. فهو يكتب عن "اضطراب" القيادة الفلسطينية بعد إعلان "وثيقة الاستقلال" في الجزائر عام ١٩٨٨: "لماذا لم تتألف حكومة مؤقتة؟ لا جواب، إلا من إضافة ألقاب جديدة إلى ياسر عرفات وأبو اللطف إلى جانب ما كانا يحملانه من ألقاب. ص: ٤١٢"، كما لو كانت فاعلية القائد الوطني تأتي من ألقابه، أو كانت قيمته الفعلية من تعددية الألقاب التي يسبغها على ذاته. أما في الفصل الذي عنوان "ليلة سقوط طائرة أبو عمار"، فإن اللغة النقدية تصبح أكثر حدة ومباشرة وصرامة: "إن أبو عمار بعد حادثه الطائرة تحوّل إلى شخص آخر، وتزايدت فرديته أضعافاً مضاعفة، ووقع في وهم أنه معصوم، صاحب رؤى، وترعاه عناية إلهية خاصة، كما أنه تماهى مع فلسطين إلى شفير الخلط بين الحقيقة والخيال. ص: ٤٥٦".

قد تبدو هذه اللغة النقدية، في وسط تنظيمي فلسطيني أدمن التكاثره وتبادل الاتهامات، مصطنعة متعمّلة بعيدة عن الموضوعية. بيد أن المنطق العام لكتاب "بين الوطن والمنفى" ينفي هذا الاتهام بفضل "النزاهة النقدية" التي تمتع بها شفيق الحوت، التي علّمته أن النقد واجب وطني وأخلاقي، وأن المسؤول الوطني الفلسطيني الحقيقي يبدأ، فكرياً وممارسةً، من قضية شعبه، لا من ذلك الحسبان الفقير الذي أدمنه كثيرون حوّلوا الثورة إلى طموح فقير، يستأنف عادات سلطوية لا علاقة لها بالثورة. يقول شفيق في الصفحة ٢٨٨ من مذكراته جملاً توجز فلسفته في العمل السياسي الفلسطيني "ذكري الأمر بما كنت أؤمن به دائماً، وهو أن شعب فلسطين أكبر من قاداته على الدوام. وإذا كانت الزعامة ترفاً ورفاهية لدى بعض الشعوب، فمن المؤكد أنها ليست كذلك للفلسطيني. الزعامة الفلسطينية تعني العذاب والتحمل والشقاء والإحباط واحتمالاً دائماً لتهمة "الخيانة"!

قرّر شفيق الحوت في السطور الكثيفة السابقة: حقيقة – مأساة، تتأسى على شعب مقاتل شجاع لم يظفر بقيادة على صورته إلا في لحظات سعيدة عابرة وأشار، ضمناً، إلى لون من "القادة" يصيرون "الكفاح" إلى ترف ورفاهية، ويحوّلون "الكفاح من أجل الرفاهية" إلى قاعدة ذهبية في أزمنة الانهيار. ولعل الانتساب النزيه إلى "شعب كان دائماً أكبر من قيادته" هو الذي أقنع الحوت بالبقاء في بيروت، بعد مجازر صبرا وشاتيلا ودخول الجيش الإسرائيلي إلى بيروت في خريف ١٩٨٢. يستذكر الكاتب تلك الفترة العسيرة فيقول: "أين تلك الأبواب التي كانت مشرعة أمامي لثلث قرن من الزمن؟ من أوصدها؟... أنا نفسي بت أضيق من نفسي، وأتمنى لو تتغير ملامح وجهي وطولي وعرضي. ولماذا لا، وأنا أحمل في جيبتي هوية تنكر نفسي وتقول إني إنسان آخر. فهل من ينكر نفسه يعتبر على الناس إذا انكروه؟ ص: ٢٧٥".

كتب شفيق الحوت عن سطوة العزلة ومرارة التخلي، ولم يشر إلى البطولة، مع أنه كان بطلاً، ولا إلى ما يشبه البطولة، وهو الخائف من وجهه وهويته والخائف على أحلامه، والذي ارتضى بالمطاردة والمخاطرة، ورفض أن يطرق باب أحد. كان في تلك الفترة الحرجة يتحصّن بأحلامه وبأخلاق "القيادة" كما ينبغي أن تكون. يستنهض الأحلام فيقول: "كل أبناء جبلي عاشوا التجربة ذاتها، والحلم نفسه، ونذروا أنفسهم لتحقيقه". ويستذكر صفات القيادة فيكّر: "إن قضية مثل قضيتنا بحاجة إلى إيمان وصبر ونضال أكثر من جيل واثنين من الشباب. ص: ٢٧٤". كان الرجل، خلال احتلال بيروت، قد بلغ الخمسين من عمره، باحثاً عن شباب مفقود يكمل "المشوار"، لا ينسى التجربة ولا يبذّر دروسها كي يمضي في تجربة جديدة.

كتب شفيق الحوت سيرة ذاتية يتمازج فيها الرضى والشجن: الرضا عن مسار إنسان أكثر من الأحلام وعمل على عدم إهانتها، والشجن والتأسي على قضية عادلة، كلما تقدم الزمن تراجع، وكلما

حاولت الوقوف سقطت من جديد، كأن يقول: "هكذا كان حال المنظمة في السبعينات من القرن العشرين. أما أين أصبحت الآن في بداية القرن الحادي والعشرين، فسبحان مغير الأحوال. ص : ١٨٦". لا غرابة أن يستقبل لاحقاً من مناصبه ، احتجاجاً على اتفاقية أوسلو، واحتجاجاً أولاً على تهافت الأداء السياسي والإداري في منظمة التحرير، الذي أخذ في التزايد بعد سنة ١٩٩٣. ومع أن صاحب المذكرات يفرد صفحات طويلة لأسباب استقالته من اللجنة التنفيذية ومن منصبه كسفير لفلسطين في لبنان في ١٠ أيلول - ١٩٩٣، فإن السطور التالية توجز إيجازاً بليغاً دوافع ما قام به : "في تونس أحسست بأن القيادة في واد آخر، وأنه بات هناك ما يشبه قيادة ظل من "المستشارين" والمهندسين على الثورة وسماسة الحلول وعرايي الاتصالات السرية... ص : ٤٦٣". يفتح تعبير "السماسة" على أسئلة كثيرة ويفتح أسئلة كثيرة أيضاً.

في مذكرات "بين الوطن والمنفى" سرد شفيق الحوت سيرة وطن وشعب وقضية وسيرة مناضل من هؤلاء الذين يبنون الأحلام ويرثونها. بل أن في هذه المذكرات، المتنوعة في مواضيعها، ما يعطي صورة عن "المنامخ" السياسي والفكري في العالم العربي كله، منذ عام "النكبة" الأولى إلى "أعوام النكبات" المتلاحقة. حين يستذكر لقاءه الأول مع جمال عبد الناصر يقول: "واعترف اليوم، بعد كل هذه الأعوام التي التقيت خلالها معظم قادة العرب وحكامهم، بأنني لم أشعر مع أي من هؤلاء بالراحة والثقة والاطمئنان لقول ما أشاء وبلا تحفظ أو رقابة ذاتية، كما شعرت مع عبد الناصر". لهذا لا ينسى أن يؤكد أن رحيل عبد الناصر سجّل البداية الرسمية لانتهاؤ المرحلة القومية".

كتب شفيق الحوت عن بدايات أحلامه، وعن بدايات أحلام عربية كثيرة وأشار، حزيناً، إلى نهايات كثيرة سمحت لـ "المهندسين" ، "السماسة"، أن يدفعوا بالقارب الفلسطيني إلى اتجاه يثير الأسى. ربما كان في نقده الغاضب الشديد ما يصف مآل حلم تمسك به كل حياته وانكسر، في الطريق، أكثر من مرة.

شفيق الحوت : بين الوطن والمنفى،

دار الرئيس ، بيروت، ٢٠٠٧، ٥٤٨ صفحة

## شفيق الحوت اليساري كما عرفته

كريم مروة \*

تعود بداية علاقتي بشفيق الحوت إلى نصف قرن من الزمن. وهي علاقة تعددت مستوياتها واختلفت بين مرحلة وأخرى إلى أن استقرت، في صيغتها الأرقى، في سبعينات القرن الماضي بعد رحيل الزعيم العربي الكبير جمال عبد الناصر. في تلك المرحلة بالذات بدأت مجموعة من التحولات تبرز وتترسخ في فكر شفيق، تحولات مغايرة في أمور كثيرة لما كانت عليه في السابق أفكاره وتوجهاته وأحلامه. وهي جميعها كانت ذات صلة بالتحولات التي كانت تجري في حركة التحرر الوطني العربية. وهي تحولات طبعت المرحلة التي كانت قد دخلت فيها تلك الحركة في أزمته البنيوية، فكرياً وسياسياً، على أنقاض المشروع القومي التحرري الذي كان قد بدأ يحمل، في المرحلة الأخيرة من حياة الرئيس عبد الناصر، سمات عامة علمية ورومانسية تتصل بالإشراكية.

كان شفيق الحوت، في المرحلة التي سبقت تلك التحولات، ناصرياً بمعان فكرية وسياسية عديدة راسخة. وكنت أنا قد ساهمت، مع رفاق جيلي في الحزب الشيوعي اللبناني، في تحقيق مصالحة، رومانسية الطابع، بين شيوعيتنا التي كانت قد تجددت في المؤتمر الثاني للحزب (١٩٦٨) وتخلينا فيها عن دوغمائيتنا القديمة، وبين الناصرية في اتجاهها المشار إليه نحو الإشراكية. وكانت مجلة "الطلبة" المصرية المنبر الأساس لذلك الإتجاه الجديد في الناصرية ابتداءً من عام ١٩٦٦، العام الذي دخل فيه الشيوعيون المصريون، قادة ومثقفين، في الإتحاد الإشتراكي بعد أن حلوا تنظيماتهم القديمة،

---

\* كاتب وباحث لبناني

كشروط وضعه أمامهم الرئيس عبد الناصر وافقوا عليه بعد خروجهم من سجونهم المتعددة أشكال القهر فيها.

في تلك الفترة وتحديداً في أواخر ستينات القرن الماضي وفي مطالع السبعينات، أي في أعقاب انعقاد المؤتمر الثاني للحزب الشيوعي اللبناني وفي ضوء قراراته التاريخية الشجاعة، بدأت علاقتي بشفيق الحوت تتوطد على أسس فكرية وسياسية جديدة عنده وعندني. وكنت في ذلك الحين، بين عامي ١٩٦٥ و ١٩٦٦، قد تعرفت إلى الأديب الفلسطيني غسان كنفاني، وإلى هشام أبو ظهر صاحب ورئيس تحرير جريدة المحرر، وإلى عدد من قادة حركة القوميين العرب الذين كانوا قد بدأوا تحولاتهم في اتجاه الاشتراكية. وكان شفيق قد أصبح مدير مكتب منظمة التحرير الفلسطينية في لبنان. فكنت أتجول بين جريدة المحرر لألتقي بهشام أبو ظهر، ومجلة الهدف لألتقي بغسان كنفاني الذي كان قد أصبح رئيس تحريرها، ومكتب منظمة التحرير لألتقي بشفيق الحوت. ولم يمض وقت قصير حتى صار شفيق، بالنسبة إليّ وإلى عدد من رفاقي في قيادة الحزب الشيوعي، أشبه برفيق للحزب من نوع خاص، أي أقل من عضو حزبي منظم، وأكثر من صديق بالمعنى العام للصدقة. وكان في تاريخ الحزب الشيوعي اللبناني مثقفون يرتبطون بعلاقة مميزة معه ومع قيادته، من نوع تلك العلاقة التي كانت لشفيق مع الحزب منذ ذلك التاريخ. وكان التعبير الواضح عن ذلك النوع من علاقة شفيق بالحزب الشيوعي مشاركته في عدد من نشاطات الحزب الفكرية والسياسية. وكان أهم التعبيرات عن تلك العلاقة مشاركته بنشاط في احتفالات الذكرى الخمسين لتأسيس الحزب الشيوعي اللبناني (تشرين الأول من عام ١٩٧٤). وكانت تلك الإحتفالات، التي استمرت عشرة أيام بنهاراتها ولياليها، من أجمل وأروع ما شهده لبنان في تاريخه الحديث من نشاطات فنية متعددة (مسرح وموسيقى وغناء ورقص وقراءات شعرية)، لبنانية وعربية وأجنبية، وندوات فكرية وسياسية شاركت فيها كل القوى السياسية اللبنانية من أقصى اليسار إلى أقصى اليمين، وحوارات بين ممثلي التيارات الدينية والتيارات العلمانية.

وكان قد سبق تلك الإحتفالات احتفال جماهيري ضخم شارك فيه عشرات الألوف من الشيوعيين ومن أصدقائهم في بلدة حصر ايل (منطقة بلاد جبيل) إحياءاً للذكرى الخامسة عشرة لاستشهاد القائد الشيوعي فرج الله الحلو. وكان من بين خطباء ذلك الإحتفال الكبير شفيق الحوت، إلى جانب نقولا شواي الأمين العام للحزب الشيوعي. وما زالت ترن في مسامعي كلمات شفيق، وهو يتحدث عن فرج الله، الذي كان قد استشهد تحت التعذيب في إحدى معتقلات دمشق (١٩٥٩)، في ظل سلطة الجمهورية العربية المتحدة. وكانت تلك الوحدة التجربة الأولى للوحدة العربية، بقيادة الرئيس جمال عبد الناصر. وهي التجربة التي فشلت بسبب ما ساد فيها من خلل في إقامتها، وما

ساد فيها من قمع طاول في شكل خاص أولئك الذين كانت لديهم ملاحظات واقتراحات ترمي إلى تصحيح مسارها. وكان أكثر الذين تعرضوا للقمع هم الشيوعيون السوريون واللبنانيون (في حزبهم الواحد) والمصريون الذين لم تخل مواقفهم، الرامية إلى تسديد وتصحيح مسار أول تجربة للوحدة، من أخطاء. ومات عدد منهم بسبب مواقفهم تلك تحت التعذيب وكان أبرزهم فرج الله الحلو وشهدي عطيه الشافعي. وكان شفيق الحوت في خطابه المشار إليه في ذكرى استشهاد فرج الله الحلو كان يريد أن يوجه نقداً متأخراً للرئيس عبد الناصر، الرئيس الذي ظل بالنسبة إليه وبالنسبة إلى كثيرين، بمن فيهم شيوعيون، شخصية تاريخية لا يوجد الزمان بها إلا نادراً، وفي فترات متباعدة. وكان ذلك النقد غير المباشر لتجربة الوحدة من قبل شفيق الحوت يقربه من الشيوعيين في نقدهم الإيجابي للوحدة وللرئيس عبد الناصر. وكان جوهر ذلك اللقاء بين شفيق وبين رفاقه القدامى، يشير إلى بداية مرحلة جديدة في مقاربة قضية الوحدة العربية، مقاربة أكثر علمية وأقل رومانسية، دفاعاً عنها كضرورة تاريخية، بالنسبة إلى جميع الشعوب العربية، وبالنسبة إلى الشعب الفلسطيني الغارق في مأساته، على وجه الخصوص. ومعروف أن القضية الفلسطينية كانت عند الرئيس جمال عبد الناصر، حتى قبل قيام ثورة يوليو، هي القضية الأولى بين همومه واهتماماته في مشروعه القومي. وقد ذهب ضحية تلك الهموم بأثقالها التي تهد الجبال.

ثم توالت اللقاءات التي شارك فيها شفيق أصدقاءه ورفاقه القدامى من الشيوعيين مؤيداً بعض مواقفهم ومختلفاً معهم في بعضها. وكان شفيق، في المرحلة التي سبقت وقوع الحرب الأهلية، من موقعه في منظمة التحرير الفلسطينية ثم في مرحلة الحرب ذاتها، ناقداً بحزم تلك الممارسات السلبية، السياسية والأمنية، التي كانت قد سادت في لبنان في ظل سلطة الدولة الفلسطينية، التي صارت بالتدريج بديلاً من الثورة. ولم يكن في موقع القدرة على الحد من تفاقمها، أسوة بآخرين من الفلسطينيين واللبنانيين، ومن بينهم شيوعيون كثير، بما في ذلك في قيادة الحزب الشيوعي اللبناني. ولم يجد شفيق بداً، في ظل العجز عن تصحيح المسار، إلا أن يستقيل من المهمات التي كانت موكلة إليه. وما أكثر ما تبادلت معه التعبير عن مراراتنا، رغم أن حزبي، الحزب الشيوعي، كان في حالة اضطرار سياسي في تلك المرحلة للبقاء في التحالف الذي كان قائماً بين الحركة الوطنية اللبنانية بقيادة كمال جنبلاط، ثم بقيادة وليد جنبلاط، وبين المقاومة الفلسطينية بقيادة ياسر عرفات. ورغم ما تركه خروج المقاومة الفلسطينية مع قيادتها السياسية برئاسة عرفات، وجيشها ومناضليها من بيروت، بعد الغزو الإسرائيلي للبنان في عام ١٩٨٢، ورغم ما تركه ذلك من مرارات عند شفيق وعندي وعند الكثيرين في تلك اللحظة التاريخية المأساوية، فقد شعرت، من خلال حواراتي مع شفيق، بأنه كان أكثر ارتياحاً، لثقة عنده كانت مثل الحلم، بأن ذلك الخروج من الحرب الأهلية، ومن الآفات

التي تمثلت بتلك الممارسات السلبية للمنظمات الفلسطينية في لبنان ضد اللبنانيين وضد الفلسطينيين في آن معاً، سيقرب فلسطينيي الشتات من أرض الوطن الفلسطيني السليب. لكن شفيق، مع ذلك، كان يرى حلمه مختلفاً عما عبّر عنه اتفاق أوسلو الذي، برغم سلبياته، نقل منظمة التحرير من الشتات إلى أرض الوطن. وظل شفيق حتى آخر لحظة من حياته يعترض على ذلك الإتفاق، ولا يرى فيه أي جانب إيجابي. غير أنه، بالمقابل، كان شديد الفرح، مثلي ومثل كثيرين سوانا من الفلسطينيين واللبنانيين والعرب، باندلاع الإنتفاضة الفلسطينية الأولى، انتفاضة الحجور. إذ كانت تلك الإنتفاضة، برأيه وبرأيي، تعبر عن نهضة جديدة للشعب الفلسطيني في داخل الأرض الفلسطينية تحت الإحتلال، نهضة كانت ستقود إلى تقريب المسافة بين الواقع القديم والأمل المرتجى الذي طال انتظاره، الأمل بقيام الدولة الفلسطينية على أرض فلسطين، ولو بشروط مجحفة في مرحلة أولى.

لن أدخل في هذه العجالة في التأريخ لسيرة شفيق الحوت. فتلك مهمة قام بها هو ذاته في كتاب سيرته الجميل. ويمكن لآخرين من رفاق دربه أن يكملوها كل على طريقته واستناداً إلى ما لديه من معطيات. إنني في هذه الصفحات إنما أتكلم عن شفيق الحوت اليساري الذي عرفته. وفي الواقع فقد استمر شفيق يساري الهوى، صديقاً للشبوعيين حتى آخر أيام حياته. وكان صادقاً في صداقته، وفياً لها. وكثيرة هي الشواهد على ذلك. وأذكر هنا بوحدة منها في أواسط ثمانينات القرن الماضي تضاف إلى ما سبق أن ذكرته في مطلع هذا الحديث عن شفيق. فقد فوجئ شفيق ذات يوم، مثلما فوجئنا جميعنا وفجعنا نحن في الحزب الشبوعي اللبناني، بوفاة المناضل النقاوي والقائد الشبوعي مصطفى العريس. وكنت قد زرت مصطفى في الأيام الأخيرة التي سبقت وفاته، في المستشفى، وكان في حالة نزاع. ودعنا مصطفى العريس إلى مثواه الأخير، وشاركنا في وداعه أهل بيروت التي كانت حياته منذ شبابه الباكر جزءاً عضوياً منها ومن نضالاتها ومن تقاليدھا الوطنية والثورية. وعلى قبر مصطفى العريس، في جبانة الشهداء، وقف شفيق الحوت، إلى جانب صديقه الشهيد جورج حاوي الأمين العام للحزب الشبوعي اللبناني، وقف يودع ذلك القائد الشبوعي الرمز بكلمات لا تنسى، هي من سمات وصفات شفيق في اللحظات التي يقترن فيها الموقف السياسي بالمشاعر الإنسانية.

ظلت علاقتي، من موقعي في قيادة الحزب الشبوعي اللبناني ثم من موقعي كواحد من قدامى الحركة الشبوعية ومن موقعي كصاحب رأي وصاحب تجربة دونتها في كتيبي وفي كتاباتي، ظلت علاقتي مع شفيق غنية بالنقاشات والسجلات، وباللقاءات الجميلة التي كان شفيق يضيء عليها من ظرفه ومن جمال شخصيته الكثير من الطرافة. وكان الكأس رفيقنا في تلك اللقاءات، ورفيق درب شفيق الأبدى، إلى جانب السبجارة التي لم تكن تفارق شفتيه. وحين فرضت عليه العملية الجراحية في القلب أن يتوقف عن التدخين، ضعفت عنده العلاقة بالكأس. وقال لي ذات يوم،



مازحاً بمرارة، ما معناها: أية متعة للحياة من دون هذين الرفيقين!

لكن لقاءتنا قلت في الأعوام الأخيرة، لانشغالي بهموم يتصل بعضها بكتابة تجربتي، ويتصل بعضها الآخر بالكتابة التي تؤمن لأمثالنا أسباب البقاء على قيد الحياة بكرامة. لكن شفيق كان يشارك في حفلات توقيع كتبي مع إعلان اختلافه معي في بعض أفكاره ومواقفي. ومع ذلك فقد قدم لي في حفل توقيع كتابه "بين الوطن والمنفى" إهداءً عبّر فيه بعمق عن تلك العلاقة التاريخية التي ربطت بيننا. وهي كانت علاقة صداقة أعتز بها. ولا يسعني هنا، وأنا أتحدث عن شفيق بعد رحيله، إلا أن أذكر بكثير من التقدير زوجته، الأديبة والمفكرة والمؤرخة بيان نويهض ابنة العلامة عجاج نويهض. إذ كانت ترافقنا في عدد من لقاءاتنا عندما كنا نلتقي في منزلهما.

تلك هي بعض الإشارات التي تدل على يسارية شفيق الحوت في المرحلة التي نشأت فيها علاقتي معه على امتداد نصف قرن من الزمن.

لكن لسيرة شفيق الحوت اليساري تاريخاً سابقاً على ذلك التاريخ الذي تحدثت عنه. وهو قد سجل في كتاب سيرته المشار إليه بعضاً منها. ولعلي أضيف إلى تلك المرحلة من تاريخ شفيق اليساري بعض شذرات من الذكريات، قبل أن بدأت علاقتي به تأخذ مسارها الذي تحدثت عنه.

البداية في ذلك التاريخ الآخر حصلت في عام ١٩٥٠. كنت يومها قد عدت من العراق حاملاً معي انتمائي المبكر إلى الشيوعية. إذ أصبحت شيوعياً في عام ١٩٤٨، في أعقاب نكبة فلسطين. وكانت تلك النكبة واحدة من أسباب انتمائي إلى الشيوعية، مغادراً معها وبسببها الفكر القومي الروماني، الذي كان عاجزاً عن إضاءة الطريق أمامي إلى مستقبل بلدي لبنان، ومستقبل الوطن العربي، وفي المقدمة منه فلسطين. ففلسطين وقضيتها كانت رقيقة حياتي منذ طفولتي في قرينتنا الجنوبية حارص، التي كان أهلها، ومن ضمنهم بعض أهلي، يمارسون نشاطهم وعملهم في مدنها، حيفا ويافا وعكا وصفد. كنت إذن، في عام ١٩٥٠، قد عدت من العراق إلى بلدي لبنان حاملاً معي أفكار الشيوعية. وكنت أتردد على بيروت، قادماً من بلدة شمسطار البقاعية حيث كنت أمارس مهنة التدريس في مدرستها. ونشأت لي علاقة مع الشيوعيين اللبنانيين والعرب الذين كانوا يتابعون دراستهم في الجامعة الأميركية. وعرفت منهم الكثير عما كان يجري داخل الجامعة، وداخل "العروة الوثقى"، التي كانت منبر الحركة الطلابية ومنبر النزاعات والصراعات بين الشيوعيين والقوميين العرب. في ذلك التاريخ سمعت باسم جورج حبش القومي العربي، وباسم منصور أرمني الشيوعي، وكلاهما فلسطينيان. ثم سمعت بعد ذلك بقليل باسم شفيق الحوت. وكان لجورج حبش، الطالب في كلية الطب في الجامعة الأميركية، رفاق من القوميين العرب في ذلك التاريخ وفي كلية الطب بالذات، كل من وديع حداد وأحمد الخطيب.

لكن معرفتي بتفاصيل أحداث ذلك التاريخ تعمقت عندما أصبحت في عام ١٩٥٢ أحد المسؤولين الاساسيين في منظمة الطلاب الشيوعيين وفي المنظمة الديمقراطية التي كانت تحمل اسم "اتحاد الطلاب العام". و كنت، في الوقت عينه، قد انتخبت في الجامعة اللبنانية، بصفتي الشيوعية، نائباً لرئيس الرابطة الطلابية فيها. في تلك الفترة بالذات اكتملت الصورة عندي عما كان قد جرى في الجامعة الأميركية، في عامي ١٩٤٩ و ١٩٥٠، ثم ما كان يجري أمام عيني في العامين التاليين.

كان المسؤول عن الطلاب الشيوعيين في الجامعة الأميركية أمال نفاع الأردني. وكان أمال نفاع ومعه أنطون قرنfli السوداني، شريكين لي في الهيئة المسؤولة عن المنظمة الوطنية للطلاب الشيوعيين. ومن أمال نفاع وأنطون قرنfli عرفت الحكاية كلها، حكاية شفيق الحوت، وقبله حكاية منصور أرمللي. فما هي هذه الحكاية؟ الحكاية هي أن منصور أرمللي، الطالب الفلسطيني الذي كان مسؤولاً عن منظمة الحزب الشيوعي في الجامعة الأميركية بين عامي ١٩٤٨ و ١٩٤٩، قد طرد من الجامعة الأميركية في عام ١٩٥٠، حيث كان يدرس الطب، بسبب نشاطه السياسي باسم الحزب الشيوعي. وكان يشاركه في قيادة المنظمة عدد من الشيوعيين العرب، أذكر منهم أحمد عثمان العراقي، ومصطفى مدني السوداني وسليمان عودة الفلسطيني. وإذ نظم منصور أرمللي تظاهرة احتجاج أمام الجامعة الأميركية وقادها بنفسه احتجاجاً على طرده ومطالباً بإعادته إلى الجامعة، من دون العودة إلى رفاقه في الهيئة الحزبية، فقد اتخذت القيادة الحزبية قراراً بفصله من الحزب. وجاء ذلك في العام ذاته الذي اتخذت فيه الجامعة القرار بطرده (١٩٥٠). وكان التبرير لذلك القرار من قبل الحزب هو أن تلك التظاهرة قد أدت إلى طرد عدد من الطلاب الشيوعيين من الجامعة. وكان قد عين رئيس جديد للجامعة الأميركية هو بنروز (Penroze)، أحد عتاه للشيوعية. وكان ذلك في زمن سيطرة المكارثية في أميركا، التي تولت مطاردة الشيوعيين، بمن فيهم كبار المثقفين من أمثال شارلي شابلن وهوارد فاست وبول روبسون. وفي هاتين الحالتين اللتين واجهتا منصور أرمللي بالطرد من الجامعة الأميركية بسبب نشاطه الشيوعي، وبفصله من الحزب الشيوعي بسبب تلك التظاهرة ونتائجها، تظهر إحدى المفارقات السياسية في تلك الفترة. فقد تمكن منصور من ترتيب أمر سفره إلى الولايات المتحدة الاميركية لمتابعة دراسته، بمساعدة أستاذه أنيس خوري المقدسي والد الأستاذ الجامعي والوزير السابق سمير مقدسي. أما شفيق الحوت، الذي كان قد انتسب إلى الجامعة الأميركية في عام ١٩٤٨، وانتسب إلى الحزب في عام ١٩٥٠ بعد طرد منصور أرمللي من الجامعة، فقد أصبح على الفور مسؤولاً عن المنظمة الحزبية في الجامعة بدلاً من منصور. لكن شفيق لم يبق في الجامعة طويلاً. إذ طرد منها في عام ١٩٥١ بسبب نشاطه الشيوعي. وبعد خروجه من الجامعة خفف نشاطه السياسي، وخفف علاقته بالحزب من دون عدا. لكنه تحول

في علاقته مع الحزب الشيوعي، بعد قيام الوحدة المصرية - السورية، إلى حالة جفاء، بسبب موقف الحزب من الوحدة ومن الرئيس عبد الناصر. ثم أصبح شفيق الحوت صحافياً متنقلاً بين بيروت والكويت. وباقي القصة صار معروفاً، سواء في كتابه "بين الوطن والمنفى" أم في الكتابات العديدة التي تحدث أصحابها عن سيرة شفيق وعن علاقاتهم به.

إلا أنني قبل أن أنهى هذا الكلام عن تلك الحقبة من تاريخ الحركة الطلابية في لبنان، ومن تاريخ الصراع بين الشيوعيين فيها وبين القوميين العرب، أود أن أعود بالذاكرة إلى مطلع عام ١٩٥٣. فقد تمكنا، كطلاب شيوعيين وقوميين عرب وبعثيين في الجامعة اللبنانية والجامعة الأميركية والجامعة اليسوعية، من تنظيم تظاهرة هي أضخم تظاهرة عرفها لبنان في ذلك التاريخ، نظمت ضد زيارة وزير خارجية أميركا جون فوستر دالاس إلى لبنان. وكنت واحداً من الأساسيين، بصفتي نائب رئيس رابطة الطلاب في الجامعة اللبنانية والمسؤول في منظمة الطلاب الشيوعيين، في تنظيم تلك التظاهرة. لكنني، ويا للمفارقة، اعتقلت وأنا في طريقي إلى موقعي في مقدمة التظاهرة إلى جانب المسؤولين عنها وعن تنظيمها.

وللحكاية تنمة أيضاً. ففي عام ١٩٧٨ سافرت إلى الولايات المتحدة الأميركية في إطار وفد للحركة الوطنية اللبنانية، تلبية لدعوة من منظمة الخريجين العرب الأميركيين لحضور مؤتمرها وللقيام برحلة في أرجاء الولايات المتحدة الأميركية للإلتقاء مع الجاليات العربية، ولمقابلة بعض الشخصيات الأميركية. وقد عرفني صديقي كلوفيس مقصود رئيس مكتب الجامعة العربية في أميركا في ذلك الحين إلى الدكتور منصور أرمللي، الذي كان قد أصبح رئيس قسم طب العيون في جامعة جورج واشنطن، وذلك لمعالجة مشكلة في نظري استعصت على أطباء العيون في الإتحاد السوفياتي وفي الدول الإشتراكية، واستعصت على أطباء العيون في فرنسا وبريطانيا وأسبانيا. عرفني كلوفيس إلى الدكتور منصور وتركني معه بسبب انشغالاته. وحين عرف منصور من أنا، طلب مني أن نتحدث أولاً عن الوطن، اللبناني ثم الفلسطيني، وعن الرفاق. ودام الحديث ساعة ونصف الساعة، تطرقنا فيه إلى تلك اللحظة من تاريخه في الجامعة. وجه لي في البداية أسئلة كثيرة حول الوضع السياسي في لبنان وفي العالم العربي، وحول الوضع الفلسطيني. ثم عاد فسألني عن الرفاق القدامى الذين لم ينس أسماءهم ولم ينس ذكرياته الحلوة والمرّة معهم. سألني عن نقولا شاوي وعن شفيق الحوت وأمال نفاع وكميل مجدلاوي وأنطون قرنfli. وبعد أن فرغنا من الحديث السياسي ومن استحضار الذكريات القديمة فيه انتقلنا إلى معالجة مشكلة النظر عندي. فاكتشف بسرعة أن مشكلتي بسيطة، وأن معالجتها تتم بنظارة خاصة، وأنني لست بحاجة إلى أي علاج من نوع ما تعرضت له خلال زيارتي العلاجية في الدول المشار إليها. وطلب مني، فيما يشبه الأمر الطبي، ألا أستشير في موضوع نظري أحداً سواه. وصرنا أصدقاء. خسرت برحيل شفيق الحوت واحداً من أجمل وأحب أصدقائي إليّ.

ومن الخصائص البنائية اللافتة أيضاً الطاقة الدرامية الواضحة المتضمنة في هذه القصص، فكل منها تتمتع بقدرة حركية غاية في الحيوية والتجسد يجعلها أقرب إلى مسرحية من فصل واحد، مثلما يكاد يقربها من شخصيته المقامة في السرد العربي القديم من خلال قدرة السارد على تمثيل شخوصه ومسرحه أحداثه وضح طاقة حركية قوية فيها، في كل ذلك في جو قائم على المفارقة والتورية الساخرة، بل إنه لجأ أحياناً في جمل معترضة إلى وضع توجيهات للقراءة مثل تلك التي يكتبها كاتب المسرحية ليستعين بها المخرج، كما في قصة "الأستاذ مهيبوب" وخاصة في أثناء حديثه بالهاتفون. مما يجعل القارئ يشعر بأنه مشاهد لمسرحية تجري أمامه وليس أنه مجرد قارئ لعمل سردي.

## مراجعات





## ياسر عرفات وجنون الجغرافيا

يُقرأ الكتاب لثلاثة: لفائدة موضوعه، أو لأهمية كاتبه، أو لتشويقه. وهذا الكتاب الذي بين ايدينا يُقرأ للأسباب الثلاثة آنفة الذكر جميعا. فهو اولا كتاب مفيد لان موضوعه ياسر عرفات الذي جعل كل الناس، وليس العرب ومنهم الفلسطينيون فقط يهتمون به ويتسقطون اخباره، سواء كان ذلك في حياته او بعد مماته. وقد حدثني السفير الكوي في بلغاريا عام ١٩٨٥ بأن الجريدة الكوبية الاشهر "غراما" اجرت عام ١٩٨٢ استطلاعاً بين القراء الكوبيين: "من ترشح ليكون شخصية العالم هذا العام؟". وقد جاءت النتائج كما يلي: الاول كاسترو (الزعيم الكوبي)، والثاني عرفات، والثالث بريجنيف (الزعيم السوفييتي). وحينما شارك ياسر عرفات بجنازة بيرلنغوير (امين عام الحزب الشيوعي الايطالي) عام ١٩٨٤، ورغم حضور العديد من الشخصيات العالمية ومنهم غوربتشوف (النجم الصاعد في الاتحاد السوفييتي والذي سيصبح بعد اشهر الامين العام)، في تلك المناسبة علق احد مذيعي التلفزيون الايطالي، وهو يُعرّف برؤساء الوفود وهم يصعدون الى المنصة، قال هذا المذيع عنما ظهر ياسر عرفات: وهذا ياسر عرفات المعروف للجميع. ولعل لباسه المميز يجعله مميزا للجميع.

ولعل العبارة التي وصف بها نبيل ياسر عرفات دقيقة إلى درجة جعل الناشر يضعها على الغلاف الخارجي للكتاب، والتي تقول: "كانت القيادة والسيطرة بالجملة وبالتفصيل هي الفكرة الثابتة في عقله وروحه وسلوكه. فهو قائد الفريق، وهو اللاعب، وهو المدرب، وهو الحكم، ومقرر النتيجة. وكل من معه وحوله كانوا بالنسبة له جمهورا يلزم للمساعدة او التشجيع، واحيانا للمباهاة بهم امام الآخرين.

وهذا ينقلنا للسبب الثاني الذي يدفع لقراءة هذا الكتاب، وهو المؤلف. مؤلف الكتاب هو نبيل عمرو الذي كان معه وحوله، وكان وما زال يقر لعرفات بالصفات آنفة الذكر، ويرضى بسرور ان يلعب الدور الذي يرتضيه له عرفات، ولكنه يكاد يكون الوحيد الذي يعترف، ويعلن هذه الحالة ولا يخجل منها.

سأله ذات مرة صحفي قائلاً: متى عرفت ياسر عرفات يا نبيل؟

اجاب نبيل هذا سؤال ساذج وغير مهم، فأنا اعرف ياسر عرفات منذ ولدتني امي. ولكن السؤال هو متى عرفني ياسر عرفات؟

ضحك الصحفي وصحح السؤال وقال: متى عرفك ياسر عرفات يا نبيل؟

كإجابة على السؤال، سرد نبيل قصة استدعاء ياسر عرفات له ليعاقبه على خطأ ارتكبه. وحين احضروه لعرفات وقالوا له هذا نبيل يا اخ ابوعمار. صرّخ عليه لانه كتب له مباشرة متخطيا المراتب الاعلى. وعلل نبيل موقفه، ولم يُظهر عرفات اقتناعه بما قال نبيل، ولكن حين استأذن نبيل للإنصراف اجابه ابوعمار باللهجة المصرية "إترزي!!" واذاف نبيل للصحفي: واترزي وما زلت حتى الآن. ومن الجدير بالذكر ان نبيل يروي هذا المقطع من علاقته بياسر عرفات مع تغييرات هي من مقتضيات الفرق بين الحديث الشفهي والكتابة الادبية (ص ٤٥-٤٧) مسترجعا توضيح ماجد ابو شرار "ان هذه طريقة ياسر عرفات بترويض الاشخاص". ونبيل في هذا الكتاب لا يؤرخ لياسر عرفات، ولا يقيّمه، وانما هذه "الانطباعات التي تولدت لديه من خلال معاشته عن قرب" كمايقول نبيل في تمهيده وتوضيحه (ص ١٣) فلا يقص الا ما رأى او سمع مباشرة او كان طرفا فيه.

لقد قرأتُ هذا الكتاب ثلاث مرات: مرة وهو مخطوطة، والثانية بعد صدوره، والثالثة كي اكتب هذه القراءة له. وحينما طلب مني بعض الاصدقاء أن اصنّف الكتاب قلت هو كتاب شيق ومفيد، ويمكنني ان اقترح عنوانا اضافيا للكتاب "ايامي معه"، فهو عبارة عن يوميات نبيل عمرو مع ياسر عرفات في جنون الجغرافيا.

ورغم ان نبيل لا يغوص بالتفصيلات الا التي كان شاهدا عليها، الا انه غطى كافة محطات ياسر عرفات، وخاصة ذات العلاقة بجنون الجغرافيا ليكون امينا مع عنوان كتابه. وجنون الجغرافيا يكمن في كل من الاردن وسوريا والعراق ومصر ولبنان.

ونبدأ من مصر عبد الناصر، حيث يقول نبيل "حتى جمال عبد الناصر، وهو الاكبر والاكثر نفوذاً، دفع من كبريائه وطول قامته ثمنا مكن ياسر عرفات صاحب الاحلام الكبيرة، والقوة المادية شديدة التواضع من ان يطرح نفسه ووعوده واحلامه مخرجا معنويا من مأزق آلت اليه الامة، ومن هزيمة



تمت في عهد الكبار" (ص ٦٨).

اما السعودية، والتي كانت "في حسابات عرفات، كنزا متعدد المزايا... فقد كان يحرج عرفات تلك الاراء التي تنطلق من فتح، وتتناول السعودية بالنقد من منطلقات ايدلوجية يفرزها ادعاء الانتماء للييسار الدولي" (ص ٩٣). ويؤكد نبيل انه "وفق مبدأ التعايش مع الحذر كانت السعودية ومصر الطرفين الثابتين في تحالف عرفات من اجل البقاء" (ص ٧٦).

والقى نبيل الضوء على علاقة عرفات بالتوأمين "اللدودين": سلطة البعث السوري وسلطة البعث العراقي. ويكاد لا يكون رئيسا البلدين هما اكثر الرؤساء احتكاكا بياسر عرفات. كان ذلك الاحتكاك جارحا احيانا، ومداويا احيانا اخرى، ومهماً دائماً. اما في حالة وئام البعثين، "فإن الجغرافيا السورية، والنفط العراقي يضغطان على روح عرفات، وحساباته، ويضيقان مساحة الحركة التي يحتاجها، ويهددان قدرته على ان يظل الزعيم القوي، والفعال، والمستقل للفلسطينيين" (ص ٦١). وحينما يركز على صدام حسين يقول صدام حسين هو "عدو الامس، والحليف الاخير" ويلمح نبيل الى ان صدام حسين رأى أن "عرفات راية فلسطينية مقدسية، يجب ان تخفق في بغداد، وليس في طهران" (ص ٢٠٩).

ورغم ان نبيل يقول "كانت كارثة ١٩٦٧ قد كسرت درع الملك حسين، وأطالت رمح عرفات" (ص ٦٧)، الا ان نبيل ظل حريصا على حسن اختيار الفاظه، وتعبيراته عندما يتكلم عن الحسين، فوصفه بأنه الخصم والمنقذ والحليف (ص ١٩٥). ثم يقول "كان الحسين، بفعل اعتناقه لنسبه الذي يوصله الى الرسول الاعظم، والى رأس القبيلة القائدة في التاريخ العربي الاسلامي، قريش، لا يرى ان زعامته محصورة في حدود المملكة الاردنية، ولا يرى دوره محدودا في إطار الحفاظ على الدولة الصغيرة" (ص ١٩٧).

ويزيد نبيل في الصفحة التالية "ها هو الحسين ينقذ عرفات من الموت السياسي حين حسم امر شرعية المجلس الوطني الفلسطيني في دورته السابعة عشرة، حيث وفر الظروف الملائمة لعقده، والقى في افتتاحه كلمة اظهرت دهاء الحسين وجرأته". وظلت تعبيرات نبيل مختارة باحترام شديد عندما يشير الى ايلول الاسود، او الى فك الارتباط

ويختم نبيل هذا الفصل الذي خصصه للعلاقة بين عرفات والملك حسين بالقول "انه منذ تلك الايام (انعقاد الدورة السابعة عشرة للمجلس الوطني الفلسطيني في عمان عام ١٩٨٤)، لم تشهد العلاقة بين الرجلين اي توتر على اي مستوى. لقد اطمأن الملك الى ان كيانا شقيقا وصديقا سينشأ في الجوار بما يبعد شبح الوطن البديل او الدولة البديلة. واطمأن عرفات الى ان ما كان يوصف بتهديد الملك

للاستقلال الفلسطيني لم يعد قائماً" (ص ٢٠٤).

خرج عرفات من كنز جغرافية الاردن وجنونها الى سفوح جبل الشيخ وجنون جغرافية لبنان، تلك الجغرافيا التي سُمى نفسه فيها "الرقم الصعب" لانه الرقم المستقل. ولكن القوى الفاعلة اقليميا ودوليا لا تطيق رقما مستقلا في المنطقة، ناهيك عن "رقم صعب". وفي شباط ١٩٧٨ انتصرت الثورة الايرانية، وسقط الشاه حليف اسرائيل الاقوى في المنطقة، فلاح لعرفات نور في آخر النفق، فقال كما قال موسى لاهله "امكتوا اني آنست نارا، لعلي آتيكم منها بقبس او اجد على النار هدى" (سورة طه ١٠). ولم يناديه ربه ما تلك بيمينك، إذ اندلعت بعد ذلك بقليل الحرب بين العراق وايران، ورغم جهوده المضنية، فشل عرفات برأب الصدع بينهما فخر عرفات هذا القبس، ولم يستطع ان يستفيد من هذا الجنون الجديد في جغرافية المنطقة، وعاد عرفات ليكون الرقم غير المقبول. فكان الاجتياح الاسرائيلي للبنان. ورغم الصمود الاسطوري، ورغم التضحيات العظيمة، "خرج من بيروت والجنوب، وتشبّت بطرابلس ومخيماتها" (ص ١١٧). وعندما اجتاحت صدام حسين الكويت، وفشل عرفات برأب الصدع بين العراق ودول الخليج، لم يبقى امامه إلا سرايب أوسلو.

وبعد ان خرج عرفات من جنون الجغرافيا ودفتها، اي عندما خرج من طرابلس اضطر ان يمالئ القوى التي لا تقبل "الرقم الصعب"، وقرر ان يقول أن الرقم الصعب ليس "رقما اصما" لا يقسم الا على نفسه، يل رقم مزدوج قابل للقسمة له نصف وثلث وربيع، فاخترق المقاطعة العربية السورية لمصر كامب ديفد وزار حسني مبارك في القاهرة وهو في طريقه من طرابلس الى الحديدة في اليمن. ويسجل نبيل رسوّ باخرة عرفات على رصيف ميناء الحديدة حيث "لم يكن الاستقبال هذه المرة بدفء الاستقبالات السابقة وحيويتها، فقد جاء عرفات سابقا بعد ملحمة بيروت (١٩٨٢).. ووصفت بانها اطول حرب خاضها العرب مع اسرائيل" (ص ١٣٧).

ولان نبيل في كتابه هذا كان يغوص في التفاصيل عندما يكون مشاركا او مشاهدا للحدث، فقد جاء كتابه في كثير من جوانبه وكانه رواية على شكل مذكرات او يوميات. وهناك بعض الروائيين يسجل يومياته كرواية. ورغم ان نبيل عمرو لم يحترف الرواية بعد، فانه كتب هذا الكتاب بلغة ادبية راقية، وبسرود روائي مشوّق، وبذلك نأتي للسبب الثالث الذي يحض على قراءة الكتاب كاملا، الا وهو التشويق. فالعديد من المقاطع يصلح ان يكون قصة قصيرة، وكاملة على ذلك اشير الى حكاية سجن نبيل في مقر ال ١٧، وحكاية تعيينه عضوا في المجلس الثوري، وحكاية حضوره بعد منتصف الليل لمكتب ياسر عرفات للحصول على توقيع على قرارات دون ان يذكر ماهي هذه القرارات، وربما اراد ان يصف طريقة ياسر عرفات باخذ القرارات، وليشير الى موقع نبيل عنده (ص ١٧٣). وحكاية الطفل في الدامور الذي عندما اشتكت امه لياسر عرفات على لحقهم من مصائب، اعترض

الولد على امه لان ياسر عرفات هذا هوسبب البلاوي، فصفعه ياسر عرفات ليس لانه يتهمه، بل لان اعتراضه على امه قلة ادب.

وحينما يستحضر نبيل كلام عرفات معه او مع غيره، كان نبيل يلجأ لاستعمال اللهجة الدارجة على لسان عرفات. وهنا استرجع "المعركة" التي نشبت بين مدرسة طه حسين ومحمود عباس العقاد في ما يخص الحوار في الروايات، حيث كان طه حسين يصر على استعمال اللهجة الدارجة عندما تكون الشخصية في الرواية شعبية، لان ذلك يجعل الشخصية اكثر استقرارا، ولكن العقاد كان يرى ان ذلك ضروري في "السيناريو" عند تحويل الرواية الى فيلم، اما وهي رواية فيجب ان يبقى الحوار باللغة الفصحى.

والذي جعلني استرجع هذه المسألة انني سألت نبيل: لماذا تستعمل اللهجة الدارجة عندما تنقل كلام عرفات، بينما تستعمل اللغة العادية عندما تنقل كلام غيره معه؟

اجاب نبيل: لان عرفات هو الشخصية المحورية، وهو بطل روايتي، فاريد للقارئ ان يتخيله عندما يقرأ اقواله. اما الآخرون فاريد للقارئ ان يعرف ما قالوه، سواء تخيلهم او لم يتخيلهم!!!

عبد الفتاح القلقيلي



## البين والمخبوء في دراسة أنظمة القمع في العالم العربي

روجر أوين معلق ومؤرخ متمرس أنجز أعمالاً مهمة تتعلق بالعالم العربي، أصبح بعضها مراجع أساسية في دراسات التاريخ الحديث وما بعد الاستعمار. كتابه الجديد 'The Rise and Fall of Arab Presidents For Life' (٢٤٨ صفحة، هارفرد) يتعرض لظاهرة الرؤساء العرب الذين استطاعوا أو خططوا أن يحكموا مدى حياتهم، مصحين بذلك أشبه بالملوك منهم بالرؤساء، أو جاعلين الملوك أشبه بهم. أنهى روجر أوين الكتاب في ٢٠١٠، أي قبل اندلاع الثورات العربية ولكن الكتاب كان لم ينشر بعد عندما بدأت تداعيات انتحار البوعزيزي بهز أساسات عروش رؤوس العرب. عندها أعاد روجر أوين كتابة أجزاء من الكتاب وأضاف له فصلاً جديداً يُعنى بانتهاء عهد رؤساء مدى الحياة. كون الكتاب كان قد كتب قبل أحداث ٢٠١١ لا يضعف طرح الكتاب، ذلك أن قضية أوين هي كيفية تمكن هؤلاء الرؤساء من تنصيب أنفسهم كرؤساء مدى الحياة، ثم التخطيط لتنصيب أبنائهم من بعدهم، الأمر الذي نجح فيه فقط الرئيس الراحل حافظ الأسد. الكتاب يطرح السؤال التالي: ما هي الظروف التي سمحت لهؤلاء الرؤساء بتنصيب أنفسهم رؤساء مدى الحياة، وما هي الأدوات التي استخدمها هؤلاء الرؤساء لفرض أنفسهم والوصول إلى القوة شبه المطلقة التي وصلوا إليها. السؤال التابع لهذه الأسئلة والأكثر إشكالية هو سبب تركيز هؤلاء الرؤساء في المنطقة العربية، وإن كان هذا يُعزى لخصوصية عربية ثقافية أو إسلامية.

قبل أن يصل أوين لهذا السؤال، يكون الكتاب أشبه بعرض لآليات الحكم التي استخدمها هؤلاء الرؤساء. يقسم أوين العالم العربي حتى عام ٢٠١٠ إلى أربعة أنواع من أنظمة الحكم، أولها دول الحكم المركزي مثل سوريا ومصر والجزائر وتونس. في هذه الدول نجد اعتماداً كبيراً على مؤسسات

تم إنشاؤها قبل الاستقلال - مثل حزب التجمع الدستوري الديمقراطي في تونس - واستخدام ماضيها الكفاحي لإعطاء شرعية وصبغة قتالية للنظام. يجمع هذه الدول تقسيم للأجهزة الأمنية بحيث لا تحصر القوة في أي منها، والتخلص من أي بوادر تسييس أو توجهات وطنية أو فكرية في الجيش أو أي من القوات المسلحة. تستخدم هذه الدول برامج التطوير والتعليم للحصول على الشرعية كاستمرارية لإرث المؤسسة النضالي قبل الاستقلال. يتساءل أوين عن سبب اهتمام هذه الأنظمة - السوري مثلاً - بإجراء هذه الانتخابات الشكلية والاهتمام الكبير بها، رغم ما تنطلي عليه من تكاليف وأعباء إدارية كبيرة على الدولة. يقر أوين أن الإجابة عن هذا السؤال تكون صعبة دون الوصول إلى أرواشيفات الأنظمة وخرق سريتها المفردة. هذه الصعوبة تشكل التحدي الأكبر لأوين، ويمكن أن تكون نقطة فرق واضحة بين تلقي القارئ العربي والقارئ الغربي للكتاب.

بعد أنظمة الحكم المركزي يتطرق أوين إلى ما يدعوه بـ دول-الرئيس-كمدير في اليمن وليبيا والسودان، حيث تتشابه هذه الأنظمة من ناحية الطبيعة المقسمة لمجتمعاتها. نجد في هذه المجتمعات الكثير من القبائل، ويكون النظام القبلي محتوى ومفهوماً ضمناً من النظام. يشدد أوين على أنه لا ينبغي أن نسمي هذه الأنظمة بالقبلية، بل هي أنظمة تقوم "بالتلاعب باستمرار بتشكيلة من الانتماءات دون-الوطنية" للحفاظ على استمراريتها. تختلف استراتيجيات الحكم في هذه الدول اعتماداً على اقتصادها وعلاقاتها الدولية، فبينما كانت استراتيجية القذافي هي رسم صورة لليبيا سعيدة هادئة لا يعكر صفوها إلا التدخل الخارجي، كان علي عبد الله صالح يرسم اليمن على أنه غابة وفوضى عارمة من العنف والتسلح لا يمكن لغيره أن يبقها تحت السيطرة.

دول الرئاسة المحدودة هي العراق-ما بعد صدام ولبنان، ونجد في هذه الدول إشراك قادة كل الطوائف في الحكم، بطريقة تمنع احتكار أي منهم للقوة. يوجد توتر طائفي عالي في هذه المجتمعات، وكثيراً ما يكون دور الرئيس بمثابة الوسيط بين هذه الفصائل والمحاولة في حل مشاكلهم بالديبلوماسية.

يركز أوين على أهمية إشكالين يطرحهما سام زبيدة في كتابه (الإسلام، الشعب والدولة). أولهما هو أن الانقسامات في المجتمعات كانت دوماً جزءاً من تركيب أي دولة. المهم، وما يستحق الدراسة المتأنية هو كيفية وتحت أية ظروف تم تسييس هذه الانقسامات. النقطة الأخرى التي يذكرها أوين هي استخدام زبيدة لمفهوم الطائفية السياسية لوصف الحالة التي "يصبح فيها الدين كهوية خاضعاً لخوف أوسع من أن مؤسسات ومبادئ أحد المجتمعات، وأحياناً وجودها نفسه في خطر".

النوع الأخير من الأنظمة هو دول الأمن الملكية في الأردن والبحرين وعمان. ويخص أوين بالذكر ملكي الأردن والمغرب في استخدامهم تقنيات استعاروها من جيرانهم الرؤساء لكي يتمكنوا من البقاء. هذه الأنظمة تمتلك نظرياً شرعية تفوق تلك التي يحظى بها رؤساء الدول المذكورة سابقاً إلا أن هذه الشرعية شكلية ولا تعفيهم من ضرورة اللجوء إلى تأسيس نظم أمنية معقدة وشبكات استخباراتية واسعة. يصبح إذا موضوع توريث الحكم الفرق الجدي الوحيد بين الممالك والجمهوريات.

في هذه الطروحات نجد أن أوين يقع أحياناً في بعض أفخاخ القارئ الغربي المتسرع لما يراه في العالم العربي، ففي تفسيره للأحداث في سوريا، نجد أنه يرجع إلى مقابلة بين أحد المقاتلين السوريين وإذاعة NPR الأمريكية حيث يستخدم المقاتل كلمة 'منافقين' في وصفه لجنود الجيش السوري الموالي للنظام. هنا يقوم أوين بتأصيل كلمة منافقين ويعود بها إلى معناها في سورة 'المنافقون' ليفسر أن دوافع المقاتلين دينية بحتة، بدلاً من قراءة الدين كأداة لمواجهة العنف المفرط ووسيلة بئسة للتخلي ببعض الشجاعة في مواجهة الموت المحتم. من الممكن أن يكون هذا فعلاً هو المقصود بما قاله المقاتل في تلك الحالة، ولكن أوين لا يوفر أي دلالات على هذا. اللغة العربية لغة وثنية كانت متطورة وراسخة قبل ظهور الإسلام. استخدام المقاتل لكلمة "منافقين" يمكن أن يتعلق بموقف الأسد من الجولان مثلاً، ولكن أوين يقع في غواية الدوافع الدينية المبهمة التي أصبحت التفسير المعتمد لدوافع الشخص العربي.

يرى أوين أن ما ساعد هؤلاء الرؤساء في التمسك بسلطتهم هو ما يسميه بالـ Demonstration effect. هذا الأثر يتمثل في العلاقة القريبة التي جمعت هؤلاء الرؤساء ومكنتهم من تبادل المعلومات وتقنيات التمسك بالسلطة، كما أنها جعلتهم يتعلمون من تجارب وأخطاء بعضهم ويراقبون أثر القرارات التي يتخذها جيرانهم وردود الفعل عليها بهدف استباق وتوقع ردود الأفعال عند تطبيق قرارات مشابهة. يعطي أوين مثلاً على هذا أزمة الخبز في تونس والجزائر في ٢٠٠٨ وكيف تم تبادل المعلومات والخطط بين النظامين الجزائري والتونسي، ويرجح أوين أن رؤساء العرب كانوا يراقبون باهتمام آليات نقل السلطة من حسني مبارك إلى ابنه بهدف التعلم منها.

أوين يعطي بعداً شخصياً لهذا الأثر وكيف أنه وطد العلاقات الشخصية بين الرؤساء، ذلك أن هذه مجموعة من الرجال الذين "هم فقط يعرفون ما هي الضغوطات وكيف يكون الشخص حاكماً في بلاد كهذه" ص ١٦٣. هذا 'النادي الحصري' يوطد العلاقات بين الرؤساء ويجعل علاقتهم سرية وعميقة. من هنا ينتقل أوين إلى السؤال التالي والذي لا يقل أهمية، ألا وهو: هل العالم العربي منعزل تماماً عن باقي العالم، هل هو خارج تأثير قوى رأسمالية السوق والتعددية السياسية

(بحسب تعريف فيبير لها على أنها في ومن صميم الحداثة)؟ يجاوب أوين على هذا السؤال بالنفي، مفسراً أن تفشي ظاهرة الرؤساء مدى الحياة في العالم العربي وفي نفس الحقبة لا يمكن أن يفسر ببساطة وتحامل على أنه نتيجة لخصوصيات ثقافية ودينية، بل أنه نتيجة 'القوى استثنائية' متشابهة مرت فيها دول المنطقة. هذه العوامل تشمل آبار النفط وإسرائيل.

هذا أقرب ما يصل إليه أوين في الإشارة إلى دور إسرائيل في المنطقة. أوين لا يتطرق كثيراً إلى دور إسرائيل في استمرارية حكم هؤلاء الرؤساء ولا العلاقة المباشرة التي ربطت إسرائيل بعدد من هؤلاء الحكام، ولا حتى عند تطرقه إلى نظام مبارك الذي كانت إسرائيل كرتاً أساسياً في سياسته الخارجية. بل يشعرنا الكتاب أحياناً أن دور إسرائيل في سياسات العالم العربي خافت وبعيد ويكاد لا يستحق الذكر. أوين أيضاً يكرر أن هناك عوامل خارجية في استمرارية هؤلاء الزعماء ولكنه لا يتعمق في دور أمريكا والغرب في التعاون الاستخباراتي وتسليح أمريكا وتدريبها لقوات هذه الدول. يستمر أوين في تذكيرنا في مواقع مختلفة في الكتاب أن بحثه مُقيد بمحدودية الوصول إلى ملفات الأنظمة وسجلاتها، وأن في غياب هذا الوصول، تبقى هناك مساحات كبيرة وهامة لا يمكن ملؤها سوى بالتخمين والافتراض المدعوم بأمثلة مسبقة. لهذا السبب، نجد أن الكتاب لا يقدم الكثير للقارئ العربي الذي يعرف هذه الآليات فطرياً ويفهمها، بل يأخذها كمسلمات.

د. معن أبو طالب



## حادثة باريس بين الاقتصاد والأدب

David Harvy: Paris, capital de la modernité, paris,

prairies ordinaires, 2012, 530 p.

يقال : المدن بأهلها، في إشارة إلى بيئة اجتماعية متمدنة، أنتجتها تحولات لا تأتلف مع "المجتمع الريفي"، الذي يخشى الجديد ويطمئن إلى الركود. فالمدينة، بالمعنى الحديث، تعني الحرية والفرد المستقل بذاته والتنافس بين أفراد أحرار، والتنوع الثقافي والسياسي، وتعني أولاً عقلانية خاصة، تنفذ إلى العمران والشوارع والمؤسسات العلمية والساحات والمدارس، ... وكل ما يجعل المدينة الحديثة، مثل باريس ونيويورك وبرلين، تجسيدا للعقلانية، التي جاء بها القرنان السابع عشر والثامن عشر.

عاد الاقتصادي الأمريكي ديفيد هارفي إلى موضوع المدينة في كتابه "باريس عاصمة الحداثة"، متكئاً على اختصاصه العلمي، وقرأ العلاقة بين تطور باريس والحاجات الاقتصادية. أعطى هارفي اجتهاداً جديداً، تاركاً فراغات يتلامح فيها دراسات هنري لوفيفر، عالم الاجتماع الفرنسي، الذي ساءل، في كتابه "نقد الحياة اليومية"، وجوه اغتراب الإنسان في المدينة. غير أن الاجتهاد النظري، الملتف حول باريس يستدعي دائماً الألماني فالتر بنيامين، الذي دار بحثه طويلاً حول العاصمة الفرنسية، أكان ذلك في دراسته عن الشاعر بودلير، التي عيّن فيها باريس "عاصمة للقرن التاسع عشر"، أم في كتابه الكبير الذي لم يكتمل: "الممرات"، الذي حاول أن "يصنعه" من حوار مضمّر بين "استشهادات" متعددة الطبقات.

إذا كان هارفي قد درس الأسباب الاقتصادية التي أملت على "الرأسمالية الفرنسية" بناء باريس، فقد قرأ بنيامين المدينة في "فضائها العام"، الذي يتجلى في المخازن وتعددية أصناف البشر وعوامل السلع "والممرات المقتنطرة"، التي تعلن عن انتصار الرأسمالية. غير أن بنيامين الذي لم يكن يقلد أحداً، والأقرب في صمته وعزلته إلى الدب القطبي، أثر أن يتوقف أمام ظاهرتين: السلعة التي تزين

واجهت المخازن التجارية في الممرات الأنيقة، حيث المتجول يجذب إليها، يسر سعيد أو باضطراب محسوب، وحيث السلعة تحدّق بالمتجول وتراوده، كما لو كان في فضاء المدينة الحديثة ما يحوّل البشر إلى سلع مختلفة. تتمثل الظاهرة الثانية بـ "المتسكع، ذلك الإنسان الشارد المتباطئ الذي لا يلتفت إلى الجموع التي تجتاح الشوارع، ولا تلتفت الجموع بدورها إليه.

رهما يكون من المعقول والطريف معاً، أن يقرأ "الباحث المتخصص" أثر العمران الباريسي، الذي خصّه هارفي بكتاب واسع، على شعر بودلير، كما وعاه بنيامين وحلّله. فقد اشتق "الشاعر الرجيم"، بلغة ناقد مصري من خمسينات القرن الماضي، منظوره من "صلابة الفولاذ" والبُور ومواد البناء الحديثة، كاشفاً دلالة عصره بمجازات من زمنه. ليست هذه المجازات، التي ربما تترجم مواد البناء بلغة شعرية، إلا الموضوع الذي درسه هارفي، مسلحاً بمادة اقتصادية وتاريخية هائلة. ولعل العلاقة بين مواد البناء الحديثة والمادة اللغوية التي تصوغ الحادثة الشعرية هي التي تفتح "الاقتصاد" على الخطاب الأدبي، وتقيم جسوراً، لا "طرافة" فيها، بين التحليل الاقتصادي، والتحليل الأدبي يحضر في هذا المجال الألماني كارل هاينز ستيرل، في كتابه "عاصمة الإشارات" بلغة المترجم الفرنسي، الذي زهد بعنوان الكتاب الأصلي "أسطورة باريس" الصادر عام ١٩٩٣. حشد ستيرل في كتابه مادة علمية تتقاطع، على طريقتها، مع المواد التي بنى هارفي عليها كتابه، فأفرد فصلاً عنوانه "مخطط ميرسييه لباريس: ١٠٤٩ صورة للمدينة"، وآخر "صورة باريس ودراما المدينة"، قرأ فيها إشارات المدينة في ساحاتها وأزقتها الضيقة، ومرّ على تطوّرها المعماري، وهو يحلل الأدب المرتبط بها بين ١٧٨٩ و ١٨٣٠. غير أن الأمر الأكثر إيجاء مائل في عناوين فصول الكتاب: نص المدينة، اكتشاف المدينة، قراءة المدينة، مخطط المدينة، التي تجمع بين الأدب والفلسفة وعلم الاجتماع والتاريخ الاقتصادي - السياسي، الذي عالجه هارفي في كتاب يقع في ٥٣٠ صفحة. استدعى ستيرل العلوم الإنسانية المختلفة وهو يقرأ تحولات باريس في نصوص أدبية شهيرة مراجعها: روايات بلزاك وهوجو، وقصائد هنريش هاينه وجيراردي نيرفال وشارل بودلير في "أزاهير الشر".

أشار كتاب هارفي، الواضح والكثيف التحليل معاً، إلى الأدب الفرنسي في القرن التاسع عشر، ويصاحب بلزاك وهو يقتفي آثار باريس ١٨٣٠ - ١٨٤٠، قارئاً العلاقات الاجتماعية المتحولة في أفراد يصدر وعيهم عن "الفضاء العمراني"، أو عن "علم البيئة الفراغي". بل أن حضور بلزاك لا يساويه إلا حضور البارون هوسمان، الذي أشرف على هدم باريس بأبنيتها القديمة والمعتمة والرطبة، وشيّد فوق عشرات الألوف من البيوت المهدومة باريس جديدة ستدعى لاحقاً: مدينة النور. أراد - هوسمان - عمدة باريس - أن يبني عاصمة حديثة تليق بفرنسا، بل تليق بالحضارة الغربية كلها. اعتمد هارفي، وهو يدرس مدينة حديثة تتدفق فيها الرساميل بسهولة عالية، على معارفه الاقتصادية

وإسهامه الجغرافي الذي أطلق عليه "الجغرافيا الراديكالية"، التي تقرأ في "الفضاء العمراني" الآثار الطبقيّة الفاعلة فيه. ذلك أن هارفي اختار أفكار ماركس مرجعاً أساسياً له، رصد بها بناء مكان يفصح عن تفاوتات طبقية عديدة، وحلل الطريقة التي تصوغ بها الرأسمالية المكان تلبية لمصالحها، أكان ذلك في حيّز محدود أو في مساحات بالغة الاتساع. واعتماداً على هذا المنظور عاد إلى هوسمان، الموظف النموذجي والمنضبط الممتلئ حماساً واندفاعاً، الذي كلّفه نابليون الثالث بناء باريس، خلال حقبة الإمبراطورية الثانية: ١٨٥٢ - ١٨٧٠.

رأى هارفي في مشروع هوسمان علاقات الرأسمالية الحديثة، التي تضمن الإنتاج والتداول والتوزيع والاستهلاك، وتحتفي بالسرعة والمردود، دون أن تنسى أبداً التجدّد الذاتي ومحاربة ما تقادم بما استجد وبرهن عن فاعليته. لذا يبدو صاحب "الجغرافيا الجذرية" مأخوذاً بالهدم الخلاقي الذي أنجزه هوسمان، الذي أعطى "الحدائث الفكرية" أسسها المادية مجسدة بتنظيم الإضاءة وتوزيع الماء وقنوات الصرف الصحي والمنتزهات الواسعة، وبالتوزيع العقلائي لمساحات المدينة، الذي يجعلها مكشوفة في الليل والنهار. "يشخصن" المكان، والحالة هذه، المقولات الاقتصادية والاجتماعية الرأسمالية التي تؤسس المدينة على البنوك والسياسات المالية ومواقع الإدارات الملائمة وأشكال العمل وإنتاج نوع من البشر قوامه العمل واحترام الوقت .

ما دعاه ديفيد هارفي بالهدم الخلاقي تمكن إعادة قراءته، أدبياً، في روايات بلزاك، التي ترجمت عاملاً دينامياً نهض فوق أطلال "النظام القديم"، واشتقت منه شكلاً روائياً طموحاً يعطي التجربة التاريخية الجديدة شكلها الأكثر إتقاناً. لذا شكلت "الكوميديا الإنسانية"، التي وضع فيها بلزاك مادة روائية واسعة، منعطفاً جديداً في معنى الرواية وفي القراءة الروائية لفضاء المدينة، إذ تظهر باريس مركزاً لعالم تاريخي مفتوح وموقعاً لتجربة تاريخية غير مسبوقه، بقدر ما تتكشف الرواية في كلمات صادمة ومتصادمة تعلن عن الفكر الجديد والتقدّم الاجتماعي في آن. كتب بلزاك في "مخطوطة الحياة الأنيقة" - ١٨٣٠ - "ظفرت مواد الحياة، بعد أن خضعت إلى تقدم عام، بتطورات هائلة. فلم تتبقّ أية حاجة من حاجات حياتنا بمنأى عن معرفة موسوعية ، مثلما ارتبطت حياتنا الحيوانية بمعارف إنسانية تتصف بالشمولية. وكذلك احتضنت "الموضة"، وفقاً لقوانين الأناقة، كل أنواع الفنون، مؤكدة ذاتها مبدأً للأعمال الفنية والأدبية، .....، وبعثت على ثورات الموسيقى، والآداب، والرسم والهندسة المعمارية...". اندرج بلزاك في المنظور الذي تحدّث عنه، مفصلاً عن أناقة في الأسلوب والشكل والخطاب الأدبي، مستجيباً لواقع "باريسي" غير مسبوق، يراوغ نظر المؤرخ والفيلسوف معاً: "اعتماداً على هذه الأسس، منظوراً إليها من علو ملائم، فإن نظام التجربة هذا أبعد عن أن يكون مزحة عابرة، كلمة فارغة، يزهد به المفكرون مثل صحيفة قرأت أكثر من مرة.

على عكس هذا كله فإن "الحياة الأنيفة" مستنبطة بقوة وثبات من المؤسسة الاجتماعية".  
انجذب بلزك إلى تقدم اجتماعي ضمانه معارف جديدة، تموضعت في تحولات باريس المدهشة،  
كأن يقول في "فيزيولوجيا الزواج"؛ مستعملاً لغة جديدة: "ينهض كل صباح، في هذا الزمن، عدد  
هائل من الأدمغة الجائعة إلى الأفكار، تلتقط ما هو ثمين في كل فكرة وتكمل سيرها باحثة عن أفكار  
أخرى، ذلك أن كل طرف يخلق الفكرة التي تليبه...". لم تكن غبطة بلزك، وهو يعين نفسه سكرتيراً  
للتاريخ، إلا تعبيراً عن شكله الروائي "المطابق"، الذي نفذ به إلى قرار مجتمع تسوسه معارف تطرد  
القديم بلا رحمة، وتستقبل الجديد بسعادة طليقة ترضي العقل والروح معاً.

باريس، كما تشهد دراسات عديدة، عاصمة فرنسا، وهي عاصمة الحدائفة الأوربية، وهي في الحالين  
عاصمة الحدائفة الإنسانية، في جمالياتها المتنوعة غير المتوقعة، وفي حوارها التي عرفت "المومسات"  
و "جامع الأسمال"، الذي نظر إليه فالتر بنيامين بإشفاق كبير. ولأن باريس عاصمة، بصيغة الجمع،  
حظيت بقراءة الفيلسوف وعالم الاجتماع والناقد الأدبي وبقراءة ديفيد هارفي، الذي أقام قرناً  
سعيداً بين علم الاقتصاد و"الجغرافيا الجذرية". ولهذا رأى الألماني زيجفريد كراكور، في كتابه  
"الرواية البوليسية"، في بناء المدينة تجسيداً للعقلانية البرجوازية، مثلما رأى أن الرواية البوليسية  
ترجمة للقانون البرجوازي، الذي تفصح عنه أمكنة المدينة المتعددة.

استشهد كارل هاينز ستيرل في كتابه : "أسطورة باريس" بقول دال: "من بين جميع الكتب التي  
خطتها يد الإنسان حتى الآن، تظل باريس الكتاب الأكثر روعة"، بقدر ما تظل الثورة الفرنسية  
الثورة الأعظم في التاريخ الحديث.

ف. د

## ألبرتو توسكانو في كتابه "التعصب": من أين يأتي التعصب؟

يتمتع كتاب الفيلسوف ألبرتو توسكانو "التعصب" بفضيلتين: معرفة نظرية - تاريخية واسعة، تتقصى وجوه موضوعها في أزمنة ومجتمعات مختلفة، والتعامل مع ظاهرة راهنة - قديمة، تحتل صفات كثيرة ليس آخرها: الإرهاب. تشتق الفضيلة الأولى من قاعدة عايشة التاريخ الإنساني في حقه المتتالية تقول: لا حروب بلا تعصب ولا تعصب بلا حروب، لأن في التعصب كراهية فاعلة، تقضي باجتثاث المكروه الذي فقد الصواب. أما الفضيلة الثانية فتحيل على طواهر لا تغفو ولا تنام، منذ أن اعتبر جنود كولومبوس "الهنود الحمر" مخلوقات لا أرواح لها، إلى زمن جماعات رأّت في "أبي الهول" صنماً يلوّث الهواء. وفي حديث الصنم والجماعات الوليدة ما يثير الفضول، ذلك أن "أبي الهول"، الشهير قائم في مكانه منذ آلاف السنين.

من هو المتعصب، الذي لا يستوي وجوده إلا بإزالة غيره؟ هو الإنسان الذي يحمل فكراً لا تغيير فيه، مساوياً بين فكره والحقيقة الخيرة الكاملة؛ وهو الذي يدور حول موضوع مستقر، معتبراً أن ما خارجه رذيلة فادحة. يطمئن المتعصب النموذجي إلى الثبات، مقررّاً أن التحوّل مع الأزمنة المتحوّلة فساد لا شبهة فيه، وإلى إحادية الموضوع قائلاً بمراتب عارضة وبمرتبة أولى جوهرية مكتفية بذاتها. ولهذا يبدو جديد الأزمنة صدمة، يعالجها المتعصب بلعن الجديد وتكفيره، بقدر ما يبدو المتعصب إنساناً غاضباً تتملكه أزمة خانقة يواجهها بذاتية تدور حول نفسها تدّعي العصمة. لا وجود، في الحالين، لمبدأ السبب، فالاعتراف بالسبب يضع المتعصب خارج فكره وموضوعه وينقله، تالياً، من ملكوت الأحادية إلى أرض المتعدد. في حال المتعصب ما يشبه حال العاطل عن العمل في مطلع الأزمنة الحديثة، الذي كان "يهلك" الآلات، دون أن يرى أصحابها وسياستهم الاقتصادية.

يبد أن ما سبق لا يبدو مقنعاً إلا بصورة "آخر"، يصطنعها المتعصب وينزل بها عقابه. فكما أن العاطل عن العمل "يهلك الآلة"، من حيث هي "آخر" يتضمن كل الشرور، فإنه في المجالات الخارجة عن العمل يخترع "الآخر الملائم" بشكل يسوّغ اجتثاثه، سواء كان عملاً فنياً تصافحه الرياح منذ آلاف السنين، أو

فناناً يعترف بتعددية الألوان والمواضيع. يأخذ "الفنان المختلف"، عندها، صورة الإنسان المتعصب، ولكن بشكل مقلوب، فهو صاحب فكر أحادي شرير، وهو المتمسك بموضوع وحيد واجب إتلافه. يُسقط المتعصب ذاته على آخر مغاير له، ويعطيه ما يشاء من صفات السلب، بدءاً بالكافر الذي لا شفاء له، وصولاً إلى الإرهابي الذي سقط من لا مكان.

يرتاح المتعصب إلى التجريد، فلا يرى تفاصيل "الآخر" ولا يميزه من غيره، ذلك أن الاعتراف بالتمييز والخصوصية يمنع الحرب ويترك أبلسة الآخر. لهذا ارتاح التعصب، في شكله الغربي، إلى توصيفات "علمية" العناوين فتحدث عن "الاستبداد الشرقي، العقلية المسلمة"، وعن "التعصب المحمدي"، الذي كتب عنه الفرنسي فولتير أكثر من مرة، وصولاً إلى الفيلسوف الإنجليزي هيوم، الذي فصل بين الأمم المتحضرة والشعوب البربرية. يتمدد التعصب، في مجال التجريد، متوسلاً كلمات تحجب المعنى، إذ استبداد الشرق من الشرق، وعن المسلمين من عنف الإسلام، و "إرهاب طالبان" من شرق يحرض على الإرهاب. تنحل التفاصيل كلها في "جوهر غربي" يعرف التسامح، وهو كلام يثير القهقهة، وفي "جوهر شرقي" تمنعه طبيعته عن الائتلاف مع الإبداع وحقوق الإنسان، وهو كلام يتاخم الفضيحة. لا غرابة أن يشجب إدوارد سعيد تصور "الجواهر المغلقة"، وأن يتعد ما استطاع عن مفهوم "الهوية"، الذي لا يفرق، أحياناً، بين الثقافات والأحجار.

ومع أن التعصب يدعو إلى الحروب ويستقدمها، فإن في تنوع الحروب ما يبعث على تساؤل مفتوح وينهى عن التعصب، فللتعصب، كما للحروب، أسبابها المتنوعة. فقد رأى البعض في رجل الدين الثائر توماس مونتسر، في الربع الأول من القرن السادس عشر، عصابياً متعصباً يدعو إلى القتل والدمار عقابه الحرق بالنار. ورأى بعض في رجل الدين، الذي قاد ثورة فلاحية، مصلحاً فاضلاً، رفض الحاضر السيء وبشر بواقع مستولد لا تنقصه الفضيلة. شيء قريب من تلك الإيمانية المطلقة، التي ميزت المسيحيين الأوائل الذين واجهوا العنف الروماني بصدور عادية. ربما يكون في مثال توماس مونتسر ما يفصل بين إيمانية أفقها "المدينة الفاضلة" ويقين سلطوي مدمر، أعطاه الألماني هتلر ملامحه الكاملة. ولعل الفصل بين الإيمانية الثورية والتعصب السلطوي القاتل هو الذي يستدعي روبسبير والثورة الفرنسية، حيث الثائر الكامل عصياً على الفساد، وحيث الرجل الذي لا يمكن إفساده من دعاة "الرعب الثوري"، الذي يبني مجتمعاً عادلاً جديداً على أنقاض ملكية ظالمة. ما يربك الفكر، ولا يطمئن إلى الإجابات النهائية، كامن في تلك العلاقة المعقدة بين مواجهة الظلم و"صناعة العدالة"، ذلك أن المجال الظالم لم يكن ممكناً إلا بتاريخ من الرعب طويل.

لم يكن تاريخ الشيوعية، التي وسمت القرن العشرين كله وسقطت بلا مهابة، مختلفاً كلياً عن أحلام وأوهام روبسبير، الذي استعصى على الفساد وانتهى إلى المقصلة. فلقد كان لدى الشيوعيين، وهم ينقلون تعصبهم من مكان إلى آخر، تصورات جمعت بين العلم وأثير الأحلام، معتقدين أنهم ينقلوا البشرية، جمعاء، من زمن ما قبل التاريخ إلى تاريخ إنساني حقيقي مليء بالنعمة. ومع أن الليبرالية

الجديدة، التي صعدت على أطلال الشيوعية، استهلكت حبراً كثيراً وهي تدافع عن "الديمقراطية والقرية الكونية"، فإن ما جاءت به لم يكن متحرراً من التعصب، فرأت في الشيوعية شراً مستطيراً دفنه الخير، إلى غير رجعة، وأوكلت إلى "يقينها الديمقراطي" بناء "المدن الفاضلة" عن طريق الطائرات والصواريخ وقصف الأبرياء الذين لا سلاح معهم. ولن يبدو الحديث نافلاً إن مايز بين العلمانية، في معناها العقلاني، والعلمانية الأصولية، التي قد تستعيد إرهاب روبيسيير، دون أن تعرف فوائده. فالعلمانية المعيشة، إن صح القول، تفصل بين الدين والدولة، تاركة للدين مساحة تخصه وللمتدين شعائر لا يتنازلون عنها، على خلاف العلمانية الأصولية المتعصبة التي ترى في الدين، من حيث هو، شراً يجب استئصاله، مستأنسة بـ "فرانكنشتاين"، الذي يهدر الفرق بين الآلات وغوامض الروح.

ليست العلمانية الأصولية، أو الأصولية العلمانية، إلا راسباً متعصباً من "العقل التنويري"، كما يشير كتاب توسكانو. فقد انطلق الإنسان التنويري من جملة ديكارث الشهيرة: "أنا أفكر، إذن، أنا موجود"، حيث للعقل مملكته الواسعة التي تحوّل الطبيعة وتبدّل الإنسان الذي يبدّلها، فافرض مفهوم السبب والسببية وعابثة بالأحكام النهائية المنجزة. بيد أن هذا العقل، الذي له أشكاله غير العقلانية أيضاً، انزاح عن عقلانيته أكثر من مرة: أنتج عقلاً متعصباً حين رأى في الهنود الحمر مخلوقات لا أرواح لها (لم يعترف دينياً بأن لها أرواح إلا عام 1٦٣٧)، وأنتج عقلاً عنصرياً حين ساق الأفارقة إلى عمل مهلك في بلدان لا يعرفون عنها شيئاً، وأنتج عقلاً قاتلاً حين أحرق اليهود وأرسلهم ليحرقوا الفلسطينيين، ... وقطع هذا التعصب شوطاً طويلاً حين بارك السلع والأسواق ووضع القيم المادية - الاستهلاكية فوق القيم المعنوية والروحية، وهو ما نقدته "مدرسة فرانكفورت" نقداً واسعاً، لا يعوزه التشاؤم، وهو الذي وضع على لسان فالتر بنيامين تعبير: الكارثة.

ثار فالتر بنيامين على زمن تاريخي خطي، متدرج، يؤجل تحرير الإنسان إلى ما لا نهاية، قائلاً بانثاق زمني مفاجئ عنوانه: الخلاص. وإذا كان بنيامين قد اشتق الخلاص المنشود من مفهوم واسع للتحرر الإنساني، فإن اتجاهات متعصبة ساوت بين الخلاص والعودة إلى زمن طهراني قديم. ولهذه الاتجاهات قضاياها الخاصة بها، فهي ترفض الحاضر لأنها لا تعرفه، وتحقد على الحداثة لأنها لا تتمتع بخيراتها، وتكره الجديد بعد أن أعطت القديم أبعاداً مقدسة. لذا تدعو "وهي غافية" إلى استعادة شاملة لقديم تعيشه، ومائل بين يديها، على أية حال معتبرة أن ما ينصر الحديث "جاهلية قديمة"، وأن الحديث الحقيقي ولد منذ زمن طويل. والواضح، رغم بلاغة تستقوي بالجهل، عدم الاعتراف بالتاريخ، وعدم الاعتراف بأن التاريخ أنتج الجاهلية وأنه لن ينتجها من جديد، لأن بين السيف والصواريخ مسافة مرعبة، وبين الجاهلية القديمة والجاهلية الجديدة فرق بنته الأوهام والجهل المقدس.

ولكن ماذا يعني عدم الاعتراف بالتاريخ؟ إنه وهم التأسيس على بدء نقي، يختلف عما سبقه وعما يتلوه اختلافاً كاملاً. وعلى الرغم من وهم التأسيس، أو التأسيس الوهمي، فإن الفكر المتعصب يرى في خصومه

شراً منتهياً إلى دمار يرضي المتعصبين لا أكثر. لا غرابة أن يرفض التعصب التوسطات، مهما كان شكلها، طالما أنه يقول بالبدء الصالح المكتفي بذاته، الذي لا يحتاج إلى واسطة. هنا ولهذا السبب يبدو الحديث عن التنوع زندقة، ويغدو الاختلاف شركاً، وتصبح الأحزاب السياسية بدعة، فهي متنوعة وللتنوع آثامه، وهي ذات نظر متعدد، لا يقبل البدء الشامل ولا يقبل البدء الشامل به. يبدأ الأمر وينتهي، في التحديد الأخير، بتكفير المتعدد، الذي هو مبدأ السياسة ومطلعها الأول، فالسياسة اختلاف، والاختلاف تعدد، والاختلاف المتعدد مصدر الإبداع والابتكار والفضول المعرفي، بعيداً عن ذلك "الواحد المستبد"، الذي يرى إلى جماعات متساوية الفهم والقامات، فإن ظهر منها مخالف عالجه أكثر من عقاب.

ما وجوه التعصب التي أدمن عليها البشر؟ هناك أنصار الرب، كما جاء في العصور الوسطى، الذين يحرقون باغين لا إله لهم، وهناك العقلية الإطلاقية التي تحاذر النسبية والمنتسبين إليها، والهوس الجماعي المتطهر الذي يقسم البشر إلى فريقين لا يلتقيان، والسلطوية السياسية المستبدة التي تعالج آهات البشر بالمدفعية الثقيلة، وتلك "النخبة المتعالية"، التي ترى في اللامساواة المنتاتجة بدايةً بديهية لأشكال المساواة المقترحة، .... وهناك أيضاً تلك "المحاكاة" المريضة، التي تضع بشراً من قش مكان آخرين، من الماضي، قوامهم العقل والفضيلة والأخلاق.

هل يأتي التعصب من التربية أو الدين أو ثقافة الفقر، وما الأسباب التي تجعل من التعصب "ديناً" ومن "الدين" تعصباً؟ وما الذي يقيم علاقة بين التعصب ودعاة "الخلاص الأخير"؟ تحدّث هيجل، في كتابه "فلسفة التاريخ"، وهو يشير إلى إفريقيا، عن "الأرواح اللامتطورة والأرواح اللاتاريخية"، دون أن يأتي بجواب صحيح، لأن تطور العقل لم يمنع دائماً القتل بل قاد، أحياناً، إلى إنقائه. ولهذا تقوم الإجابة، لدى أنصار التحرر، في مفهوم: المساواة، وقد يتطرّف بعضهم فيقول: يحارب التعنت بالسياسة، التي تنقض المجتمعات الأبوية مثلما تنقض كل هرمية اجتماعية متعصبة، وتعين المتعدد مبتدأ للوجود. كان أرسطو يقول: "إنني لست ضد الآلهة، ولكن ضد تصورات العوام للآلهة". كان يفصل بين الدين والتسامح والرحمة واستبداد بشر "استولوا" على مواقع الآلهة واستثمروها في اتجاهات مختلفة.

في كتاب توسكانو "التعصب" ما يقدم إجابات على أسئلة كثيرة، وفيه قوة موحية تستولد أسئلة غافية، وتقترح إجابة مجزوءة، مؤكداً أن رفض التعصب لا يحتفي كثيراً بمفهوم الحقيقة.

Fanaticism:Alberto toscano , London, verso, 2010,277p.



الاجتماع السنوي السادس  
لمجلس أمناء مؤسسة ياسر عرفات



## الاجتماع السنوي السادس لمجلس أمناء مؤسسة ياسر عرفات

نداء دولي لإطلاق الأسرى، دعوة لإنهاء الانقسام ومواجهة تهويد القدس،  
والهم السوري كان حاضراً

يعتبر الاجتماع السنوي لمجلس أمناء مؤسسة ياسر عرفات فرصة استثنائية للقاء عربي مميز يجمع نخبة من القيادات والشخصيات العربية، التي تجتمع لوضع السياسات العامة لمؤسسة ياسر عرفات، ونبض القدر لبحث تطورات القضية الفلسطينية والوضع في الوطن العربي.

وقد عقد الاجتماع السادس لمجلس الأمناء في ٢٨ شباط/ فبراير ٢٠١٣ في مقر جامعة الدول العربية بجمهورية مصر العربية برئاسة رئيس المجلس السيد عمرو موسى الأمين العام السابق لجامعة الدول العربية، وبحضور د. نبيل العربي الأمين العام لجامعة الدول العربية والرئيس السوداني السابق عبد الرحمن سوار الذهب وعدد من الرؤساء السابقين لحكومات عربية، والأخضر الإبراهيمي المبعوث الخاص المشترك للأمم المتحدة والجامعة العربية لسوريا، عضو مجلس أمناء مؤسسة ياسر عرفات، ود. ناصر القدوة رئيس مجلس إدارة المؤسسة.

واستمع المجلس إلى إحاطة من الإبراهيمي عن التطورات في سوريا، كما استمع إلى إحاطة عن الجهود المبذولة للمصالحة الفلسطينية وإنهاء الانقسام قدمها كل من عزام الأحمد (فتح) وموسى أبو مرزوق (حماس).

### قضية الأسرى

ناشد مجلس أمناء مؤسسة ياسر عرفات الأمم المتحدة والمجتمع الدولي العمل والضغط على حكومة إسرائيل بالزامها بإطلاق سراح الأسرى الفلسطينيين في السجون الإسرائيلية ، خاصة

المضربين عن الطعام الذين يواجهون خطر الموت.

وشدد المجلس ، في نداء خاص وقعه كافة الأعضاء ، على أن الاعتقالات الإدارية التي تمارسها إسرائيل ضد الفلسطينيين مرفوضة جملة وتفصيلا.

واعتبرت المؤسسة أن إعادة اعتقال عدد من الأسرى المحررين فيما عرف بصفقة "شاليط" يعد انتهاكا للاتفاق الذي وقعته حكومة إسرائيل وقامت جمهورية مصر العربية برعايته، مشددة على ضرورة إلزام المجتمع الدولي لإسرائيل بالكف عن تلك الأمور.

### جهود إنهاء الانقسام

و دعا مجلس الأمناء حركتي فتح وحماس وكافة الفصائل الفلسطينية إلى العمل الجاد والمكثف لإنهاء الانقسام ، وطالب الدول العربية والإسلامية بممارسة التأثير الايجابي على الأطراف لإنهاء الانقسام وإنجاح جهود المصالحة. وشدد المتحدثون في هذا الشأن على أن الانقسام الفلسطيني شكل نكبة جديدة للشعب الفلسطيني وانه لا يمكن مواجهة ودحر الاحتلال الإسرائيلي دون استعادة الوحدة الوطنية .

### مواجهة تهويد القدس

وأكد المجلس ضرورة التحرك الفلسطيني والعربي الجاد لتأكيد مركزية قضية القدس وأولويتها وضرورة الاهتمام بدعم مواطنيها ومؤسساتها في مواجهة التهويد الإسرائيلي. وشدد كل من الرئيس عبد الرحمن سوار الذهب والسيد الصادق المهدي زعيم حزب الأمة السوداني والسيد منيب المصري عضو مجلس أمناء المؤسسة والدكتور عبد السلام المجالي رئيس الوزراء الأردني الأسبق على الحاجة إلى جهد عربي جماعي لمواجهة التهويد في القدس ، وطالبوا الحكومات العربية بتحمل مسؤولياتها في هذا المجال بما يتطلبه من مواقف سياسية والتزامات مالية.

إسرائيل مسؤولة عن اغتيال عرفات

وأكد مجلس الأمناء استمرار متابعته ملف التحقيق في ظروف استشهاد الرئيس ياسر عرفات مجددا تأكيد موقفه بمسؤولية إسرائيل عن اغتياله . واستمع الأعضاء في هذا المجال إلى تقرير من د. عبد الله البشير رئيس اللجنة الطبية المكلفة بمتابعة التحقيق عن التطورات المتعلقة بالفحوصات للعينات التي أخذت من رفات الرئيس الراحل والتي قد تظهر نتائجها في الأشهر الثلاثة المقبلة.

## موسى: لا عودة إلى الورا

وقال عمرو موسى، في كلمته التي افتتح بها أعمال الاجتماع: إن القضية الفلسطينية ستظل حية بدرجة كبيرة وربما تشهد الأشهر المقبلة تحركاً فاعلاً لإحقاق الحق الفلسطيني بعيداً عن مفاوضات بلا جدوى، معرباً عن تطلعه لحل عادل للقضية يركز على حق تقرير المصير .  
ونبه إلى أن العالم العربي يمر بمرحلة فارقة في تاريخه والآمال معقودة على المستقبل، حيث لن يعود إلى الورا، وثمار ما تشهده دول المنطقة ستجنى خلال السنوات المقبلة.

## العربي: فلسطين ستبقى القضية المركزية

وشدد د.نبيل العربي في كلمته على أن القضية الفلسطينية ستبقى القضية المركزية والشغل الشاغل للعرب، حتى يتحقق حلم الرئيس الراحل ياسر عرفات، بقيام دولة فلسطين المستقلة على حدود عام ١٩٦٧ وعاصمتها القدس الشريف.

ولفت العربي إلى أهمية هذا الاجتماع، موضحاً أنه يعقد بينما الإجراءات الإسرائيلية العدوانية في الأرض الفلسطينية المحتلة مستمرة حيث تحاول إسرائيل، في غياب رد فعل من قبل المجتمع الدولي وخاصة مجلس الأمن، خلق واقع جديد على الأرض ووضع العوائق للحيلولة دون قيام الدولة الفلسطينية المستقلة على خطوط ١٩٦٧.

وأشار إلى أن نجاح فلسطين في الحصول على وضع دولة مراقب في الأمم المتحدة، في قرار تاريخي تم بأغلبية كبيرة، جاء تأكيداً على أن قيام دولة فلسطين المستقلة الحرة على حدود ١٩٦٧ وعاصمتها القدس، هو هدف واضح من أهداف المجتمع الدولي بأسره، ويعد تطوراً وانجازاً يجب البناء عليه، كما أن بؤادر تنفيذ اتفاق المصالحة الوطنية سيعزز الموقف الفلسطيني باتجاه ترسيخ أسس الدولة الفلسطينية واستمرار الاعتراف الدولي بها.

واستعرض العربي محددات التحرك السياسي، الذي تبنته جامعة الدول العربية منذ قرار المجلس الوزاري في ١٧ نوفمبر الماضي الذي ينص على ضرورة إعادة تقويم الموقف إزاء مجريات ما يسمى مجازاً ' عملية السلام '، معتبراً أنها باتت مجرد عملية مظهرية ليس الهدف منها تحقيق السلام الذي قرره قرارات الأمم المتحدة، ولن تحقق سلاماً وإنما إضاعة الوقت، بما يصب في مصلحة إسرائيل، التي تسعى دائماً إلى كسب الوقت والتسويق .

وحذر من تمادي إسرائيل في تنفيذ مخططاتها لابتلاع الأرض الفلسطينية ومحاوله القضاء على حل

الدولتين الذي أجمع المجتمع الدولي منذ صدور قرار التقسيم في عام ١٩٤٧ على أنه الحل الوحيد لهذه القضية المعقدة، وفي المرحلة الأخيرة على وجه الخصوص، انصب التركيز على معالجة تداعيات وآثار ومظاهر الاحتلال (المستوطنات، الأسرى، أموال الضرائب) بدلاً من التعامل مع الاحتلال الاستيطاني نفسه والعمل على إنهائه، وهذا توجه أثبتت التجارب أنه يفضي إلى المزيد من عدم الاستقرار وتهديد السلام ولم يحقق أى تقدم يذكر.

ودعا العربي إلى ضرورة إيجاد منهجية جديدة تعمل على تنفيذ القرارين ٢٤٢ و ٣٣٨ تنفيذاً كاملاً وأميناً، وإنهاء الاحتلال الإسرائيلي للأرض الفلسطينية، بما فيها القدس المحتلة، وقيام الدولة الفلسطينية حرة مستقلة مكتملة المقومات على حدود ١٩٦٧، وذلك في إطار زمني محدد وملزم، كما أنه من الضروري بلورة آلية متابعة أكثر فاعلية من الرباعية الدولية، التي أثبتت فشلها وقلة حيلتها.

وشدد العربي على دعم الجامعة العربية لمؤسسة الرئيس ياسر عرفات والاستعداد الكامل لبذل كافة الجهود لإنجاح أعمالها وتحقيق أهدافها.

### القدوة : الهم العربي المشترك

ودعا د. ناصر القدوة رئيس مجلس إدارة المؤسسة في كلمته إلى الاستلهام من سيرة الزعيم الراحل ياسر عرفات بما يحقق الفائدة لنا جميعاً خاصة في ظل ما نعيشه من هم عربي مشترك. وقال أن الوضع الفلسطيني والعربي يحتاج جهوداً جبارة من جميع المخلصين لأن المنطقة تعيش تغيرات واسعة .

وأكد، في كلمته أمام الاجتماع، أهمية بذل المزيد من الجهود لإعادة اللحمة للصف الفلسطيني وتحقيق المصالحة الفلسطينية، ونوه إلى ما أعلن عن الزيارة المهمة المرتقبة للرئيس الأميركي باراك اوباما للحرم القدسي الشريف وإلى الكيفية التي ستتم بها الزيارة لما لذلك من دلالات وآثار مهمة فيما يتعلق بموضوع السيادة على الحرم القدسي.

ويشار إلى مجلس أمناء مؤسسة ياسر عرفات بحث تطورات التحقيق في ملف استشهاد الرئيس الراحل ياسر عرفات، والقضايا المتعلقة بعمل المؤسسة وبينها متحف وضريح ياسر عرفات، وافر التقريرين المالي والإداري المقدمين من مجلس إدارة المؤسسة .

## مجلس الأمناء

يذكر أن مجلس أمناء مؤسسة ياسر عرفات يضم نحو مائة من نخبة الشخصيات العربية والفلسطينية وهم:

الرئيس الفخري: الرئيس محمود عباس؛ رئيس مجلس الأمناء: السيد عمرو موسى؛ رئيس مجلس الإدارة: د.ناصر القدوة. والأعضاء: السيد أعل ولد محمد فال؛ السيد الأخضر الإبراهيمي؛ البطريك ميشيل صباح؛ السيد الحبيب بن يحيى؛ الشيخ تيسير رجب التميمي؛ السيد الصادق فيالة؛ السيد أحمد كمال أبو المجد؛ د.أحمد الطيبي؛ السيد أحمد عبد الرحمن؛ السيد أحمد قريع؛ السيد أحمد هاشم الزغير؛ السيد أكرم عبد اللطيف؛ السيد أكرم هنية؛ السيدة آمنة جبريل؛ السيدة انتصار الوزير؛ الشيخ محمد حسين؛ السيد الإمام الصادق المهدي؛ السيد الطيب عبد الرحيم؛ المطران عطا الله حنا؛ السيد الهادي البكوش؛ السيد الياس خوري؛ السيد باسل عقل؛ السيد بسام الصالحي؛ السيدة بهية الحريري؛ السيد جعفر طوقان؛ السيد جلول ملائكة؛ السيد جميل مجدلاوي؛ السيد د.رامي الحمد لله؛ السيد رشيد مشهراوي؛ د.رفيق الحسيني؛ د.رمزي خوري؛ السيد روجي فتوح؛ د.زكريا الآغا؛ السيد زياد البندك ؛ السيدة زينب الغنيمي؛ السيد سامر خوري؛ د.سامي مسلم؛ د.سحر القواسمي؛ السيد سعيد خوري؛ السيد د.سلام فياض؛ السيدة سلوى أبو خضراء؛ السيد سهيل صباح؛ د.صائب عريقات؛ السيد صالح رأفت؛ السيد صالح قلاب؛ السيد طلال عوكل؛ السيد طلب الصانع؛ د.عبد الرحمن العويس؛ السيد المشير عبد الرحمن سوار الذهب؛ السيد عبد الرحيم ملوح؛ د.عبد الرؤوف الريدي؛ د.عبد السلام المجالي؛ السيد عبد القادر الحسيني؛ د.عبد الكبير العلوي المدغري؛ د.عبد الكريم الأرياني؛ د.عبد الله البشير؛ السيد عزام أبو السعود؛ السيد عزام الأحمد؛ السيد عزام الشوا، د.علي عبد السلام التركي؛ السيد علي مهنا؛ د.عمر مشهور حديثة؛ د.غازي حنانيا؛ السيد غسان الشكعة؛ السيد فخري كريم؛ د.فيحاء عبد الهادي؛ السيد قيس عبد الكريم؛ د.كمال الشرافي؛ د.مانع سعيد العتيبة؛ السيد محسن إبراهيم؛ السيد مصطفى عثمان إسماعيل؛ السيد محمد القدوة؛ السيد محمد بركة؛ د.محمد شتية؛ السيد محمد صقر؛ السيد د.محمد مصطفى؛ السيد محمود درويش (رحمه الله)؛ د.ممدوح العبادي؛ السيد مروان البرغوثي؛ السيد منيب المصري؛ د.مهدي عبد الهادي؛ السيد ميشيل صايغ؛ السيد نافذ الحرابوي؛ السيد نبيل أبو ردينة؛ السيد د.نبيل العربي؛ د.نبيل شعث ؛ د.نبيل قسيس؛ السيد نجيب ساو يرس؛ السيد هاني المصري؛ السيد هاني فحص؛ السيد واصل طه؛ السيد وليد سلمان؛ السيد ياسر عبد ربه؛ السيد يحيى محمد عبد الله صالح؛ السيد يحيى يخلف ود. يونس الخطيب.

